تقــــديم

- ١ -

اتت ترجمة الالياذة لسليمان البستاني، والصادرة في اللغة العربية للمرة الأولى عام ١٩٠٤ وكأنها استدراك لنقص ثقافي عربي عمره أكثر من ألف عام على الأقل، ففي حين نقل المترجمون العرب في العصر العباسي كتاب الشعر، لأرسطو باكرا، فانهم لم ينقلوا «الشعر» الذي بنى عليه ارسطو كتابه او تنظيراته، وبطبيعة الحال فقد كانت «الالياذة» إلى جانب الشعر التمثيلي اليوناني، من جملة التراث الشعري اليوناني الذي اعتمد ارسطو عليه في بناء نظريته في الشعر، والتي نقلت للعربية أكثر من مرة وشرحها أهم الفلاسفة امثال الفارابي وابن سينا وابن رشد.

لكن اهتمامنا هنا ليس متعلقاً بالالياذة تحديداً، أو بترجمتها، بل هو يتوجه نحو المقدمة النقدية كبيرة الأهمية والتي كتبها سليمان البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥) مصدراً بها ترجمة الالياذة، والتي اداها البستاني شعرياً، مما جعل أكثر مقدمته يدور حول فن الشعر، وحول فهم البستاني لهذا الفن، ففي هذه المقدمة تكلم البستاني عن هوميروس وشعره والشعر اليوناني، وعن أسباب امتناع المترجمين العرب قديماً عن نقل هذا الشعر، وخصوصاً الالياذة، معيداً ذلك الى وثنية اليونان، والى اعتداد العرب بفنهم الشعري، وبعدها تكلم البستاني عن ترجمة الشعر، ثم بحث عن ملاحم شعرية عربية تقارب الالياذة، ثم قارن بين الأوزان الشعرية العربية واليونانية، وخلال ذلك تحدث عن الشعر العربي القديم ونظريته، ثم قارب الحديث عن الشعراء المحدثين في عهده.

قد تكون مقدمة ترجمة الالياذة لسليمان البستاني أول مسح شامل في العصر الحديث لنظرية الشعر العربي القديم، وبهذا فهي تمثل ماسمي بمدرسة الاحياء في فهم الشعر ونقده، اضافة الى كونها تدعو الى انفتاح الشعرالعربي على «شعر» الثقافات الأخرى، أو تطعيم الشعر العربي بنوع شعري قديم موجود في الثقافات الأخرى، لكنه يكاد يكون مفقوداً في الثقافة العربية، وهما - المقدمة والترجمة - تلمحان بالتالي الى انه ماعاد ممكناً للشعر العربي الاكتفاء بنفسه، وان هناك شعراً لثقافات أخرى يجب أن تعرفه الثقافة العربية. شعرا ولغة، وان يدخل في نسيج ثقافتها وفنونها. وبالتالي فامتياز الشعر لم يعد مقتصراً على العرب كما توهم القدماء. كما ان المقدمة تطرح قضايا ثقافية أخرى سيلاحظها القارئ في حينها.

- ٢ -

ولد سليمان البستاني في قرية «بكستين» اللبنانية، وتعلم في المدرسة الوطنية وهي مدرسة علمانية أنشأها بطرس البستاني عقب الفتنة الطائفية في بلاد الشام عام ١٨٦٠ وقد كان ناصيف اليازجي ويوسف الأسير، وهما علمان نهضويان، من جملة مدرسي البستاني، ثم مالبث البستاني بعد أن كبر ان تنقل في البلاد العربية وأوروبا وأمريكا، وقد اطلع خلال تجواله على اصلاحات مدحت باشا في العراق، ومدحت باشا كما هو معروف أحد آباء الحرية والدستور في الدولة العثمانية، وله تأثير كبير في البلاد العربية. كما ان اصلاحاته معروفة في العراق وسوريا، ثم مالبث البستاني ان عمل في التجارة ثم في المناصب السياسية والدبلوماسية حتى وصل الى «منصب وزير التجارة والزراعة» في حكومة الاتحاد والترقي عام ١٩١٣، لكنه مالبث ان استقال احتجاجاً على دخول الدولة العثمانية

الحرب الى جانب المانيا، اذ كان يرى أن من الأفضل للدولة العثمانية ان تقف على الحياد في هذه الحرب، ويبدو أن رأيه كان الأفضل، وعلى كل حال فقد كان البستاني من أهم الدعاة للجامعة العثمانية والوطن العثماني الواحد، لكن بعد القيام بالاصلاحات الضرورية.

عن هذه الأصلاحات المطلوبة قدم سليمان البستاني كتابه البرنامجي الوثائقي كبير الأهمية (عبرة وذكرى: الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ١٩٠٨) وقد كتبه البستاني كتحية للثائرين على السلطان عبد الحميد و«كمشروع برنامجي للاصلاح» فهل كان برنامج سليمان البستاني لاصلاح الثقافة العربية عموماً، و،الشعر العربي خصوصاً، عبر تطعيمه بالثقافة الأوروبية والشعر اليوناني وملحمته الخالدة بعداً آخر لمحاولة اصلاح الدولة العثمانية المستبدة عبر تطعيمها بالأفكار الأوروبية، افكار: الحرية والعدالة والمساواة؟ ذاك أمر نتركه للباحثين في شخصية سليمان البستاني وتراثه ككل، لكننا نكتفي هنا بتقديم مقدمة ترجمة سليمان البستاني الصادرة في القاهرة عام ١٩٠٤، ولابد من أن التنويه هنا بأن الوسط الأدبي العربي قد احتفى بهذه الترجمة وقت صدورها، واقيم احتفال خاص بمناسبة صدور هذه الترجمة. ثم غاب ذكر البستاني وعمله الى ان اعادت احدى دور النشر اللبنانية تصوير واصدار هذه الترجمة، وفي طبعتنا هذه نكتفي بنشر مقدمة الترجمة نظرا لأهميتها في نظرية النقد العربي الحديث عموماً. ونظرية الشعر خصوصا.

محمد كامل الخطيب

١٩٩٤

إهداء الكتاب



خطار ساوم نادر البستاني

(١٨٣٠ — ١٨٨٦)

إليك يا والدي أهدي كتابي هذا فأنتَ أولى به من كل حيٍّ وميْت . وما هو الا ذرّة من فضلك وجزء من عنايتك ببنيك وتفانيك بنفع ذويك وبني جلدتك . فان عجزت عن اداء واجب الوفاء بحياتك فلا اقلّ من أن أشهد الملأ على عرفاني جميلك وانت في عالم الارواح

ديباجة الكتاب

هذه إلياذة هوميروس ازفُّها إلى قرّاء العربية شعرًا عربيًّا . ولقد استنفدت وسعي في نظمها وإلحاحها راجيًا أن تكون مُحكَمة التعريب خليّة من شوائب اللُّكنة والعُجْمة

وقد صدّرتها بمقدّمةٍ أتيت فيها على سيرة صاحب الالياذة واشرتُ إلى منظوماتهِ ومنزلتهِ عند القدماء وراي المتأخرين فيه واقوال العرب في شعره . — وبحثت في الإلياذة وموضوعها وطرُق تناقلها قبل الكتابة ثم في جمعها وكتابتها وسلامتها من التحريف مع ما فيها من قليل الدّخيل والساقط والمكرّر والمُغلق . وأتيت على تحليلها وتشريحها و بسط ما فيها من الفائدة للأدَب والتاريخ وسائر العلوم والفنون والصنائع . وأوضحت ما كان من الأسباب الداعية في صدر الاسلام إلى إغفال العرب نقلها إلى لغتهم . — وتطرّقت الى التعريب فقصصت حكاية المعرّب في وضع هذا الكتاب . وذكرت مناهج العرب في نقل الكتب الأعجمية والطُّرق التي يجدر بالثّقاة التعويل عليها . وساقني ذلك الى النظر في التعريب الشعري ثم الى النظم على الاطلاق وأوزان الشعر وقوافيه وَوَقع كلٍّ منها في معانيه . وجوازات الشعر من مأنوسٍ ومكروهٍ الى غير ذلك مما يُعدُّ من خصائص هذه الصّناعة . — وانتقلت الى المقارنة بين الالياذة والشعر العربي . فوطّأتُ لذلك بالشعر القديم وأصلهِ وسبب

طُمُوسهِ ومُناشدات سوق عُكاظ وشأن لغة قُرَيش فيها وفضل القرآن في جمع اشتات اللغة وتوحيدها وإحكام بلاغتها في النظم والانشاء . وقابلت بين لغة قُرَيش المُضَرِية ولغة الإلياذة اليُونيَّة . وفصَّلت اطوار الشعر العربي مميزاً بين طبقات الشعراء من عهد الجاهليين حتى يومنا . وأثبتُّ مزايا كل طبقةٍ منها مع تعيين مدَّتها واسماء فحولها وايراد ما اتسع لهُ المقام من نفيس شعرهم . ثم أشرتُ الى مغامز الشعر العربي ومناهج المولَّدِين في أبواب الشعر وفنونه وأساليبه وعلوم الأَدب العربية وتاريخها . وانتهيت الى أسباب الضعف والانحطاط في شعر المُحدَثين وجنوح النوابغ من أبناء هذا العصر إلى سدّ الخلل وتعديل الخطَّة . وأفردت باباً للملاحم او منظومات الشعر القصصي مما يماثل الإلياذة فأشرت الى ضروب الشعر عند الافرنج وقابلت بين ملاحم الأَعاجم والملاحم العربية من الشعر الجاهلي وجمهرة أشعار العرب . واستطردت من ذلك إلى القاء نظرةٍ على الجاهليتين جاهلية العرب وجاهلية اليونان ثم الى ملاحم المولَّدِين . ورجعت بعد هذا الى الحقيقة والمجاز وما يلصق بالمعاني الشعرية من التشبيه والكناية والاستعارة والبديهيات وما ينتابها من النقل والسرقة وتوارد الخاطر وما قد يطرأُ عليها من التغيُّر بفعل الحضارة . وأَلمَعت إلى مسالك الأَعاجم في ذلك مبيِّناً مزية العربية على لغاتهم في بعض الأحوال . — وذيَّلت المقدمة بخاتمة في الشعر واللغة عارضت فيها بين العربية واليونانية وبحثت في اتساع العربية وثروتها

القديمة وكثرة مترادفاتها وتعدُّد المعاني فيها للفظ الواحد مع ايضاح فائدة ذلك وضرره وايراد اسباب الضعف في تأدية ما استُحدِث من المعاني العصرية . واشرت الى نهج العرب بالتوسع في اللغة والاصطلاح . وختمت بخلاصةٍ موجزةٍ في ما تراءى لي من الدَّاء والدَّواء والنهضة الحديثة ومستقبل اللغة والشعر

وقد علَّقت على الكتاب شرحاً توخَّيت فيه الفائدة والتفكيه . ورصَّعته بزهاء ألف بيتٍ مما قالهُ العرب في مثل معاني الالياذة او حوادثها . وضمَّنته كل ما تجدر معرفته من اخلاق الامة العربية «في جاهليتها وبداوتها وحضارتها والمشهور من اساطيرها وعباداتها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وادبائها ومواقف ملوكها وامرائها وساستها وزعمائها» الى غير ما هنالك مما اوضحته في باب حكاية المعرِّب (ص : ١٢)

وقد مثَّلت المتن الشعري مطبوعاً بالشكل الكامل واودعت الشرح كثيرًا من رسوم الآلهة وغيرهم مما يحسن الاطلاع عليه

واضفت فهرساً لتلك الرسوم وآخر للقوافي ومعجماً للالفاظ اللغوية ومعجمين آخرين لجميع موادّ الكتاب من اعلامٍ وتاريخ وعلمٍ وصناعةٍ وخُلُقٍ وعادةٍ وهلمَّ جرًّا

تلك هي على الجملة محتويات الكتاب « فان أحسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد والا فحسبي ان افتحه باباً يلجهُ من وفقهُ الله الى سبيل السداد »



هوميروس

هوميروس

اسمهُ ولقبهُ

اختلف المؤرخون في اسم صاحب الالياذة ولكنهم متفقون على ان « هوميروس » لقبٌ لُقِب به لامر جللٍ تخلَّل حياته فعُرف به وأُهمل اسمه على نحو ما اتفق لكثيرين من شعرائنا الذين غلبت القابهم وكناهم على اسمائهم كطَرَفة ابن العبد والشمَّاخ والنابغة والفرزدق والاخطل والمتنبي وابي العلاء · وللكتَّاب اقوالٌ مختلفة في ذلك اللقب نظير ما لكتَّابنا من المذاهب المتضاربة في اصل تلك الالقاب والكنى · ولهذا حاموا حول اللفظة اليونانية وجعلوا يستنبطون من معانيها ما شاؤوا فوضعوا لكل معنى يُستخرج منها حديثًا مما يمكن وقوعه لشاعرنا · فمن قائل انه لما كانت كلمة هوميروس (ομηρος) بمعنى الرهينة غلب عليه هذا اللقب لوقوعه اسيرًا في حربٍ فكان من جملة الرهائن · على ان الذاهبين هذا المذهب ليسوا على بيّنةٍ من تلك الحرب · فمنهم من يجعلها بين ازمير وساقس وهو مذهب فروكلوس وعندهُ ان الشاعر اعتُقل في ساقس · ومنهم من يقول بل أُخذ الى كولوفون · وقال آخرون بل وقع اسيرًا في قبضة الفرس — ومن قائل ان اللفظة منحوتة من كلمتي (ομως ερειν) ومعناها « المتكلم في المجالس » اي الخطيب او المشير وهو قول سويداس وكل ما يُستخرج من هذا النحت يصح ان يتفق لصاحبنا — ومن قائل انها مشتقة من لفظة (ομηρειν) بمعنى التابع او اللاحق اخذًا من قول فلوطرخوس انه لحق بالليديين من مدينة ازمير — وهناك اقوالٌ اخرى اجدرها بالذكر قول هيرودوتس وايفوروس ان اللفظة مركبة من ثلاث كلمات (ο μη ορων) بمعنى الكفيف البصر وهو تخريجٌ حسنٌ يصحُّ التعويل عليه لانه لم يثبت في الاثر شيءٌ مما يؤيد الاقوال السابقة ولكنه ثابتٌ ان بصرهُ كُفَّ وهو لم يكد يتجاوز سن الشباب وقد اشار الى ذلك

في ابيات من منظومته « الاوذيسية » . وفي مُعجم الكسندر « ان لفظة هوميروس مفردةٌ كان يراد بها « الاعمى » في مدينة كومة وبها لُقِّب الشاعر »

واما اسمه فأشهر ما قيل فيه انه كان ميونيذِس اي ابن ميون لان ميون ملك ليديا تزوَّج امَّهُ كريثيس والطفل على يدها فدعاهُ باسمه وهو يعتقد ان ابا ذلك الطفل من الجنّ . وقيل بل كان والد هوميروس داماسوغوراس ووالدته أثرا ومسقط رأسه مصر . وقيل بل كان اسم هوميروس ميليسجينيس وهي رواية هيرودوتس وعليها المعوَّل كما سيجيء

نَسَبُهُ

لا يُعلم شيءٌ ثَبَتٌ عن نسَب هوميروس وحسَبه . وان لدينا مما استبقاه المتقدمون اقوالاً متباينة لا يمكن الاخذ بشيءٍ منها . وصفوة ما عوَّل عليه الكتبة منها سيرتان كتبهما هيرودوتس وفلوطرخوس ثم وجد المتأخرون بعد التمحيص انهما لا تخلوان من تناقض يؤدي الى الظن انهما أُلفقتا بعد حين كقول هيرودوتس ان هوميروس نبغ في القرن السابع اي قبل حملة الفرس الكبرى على بلاد اليونان وقوله في تاريخه ان هوميروس تقدمهُ باربعمائة سنة مع انه كان يدوّن بنفسه سيرتلك الغزوة تدوين الشاهد الحي . وليس في ما بين ايدينا من منظوم هوميروس ما يشير الى أُسرته وعِترته مع انه كان احرص الناس على تدوين الانساب كما يتضح لمن يتصفح الالياذة . ولا اخاله الا آتيًا على تلك النسبة في شيءٍ مما فُقد من شعره اذ ليس في محفوظ اشعاره ذكرٌ لابيه . واما امه فيزعم بعض الشراح انها هي المعنيَّة بقوله في النشيد الثاني عشر (ص : ٦٨٩)

كمرأةٍ عالت الاطفال عادلةٍ   قد امسكت عود ميزانٍ تعادلهُ
لا تُجسر الصوف مثقالاً تضنُّ به . . .

وعلى هذا فلا يمكن استخلاص شيءٍ من كُتُبه عن نسبه . وجميع ما لدينا

من رواية السلف عنه لايتجاوز حد الحدْس ولا سيما ان شهرته النامية ومنزلته السامية حبّبتا الى كتَبة كل قبيلة من اليونان ان تدّعيه فتنازعته مدائنهم واتى كلٌّ منهنَّ ببرهان . واشهر تلك المدائن ثمان وهي ازمير وسلاميس (وتدعى اليوم كولوري) ويوس (نيو) ورودس وخيوس (ساقس) وكولوفون وارغوس واثينا . ولعله اقام زمنًا في كلٍّ منهنَّ واخلف فيها اثرًا من شعرهِ فكان داعيًا الى تلك الدعوى . وان رجلاً هذا شأنه لابدع ان يدّعيه كلُّ فريق من قومه بعد ان ادّعاه الاجانب . فقد ذكر افستاثيوس روايةً اسندها الى اسكندر بافيوس زعم فيها ان هوميروس ولد في مصر قال : «كان ابوه يدعى داماساغوراس وامهُ اثرا فلما وُلد عنيت بتربيته نبيَّةٌ من ولد اوروس الكاهن وكان يتحلّب الشهد من ثديها الى فم الطفل فكان اذا اقبل الليل يتغنى بصوت كصوت تسعةٍ من الطير مختلفة الاجناس واذا لاح الفجر يصبح .وهو يلاعب تسعًا من الورَق . واوعز الى ابيه ان يبني هيكلاً للقيان منشدات السماء فبناه وقص الخبر على ابنه لما بلغ اشُدَّه فكانت تهيجه ذكرى الحمام وترنم به في شعرهِ »

ومها يكن من الخبط في تلك الاقاويل فانَّا نتبع الفريق الاعظم من الكتبة في التعويل على النسبة التي كتبها هيرودوتس واليك مجملها :

مولدهُ ونشوؤهُ

هو ابن كريثيس ابنة ميلانوفوس ولدته امهُ على ضفة نهر ميليس في ضاحية ازمير ودعته ميليسجينيس اي ابن النهر ميليس . وكان في ازمير اذ ذاك معلّم كُتّاب يدعى فيميوس فاستأجرها لغزل الصوف الذي كان يتقاضاهُ اجرةً من تلامذته . وكانت كريثيس صَناع اليدين ذات رجاحة وسكينة فأعجب بها فيميوس وخطبها لنفسه . وما زال يمنّيها بالوعود حتى اجابته الى طلبه . وكان جلُّ ما استمالها به قولهُ لها انه توسم في الغلام من الفطنة والذكاء ما جعله واثقًا انه سيكون نابغة عصره اذا عُهد اليه بتربيته فاذا رضيت به بعلاً لها فهو يتبنّى

ابنها ويعكف على تهذيبه وتثقيفه · وبرَّ فيميوس بوعده فعُني به فاذا به قد فاق جميع اقرانه ثم ما انقضت بضعة اعوام الا وهو يكاد يظهر على استاذه

مدرستهُ

وتوفي فيميوس ولا وارث له الا هوميروس ثم ما لبثت ان توفيت كريثيس فخلت المدرسة لهوميروس فأقام مقام استاذه فأُعجب به بنوازمير وطارت شهرته فقصدهُ الداني والقاصي واصبح مجلسه ديوان الادب وكعبة الحكمة · وكانت ازمير لذلك العهد محطًّا لرحال التجار تُستورَد اليها الحبوب من تلك البقاع الخصبة فتمتار منها المدن المجاورة · فأصبح الغريب القادم اليها اذا فرغ من عمله او سنحت له فرصةٌ يهرع الى مجلس الاستاذ الفتى ليلتقط درر حكمته · وممن كان يختلف اليه ربَّان سفينة من ذوي العلم والدهاء اسمه منتِس يحمل الحبوب الى ازمير من لوقاديا نُشغف بحديث ميليسجينيس وجعل يحسّن له الاسفار ويزين له مشاهدة الامصار وهو في عنفوان الصبا قبل ان يدركه العجز ليزداد حكمةً واطلاعًا ووعده ان يحمله على سفينته فيتخذه خدنًا عزيزًا وإلفًا كريمًا وما زال به حتى حملهُ على مغادرة المدرسة والتدريس واللحاق به رحّالةً على متن البحار

أسفارهُ

وكان ميليسجينيس شديد المراقبة كثير البحث لايقع بصرهُ على شيء الاتحرّاه ولا طرق مسمعهُ خبرٌ الا استجلاهُ فطالت الرحلة وهو في اثنائها يختزن الفوائد ويجمع الاخبار حتى انتهى به التطواف الى ايبريا (اسبانيا) واقلعت منها السفينة الى ازمير فعرَّجت على ايثاكة (ثياكي) في الارخبيل اليوناني وهناك رمدت عينا ميليسجينيس فاضطرَّ منتس على كرهٍ منه ان يستبقيهُ فيها لدى صديقٍ له حميم من اهل تلك الجزيرة يدعى منطور · فأنزلهُ منطور في دارهِ وكان مضيافًا طيب العنصر رحب الصدر كريم الخلق ليس في بلاده من يضاهيه شهرةً بتلك الخلال

ولم تكن العلة لتمنع الفتى من البحث والتحري فظل وهو على فراش المرض يلتقط شوارد الفوائد ومن جملتها اخبار اوذيس (اوذيسس) واسفاره (فكانت له اساساً بنى عليه منظومته الاوذيسية وجعل فيها اسم منطور مرادفاً للحكمة والبر تخلد بها ذكره ابد الدهر)

وبقي ميلسيجينيس نزيل منطور الى ان عاد الربان منتس الى ايثاكة فانزله الى سفينته واستأنفا الاسفار الى ان بلغا كولوفون فاشتد عليه الرمد حتى فقد بصره جملةً وظلَّ كفيفاً الى ان مات

شروعه في قرض الشعر

ولما كُفَّ بصره قصد ازمير واقام فيها زمناً ينظم الشعر فضاقت ذات يده وبرّحت به الحاجة فعوّل على الشخوص الى كومة وسار يقطع هرمس (وهو نهر كديز او سرابات) الى ان بلغ به السير الى نيونتيخوس وهي بلدة من مستعمرات الكوميين . قيل انه وقف فيها الى حانوت تاجر جلد فأنشد ابياتاً شكا فيها بؤس الغريب الشريد المتضور فاقةً وجوعاً وكان ذلك اول عهده بالانشاد على مسمع الناس . فأصابت تلك الابيات موضع رفق وعطف من فؤاد ذلك التاجر فرحب به وآواه اليه فجلس في الحانوت وانشد على مسمع جماعةٍ ممن حضر مقاطيع من شعره في وصف حملة امفياراوس على ثيبة وبضع ترانيم دينية . فأجلّه القوم واكرموا مثواه فأقام بينهم وصناعته الانشاد.

قال هيرودوتس : « ولا يزال اهل تلك البلدة حتى يومنا يفخرون بالاشارة الى المجلس الذي كان ينتابه فينشد فيه ولذلك الموضع عندهم حرمةٌ ومنزلةٌ سامية وفيه شجرة صفصاف يزعمون انها زُرعت يوم قدم ميلسيجينيس فأقام بين ظهرانيهم »

تتمة اسفاره

اقام الشاعر بضعة اعوام في نيونتيخوس ثم قلّ رزقه فيها فبرحها الى كومة

وقصد الموضع الذي كان يجتمع فيه مجلس الشيوخ وانشد ما تيسر فارعص الحضور طرباً فطابت نفسه وعظمت امانيه فسألهم ان يقوموا بنفقته على ان يقول فيهم من الشعر ما يُطير شهرة مدينتهم في الافاق ويخلد لها جميل الذكر فلم يكن في من حضر الا من استصوب السؤال واوعزوا اليه ان يقول قوله هذا في المجلس وهو ملتئم وهم من ورائه يعضدون . فعمل باشارتهم ولما اجتمع الشيوخ أُدخل الى قاعة الاجتماع فانتصب خطيباً واعاد الكلام الذي القاه على عامة الناس وخرج ينتظر الجواب . فخلوا الى شوراهم وكان معظمهم ممن يرغب في موافقته فاذا بواحد منهم قد قام فاعترض وقال لئن جنحنا الى القيام بنفقات العميان الشعراء لنلقين على عواتقنا زمراً منهم لا قِبَلَ لنا بهم . فأدى بهم ذلك الى الانقلاب عن عزمهم

ومن ثم لُقب ميليسيجينيس بهوميروس ومعناها اعمى بلغة الكوميين وتنوسي اسمه . فنقم هوميروس على كومة واهلها ونظم قصيدة رثى بها حاله واستنزل اللعنة على من يتغنى بمدحها ومدحهم من الشعراء وغادرها الى فوقيا على مقربة من ازمير وجعل يطرق منتدياتها فينشد فيها الاشعار

وكان في تلك البلدة معلم كتّاب ذميم الخُلق يسمّى ثستوريدس . فلما رأى ما كان من رواج بضاعة الشعر دعاه الى منزله يقيم فيه ضيفاً كريماً على ان يلقنه كل ما نظم وما سينظم من الشعر فما وسع هوميروس الا القبول فراراً من الفقر . فأكب ثستوريدس على النسخ حتى استتم كل منظومات هوميروس فأقفل ابواب مدرسته وسار الى جزيرة ساقس واقام فيها ينشد شعر نزيله ويدّعيه . فبلغ هوميروس امره فعزم على تعقبه ولم يبال بما تعترضه من المشاق فوصل الجزيرة بعد معاناة الاهوال ونزل في بلدة من ثم بها تدعى بوليسوس فاتخذه بعض وجهائها معلماً لاولاده فأقام عنده وعكف على نظم الشعر ثم اذاع منظومات خلّابة « كحرب الزرازير » و « حرب الضفادع والفيران » و « الكركوفة » فتناشدها الناس وتناقلها الركبان . وكان ثستوريدس قد علم بحلول

هوميروس في مكان فرَّ منه الى مكانٍ آخر

ولما رسخت شهرة هوميروس في ثغور الجزيرة سأل صاحب منزله ان يذهب به الى عاصمتها فشخص اليها وفتح مدرسةً يعلم فيها النظم وطرائقه فعظُم امره وعلت منزلته واكبر الناس قدرهُ فطاب عيشه واتسعت حاله بينهم . فازوجوه بنتًا فولدت له ابنتين . وجادت قريحته فنظم وابدع وكان وفيًّا ذكّارًا للجميل فأودع شعرهُ كل خلَّةٍ محمودة خلَّد بها ذكر المحسنين اليه ولا سيما منطور الذي عُني به اثناء رمدهِ في ايثاكة . قال هيرودوتس « جعل هوميروس منطور في منظومته الاوذيسية رفيقًا لاوذيس وابرزه بمظهر من الصدق والوفاء عظيم حتى ان ملك ايثاكة استخلفهُ على بيته وعيالهِ عند ما شخص في من شخص الى طروادة »

فلهج الناس في كل قطر بذكر هوميروس حتى ملأَت شهرته بلاد يونيا وبلغت هيلاذة فأُوعز اليه ان يقصد اغريقيا فطرب لذلك الايعاز فأقلع الى ساموس وقضى فيها فصل الشتاء يتكسَّب بالانشاد في منازل الاغنياء

مرضهُ ووفاتهُ

ولما انقضى الشتاء عوَّل على السفر الى اثينا فركب سفينةً مع جماعة من اهل ساموس فبلغوا جزيرة يوس وارسوا في مضيق على مقربة من الثغر ففاجأ هوميروس الداء فنزل الى البر وانطرح على الجرف . ولم تقوَ السفينة على مواصلة السير لشدة الانواء فأقاموا اياماً في مكانهم واهل الجزيرة يتهافتون افواجًا لمحادثة هوميروس وقد بلغ بهم الاعجاب منتهاه لما كان ينثر عليهم من غرر الاقوال ودرر الامثال . ولكنه ما لبث ان توفي لاشتداد الداء فاجتمع رفاقه واهل الجزيرة ودفنوهُ قرب الشاطئ

ولما مرَّت السنون وذوت نضارة الشعر وانحطت منزلته اجتمع اهل الجزيرة الى قبرّ هوميروس فنقشوا عليه بيتين من الشعر معناها : ان من هذا النبات

الاخضر غطاء للرأس المقدس رأس الشاعر هوميروس شبيه الآلهة الذي كان يتغنى بمدح الملوك والابطال

فذلكة ما تقدّم

تلك خلاصة ترجمة هوميروس بنص هيرودوتس . وهي وان كانت لجلائها وصراحتها وتقدم عهدها احرى بالثقة مما سواها فانها لم تخلُ من مظانّ اعتراض رماها بها المتقدمون فضلاً عن المتأخرين . ولكن جلّ ما يعترض به مقصورٌ على العرَض لايكاد يتناول الجوهر بشيء . قال هيرودوتس ان تسوريذس عكف على نسخ منظوم هوميروس مع انه لم يثبت قط ان اليونان كتبوا لعهد هوميروس لان الحروف الفينيقية لم تشع عندهم الا بعد حين . على ان هذا القول لايعبث باساس الرواية اذ المراد اثبات انّ تسوريذس كان سارقاً فسيّان اذًا ان يكون ناسخاً او مستظهرًا . وزعم بعضهم ان تلك السيرة كتبت بعد زمن هيرودوتس وعُزيت اليه . فعلى فرض ثبوت هذا الزعم فلا ريب انها كُتبت بيد خبير فنسبتها الى هيرودوتس لاتنقض حقائقها . واما اغفال هيرودوتس امورًا مما أُثر عن هوميروس كرحلته الى مصر وما اشبه فليس مما يفسد الحوادث التي اثبتها اذ قلما تجد مترجمًا او مؤرخًا يلمّ باحوال مترجَمِهِ واعماله بكلياتها وجزئياتها . بل ربما حصل التفاوت في نصوص كَتَبَة الوحي والمحدّثين . فان في كلّ من الاناجيل شيئًا مما أُغفل في غيره وما كان ذلك لينقض شيئًا من الحقائق المسطرة فيه ويقال مثل ذلك في السيَر النبوية والاحاديث

وحاصل القول انه كان للقدماء مزاعم كثيرة في هوميروس مما اسند الى السلف وتنوقل بالتواتر او استُنبط من فقَراتٍ من اناشيده . ولقد أوغل بعضهم في البحث او الاستنباط حتى وضع سلسلة نسبةٍ رواها سويداس وغيره تتصل من افلثّون الى كريثيس والدة هوميروس . قالوا : كانت كريثيس ابنة ميون بن فرسيس وفوكميذا ابنة افلون . وكان فرميس اخا هسيودس الشاعر وكلاهما من ولد

ذيوس بن مينالُفس بن ايفراذِس بن اوِفيمُس بن فيلو تَربُس بن هرمونيذِس بن أرِفيوس بن واغروس من القَينة قليوبة . وكان واغروس ابنًا لفيروس من الحوراء ميذونة . وفيروس ابنًا للينوس الشاعر. ولينوس هذا من ولد افلون وثووسة ابنة فوسيذ — تلك نسبةٌ لا يثبت منها مع ما هو متواتر من اقوال المتقدمين الا ان اسم والدة هوميروس كان كريثيس ولا علم لهم بأبيه . ولعل هوميروس نفسه لم يكن يعرف اباه وهو شأن كثيرين من نوابغ الاعصر الخالية ومن جملتهم ڤرجيليوس نابغة شعراء اللاتين . اما سائر حلقات السلسلة فاذا استُجلي كنهها اتضح منه انه يُرمى به الى إعظام قدر الشاعر وإلصاقه بأعلى نسب يُفتخر به ووصفه بأجلّ وصف يزين عظام الرجال . فما في تلك السلسلة الا الشاعر والحكيم والملك والعظيم فضلاً عن الآلهة كأفلون صاحب القيثار وفوسيذ رب البحار والمطربات القيان والحور الحسان . واذا أضفنا الى ذلك معاني سائر الاسماء كهرمونيذس من رقة النغم وحسن الايقاع وفيلوتربس من حب السرور وايفراذس من الذكاء وفوكيذا من الحكمة علمنا ان واضع تلك السلسلة رمى بها مرمى الاقدمين من التعبير عن الحقيقة بالرمز واللغز وتجسيم الصفات. فكأنه قال تلك هي اوصاف هوميروس الشاعر الحكيم المطرب العظيم الرحّالة الفهّامة والمؤرخ العلّامة الى آخر ما هنالك من صفات الاجلال والتبجيل

واما سائر الروايات المخالفة لترجمة هيرودوتس فاكثره موضوعٌ لاسباب قد يمكن استجلاء بعضها بالتحرّي والمقابلة . ولنتخذ مثالاً على ذلك زعم بعضهم انه وُلد في مصر . فاذا علمنا ان مصر كانت لذلك العهد مورد العلم ومنهل الحكمة ومحط ركاب الطلبة من كل فجٍ سحيق وعرفنا ان رجلاً كهوميروس لا بد من ان يحثه الشوق اليها فيقيم فيها زمنًا طويلاً ويخالط عامتها وسوقتها فيختبر الخُلق والعادة ويتصل بالكهان والاحبار فيدّخر ويستفيد . وثبتت لدينا صحة ذلك من كثرة مآخذه عن المصريين مما نبهنا عليه في مواضعه . ورأينا تهافت القدماء على انتحال نسبة هوميروس اليهم . اذا تبينّا كل هذا ذهبت عنا غرابة هذا الزعم .

ثم اذا تطرقنا الى النظار في قولهم انه ربي في حجر بنت عظيم الكهنة على ما تقدم فلا يصعب علينا ان نرى في تلك الرواية تحريفاً لنص التوراة في نشأة موسى الكليم . وكم من رواية على هذه الشاكلة وُضعت لنبيٍّ او عظيم فنقلت فنُسبت الى غيره في كل بلاد الله وتغيرت الاسماء وتحولت الاجريات الى ما يلائم المكان والزمان والاصل واحد

فلاغرابة بعد هذا في تشعب الاقوال عن شاعرٍ يلهج الناس بذكره منذ نحو ثلاثين قرناً وأن تتباين المزاعم في اسمه ولقبه ونشأته واسرته وسيرته في صباه وشيخوخته . فاذا وُلد اختلفوا في ابيه . واذا دبَّ اختلفوا في ربيبه . واذا شب تنازعته الامصار . واذا شرع في السياحة قالوا رحل فقيرًا على نفقة غيره او غنيًّا على نفقة نفسه . واذا أنشد الشعر ذهب فريقٌ الى انه أنشدهُ مترنمًا تعتسباً كامرىء القيس وعبد يغوث في الجاهلية وابن المعتز وابي فراس في الاسلام وقال الاكثرون بل تغنّى به مستجديًا مكتسباً كزهير ولبيد والحطيئة ومتنبي المشرق ابي الطيب ومتنبي المغرب ابن هاني . وهكذا ظلُّوا يتقولون في مناحي حياته الى ان تناولوه ميتاً فأماته بعضهم كمدًا ميتة نحوينا سيبويه . قالوا كان شاخصاً الى ثيبة فعرج على يوس واذا بفتيةٍ يصطادون سمكاً فسألهم عن مقدار صيدهم فقالوا : « افلتنا بعدد ما امسكنا واصطدنا بعدد ما لم نصطد » فأُغلق عليه فهم المراد وعظم عليه الامر فمات قهرًا

والخلاصة ان الترجمة المعزوّة الى هيرودوتس هي لدى التحقيق اصدق ما كُتب عن سيرة حياته . وليس في ما كتبه ارسطوطاليس واسطرابون ما يندُّ عنها كثيرًا . واما المدن اليونانية التي ادعته فلكثيرٍ منهنَّ نصيبٌ من صحة الدعوى . قال غينيو في مقدمة معجم هوميروس لتيل وهاليزداروس [1]: احق البلاد بهوميروس ازمير باعتبار مولده وصباه وكومة باعتبار شروعه في قرض الشعر وساقس باعتبار نبوغه في النظم ويوس بالنظر الى بقاء رفاته فيها

(1) Guignaut. Dict. d'Homère et des Homérides par N. Theil et Hipp. Hallez-d'Arros. Paris 1814.

تاريخ ظهوره

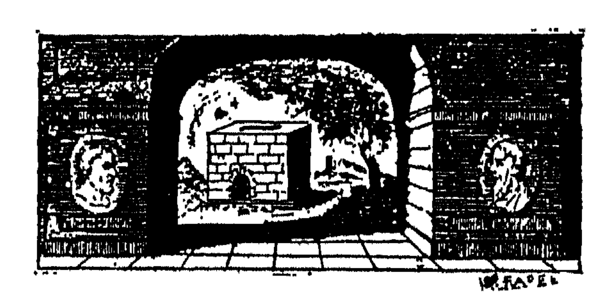
للمؤرخين اقوالٌ مختلفة في تعيين الزمن الذي ظهر فيه شيخ الشعراء وهي تتراوح بين بدء القرن الثاني عشر والقرن السابع قبل الميلاد . ورواية هيرودوتس القائل ان هوميروس تقدمهُ باربعمائة سنة ما زالت اجدرهنَّ جميعاً بالثقة لانطباقها على منقول الثقات من قدماء المؤرخين والاثر المتصل اليهم بالتواتر . فعلى هذا يكون نبوغ هوميروس في منتهى القرن العاشر او بدء التاسع قبل الميلاد او نحو سنة ٩٠٠ لان مولد هيرودوتس كان في اوليات القرن الخامس ق . م . يؤيد ذلك ١ً . ان مؤرخي الرومان مجمعون على ان هوميروس نبغ قبل بناء رومية بقرن ونصف فاذا اضفنا ذلك الى ٧٥٣ وهي السنة التي بنيت فيها رومية كان نبوغ هوميروس نحو سنة ٩٠٣ ق . م . — ٢ً . ان من مرويات شيشرون الروماني ان هوميروس كان معاصراً ليكرغس الشارع اللقدموني وقد أيَّد اسطرابون تلك الرواية وقال ان ليكرغس قصد ساقس طمعاً بمحادثة هوميروس والاخذ عنه وعهد ليكرغس بين القرنين التاسع والعاشر . ولا يجرح تلك الرواية قول فلوطرخوس الذاهب الى ان ليكرغس انما اخذ شعر هوميروس عن حفيد الشاعر فقد يمكن ان يكون ذلك في حياة الشاعر او بعدها بقليل — ٣ً . يؤخذ من الانساب المنقولة على قطع المرمر التي وجدت في اوائل القرن السابع عشر في جزيرة فاروس في الارخبيل الرومي والمحفوظة في مكتبة اكسفرد ان هوميروس كان حيًّا سنة ٩٠٧ ق . م . ولا غرو ان تكون تلك النقوش موضع ثقة لانها كتبت باعتناء حكومة اثينا ودوّنت فيها اشهر حوادث اليونان من سنة ١٥٨٢ الى ٢٦٣ ق . م .

فاذا ثبت لدينا ان نبوغ هوميروس كان في أُخريات القرن العاشر رجح في الظن ان بينه وبين دمار اليون التي سمي الالياذة باسمها نحواً من اربعمئة سنة وانه كان معاصراً لاحاب ملك اسرائيل وسوا ثاني ملوك الدولة الخامسة والعشرين

في مصر . وكلٌّ من مصر وفلسطين في ذلك الحين كان في معامع الاضطراب والانقلاب كما كانت بلاد اليونان في إبّان سكونها بعد ان ماجت بالجالية المتدفقة اليها تدفق السيل وهو ولا ريب زمن احتكاك الافكار وانفجار القرائح بنفيس الاشعار

منزلته عند القدماء

قال اسطرابون (في الكتاب الاول والفصل الثاني من جغرافيته) اذا قيل الشاعر عُني به هوميروس . وقد لقبه في اول صفحة من الكتاب المذكور بالفيلسوف ووضعه في مقدمة الجغرافيين . وقال في موضع آخر ان رائد هوميروس انما كان الحقيقة واما الخيال فانما اتخذه حليةً وشّى بها شعرهُ فبهر بها النواظر فعلقت بها الخواطر وهذا هو السرُّ في شغف ناشئة اليونان كافةً بمطالعة شعره (١) وقال في وصف ازمير ان من خططها ما يدعى بالهوميريوم وفيه هيكل ونُصب لهوميروس . والازميريين اعجابٌ به لا يفوقه اعجاب ولهذا صكّوا نقوداً صُفريّة يتداولونها وعليها اسمه ورسمه (٢)



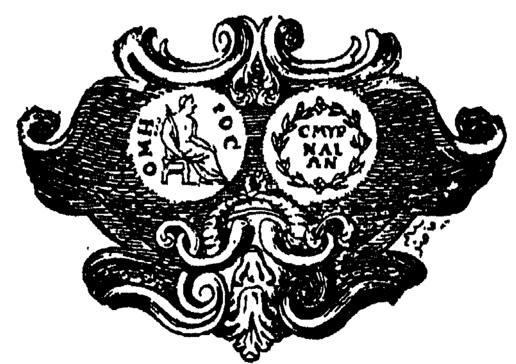
الهوميرويوم او هيكل هوميروس

(١) اسطرابون كتاب ١ فصل ٢

(٢) اسطرابون كتاب ١٤ فصل ١

وان في مؤلفات هيرودوتس وفلوطرخوس وبلينيوس وشيشرون وسائر مؤرخي اليونان والرومان ممن نبغ قبل اسطرابون وبعده ما يؤيد كلام اسطرابون اويربو عليه · وقد روى سيمونيذِس وتيوكريذِس ان اهاليَ ساقس شادوا له معبداً وعبدوه وتداولوا نقوده كما فعل اهل ازمير· وزعموا ان الطائفة المعروفة بالهوميرية انما كانت من نسله قالوا ذلك تأييداً لدعواهم فيه كما قال غيرهم بل هي طائفة من الشعراء تحدّت هوميروس في النظم والانشاد







نقود هوميروس

وكان ارسطوطاليس في مقدمة المعجبين بهوميروس وقد الصق نسبه بالآلهة فقال : سطت طائفة من قرصان ازمير اثناء الجلاء اليوني على فتاة من جزيرة يوس وهي حبلى من احد الآلهة فسبوها واحتملوها الى بلدتهم فولدت الشاعر

وكان الاسكندر المكدوني كلفاً بمطالعة منظومات هوميروس واستكتب منها نسخة نقحها له استاذه ارسطوطاليس كان يحملها معه حيثما توجه ثم اتخذ لها غلافاً خوذةً مرصعة من اسلاب دارا ملك الفرس فكانت جليسهُ في حِلّهِ وانيسهُ في ترحالهِ يتحدى نهج مواقعها ويترنم ببدائعها و يتمثل بها في كل ما عنَّ لهُ من الاقوال والافعال ولطالما كانت تعروهُ هزة الطرب اذا أنشد بعض ابياتها ولا سيما بيته القائل بوصف اغاممنون :

مليكٌ بأحوال السياسة عارفٌ عزومٌ بصمّاء المعامع جبّارُ

ومن مأثور اقواله وهو واقف الى قبر أخيل بطل الالياذة : « طوباك فقد أُوتيت منتهى السعادة بقيام شاعر كهوميروس يخلّد ذكرك »

وانك لاتكاد تتصفح كتاباً من كتب الادب والتاريخ مما كان يوثق به عند قدماء الغرب الا رأيتهُ مشحوناً بالشواهد المنقولة عن شاعرنا مشفوعةً بالإطراء والإكبار . وكانوا يقتبسون من اقواله على نحو ما يقتبس اليهود من التوراة والنصارى من الانجيل والمسلمون من القرآن والحديث . كل ذلك مما مهّد سبيل إحلاله عندهم ذلك المحل الرفيع حتى تنازعته البلاد وشغلت به العباد وعني الملوك والعلماء بجمع شتات قريضه وعكف الرفيع والوضيع على ادخاره كنزاً لا ينفد

وكان فقهاء اليونان ومشترعوها يتجشمون الاسفار لجمع ما تفرق من تلك الغرر في اطراف البلاد فينظمون عقدها و يلقونها على العامة تهذيباً لاخلاقهم وتثقيفاً لعقولهم والملوك يبذلون لهم المال عوناً لهم على بلوغ تلك الغاية . قالوا واول من فعل ذلك ليكرغس لعهد هوميروس . او بعده بقليل وحذا صولون حذوهُ ففعل في اثينا فعل ليكرغس في اسبارطة حتى لقد كان يضطر الشعراء ان ينشدوا قطعاً

متوالية من هوميروس حفظاً لها في ذهن الامة واستبقاء لانتساقها على السياق الذي نظمها به الشاعر . وان افيسيستراتوس ملك اثينا يداً مشكورة في تبويب تلك المنظومات على النمط الذي اتصلت به الينا فاتخذ جماعة من كبار العلماء ووسّع عليهم في الرزق ليتفرغوا لتلك المهمة . ومن جملة مرويّات الاعصر الغابرة انهُ تألفت طائفة من ادباء اليونان صرفت همها الى النظر في الشعر الهوميري فنقحته ونبذت منه الدخيل والقته الى الخلف على ما نراهُ عليه اليوم . وكانت تلك الطائفة مؤلفة من سبعين عالماً مثلما تألف المجمع السبعيني الذي نقل التوراة من العبرية الى اليونانية لعهد بطليموس فيلادلفيوس . واما العامة فانها تلقت تلك الفرائد تلقيها للآي المنزلة فكانت فكاهتها في مجالسها ومرجعها في مباحثها ومرماها في تثقيف احداثها وقبلتها في غدوّها وآصالها . وما انتشر فن الكتابة حتى انتشرت في النوادي والمنازل فوق انتشارها في اذهان الخلق فكان الساقط السافل عندهم من خلا رأسه او منزله من شيء من منظومات هوميروس . وهم يتنافسون بحفظها ويتناشدونها كما تتناشد خاصة الفرس والجم الغفير من عامتهم اقوال الفردوسي صاحب الشهنامة وسعدي صاحب الكلستان لعهدنا هذا او كما يتناشد ادباؤنا الحكم والامثال المقتطعة من اقوال نوابغ الشعراء . ومما يروى في هذا الصدد ان الكيبياذس القائد اليوناني لم يتمالك وهو فتى ان انهال على استاذه بالشتم ثم بلغت به الحدّة ان ضربه لانهُ لم تكن عنده نسخة من شعر هوميروس وهو ذنب في ذلك العصر عظيم . ومن هذا القبيل ايضاً ما يقال عن زويلوس الكاتب اذ تصدى لانتقاد هوميروس في القرن الرابع ق . م . فقامت الامة وقعدت وقبضت على المنتقد وصلبتهُ ثم رجمتهُ رجماً . ومهما يكن من صحة هاتين الروايتين ففيهما من المعنى ما لا يخفى على اللبيب

ولا يظنن المطالع ان هوميروس انما نال تلك الحظوة عند قومه وبني ملته . بل كانت هذه منزلته عند الرومان ومن وليهم من امم المغرب . فاللاتين كانوا يترنمون بأقواله ترنمهم بشعر نابغتهم فرجيليوس وما فرجيليوس الا نابغة من

مريدي هوميروس شغف بتلاوة شعره وكان شاعرًا بليغًا فنظم الانياذة على نسق الالياذة واجاد في تحدّي استاذه · واما امم اوروبا فانها اقبلت على ذلك الشعر منذ نشأتها ولم يتخلل اقبالها فتورٌ الا عقودَ اعوامٍ معدوداتٍ في بدء النصرانية كما سنبين في باب نقل الالياذة الى العربية · وفي ما سوى ذلك كانت منظومات هوميروس ولا تزال عندهم في المنزلة الاولى بين منظومات البشر اجمعين · وكان بعض العامة من الافرنج في القرون الوسطى يتخذون منها الاحراز والتعاويذ · ويلجأُون الى استخراج المغيبات مما يستنبطون من معاني الابيات التي تبدو لهم اذا فتحوا كتابه ايًّا كانت · وابلغ من كل ذلك ان لفيفًا من الاطباء المشهود بعلمهم كانوا يعالجون بعض المرضى بالشعر الهوميري فاذا استوصفوا علاجًا للحمى الرباعية أمروا بوضع نسخة من النشيد الرابع من الالياذة تحت رأس العليل

تلك كانت منزلة هوميروس عند اليونان والرومان ومن وليهم من امم اوروبا

رأي المتأخرين فيه

لم يزل الشعر الهوميري في المنزلة الاولى بين منظومات الشعراء · وليس بين كتب الادب والتاريخ والشعر كتاب تداولته الايدي وتناقلته الالسن واستشهد به الادباء والكتبة والمؤرخون ونُقل مرارًا متوالية الى معظم لغات الحضارة نثرًا وشعرًا كديوان هوميروس حتى لقد جُعل تدريسه فرضًا في كثير من مدارس القوم تُلقَّنه الفتية اصلاً وترجمةً · ومما يُذكر في هذا الصدد اعتراض بعضهم على انفاق الساعات الطوال في القائه على طلبة جامعة برلين · فلما بلغ ذلك الاعتراض ولهلم الاول قيصر المانيا قال : « دعوا الاساتذة يكثروا من تلقين شعر هوميروس فان الامة التي يرسخ في ذهنها وصف صبا الامم على ما يبسطه هوميروس لايسارع اليها العجز والهرم » · ومن اقوال رينان الفيلسوف الفرنسي الحديث : «اذا مر على عهدنا الف عام انقرضت جميع التآليف التي بين ايدينا ولم يبق منها الا كتاب واحد وهو ديوان هوميروس » · واذا كان المتقدمون قد اطلقوا عليه

لقب «الشاعر» فقد لقبهُ المتأخرون «بأمير الشعراء» وما انتقاد بعض الكتّاب فقراتٍ متفرقة من شعره الا مدعاةً لزيادة انتشاره واتساع شهرته

فما سام شمس العُلى حطةً غمامٌ يستر اذيالها

واما بنو الشرق فهم وان جهل معظمهم اسم هوميروس فضلاً عن وجود منظوماتٍ له الا ان ذوي الاطلاع من متأخريهم قدّروه حق قدره كما ان بعض علمائهم في الزمان الغابر اعظموا شأنه واجلّوهُ. وانّ صفوة ادبائنا في هذا العصر شاعرون بالحاجة الماسّة الى نقله الى العربية . ويُذكرني هذا حديثاً مع منيف باشا ناظر المعارف العثمانية قال في اثنائه «لو ان الشاعر العربي القائل:

كأني أميروسٌ لدين محمدٍ . . . عمل حقيقةً للشرق ما عمل هوميروس للغرب لما تعدّانا الغرب هذا الشوط البعيد» . وقد غاب عنه وعني عرفان ذلك الشاعر . ومما قاله لي السيد جمال الدين الافغاني في محضرٍ من الادباء : «انه ليسرنا جداً ان تفعل اليوم ما كان يجب على العرب ان يفعلوا قبل الف عام ونيّف . ويا حبذا لو ان الادباء الذين جمعهم المأمون بادروا باديءَ بدء الى نقل الالياذة ولو الجأهم ذلك الى اهمال نقل الفلسفة اليونانية برمتها» وسأذكر في باب «الالياذة» سبب اغفال نقلها الى العربية

ذلك قول عامة المتقدمين والمتأخرين وخاصتهم في هوميروس وشعره . اما الشعر فلا سبيل الى انكاره لانه موجودٌ يُتلى . واما هوميروس نفسه فقد قامت طائفة من الباحثين في اواخر القرن الثامن عشر بزعامة وُلف الالماني وتألبت على انكار وجودهِ بتاتاً . وما لبث مذهبهم ان انتشر انتشار الشرار ثم ما لبث ان خبا خَبوَهُ على ما سنبسطهُ في الكلام على الالياذة

قول العرب فيه

ليس في ما بين ايدينا من التآليف العربية ما يشير الى ان ديوان هوميروس نُقل الى لغة العرب . فهو بلا ريب لم يُعرَّب وان كان معروفاً عند خاصة

العلماء في بغداد لعهد العباسيين اذ كان يتناشده الادباء من نَقَلة الكتب المقربين من الخلفاء بأصله اليوناني ونقله السرياني . والظاهر ان الالياذة كانت منتشرة بين الخاصة في بلاد الفرس والكلدان في زمن الدولة العباسية لان ثاوفيلس الرهاوي الذي نظمها بالسريانية كان منجم المهدي ثالث خلفائهم كما اثبتنا في حواشي الالياذة (ن ٣ : ص ٢٦٢) . قال ابن ابي أصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » نقلاً عن يوسف بن ابرهيم في ترجمة حنين بن اسحق اثناء تنكُّر حنين وهو عاكفٌ على درس الطب [1] « فتبنَّت خرشي (جارية الرشيد الرومية) ذاك الغلام (وهو اسحق المعروف بابن الخصي) وادَّبته بآداب الروم وقراءة كتبهم فتعلم اللسان اليوناني علماً كانت له فيه رئاسة فكنا نجتمع في مجالس اهل الادب كثيرًا فوجب لذلك حقه وذمامه . واعتل اسحق بن الخصي علةً فاتيته عائدًا . فاني لفي منزله اذ بصرت بانسان له شعرة قد جللته وقد ستر وجهه عني ببعضها وهو يتردد وينشد شعرًا بالرومية لأوميرس رئيس شعراء الروم فشبهت نغمته بنغمة حنين وكان العهد بحنين قبل ذلك الوقت بأكثر من سنتين فقلت لاسحق بن الخصي هذا حنين فأنكر ذلك انكارًا يشبه الاقرار فهتفت بحنين فاستجاب لي »

فيؤخذ مما تقدم ان اليونانية كانت معروفة لذلك العهد في بغداد تُقرأ وتُدرَّس حتى في بيوت الخلفاء وان منظومات هوميروس كانت معروفة فيها بين المشتغلين بلغات الاجانب ومعظمهم اذ ذاك من النصارى

واما سائر ماذُكر عن هوميروس في كتب العرب فليس الا شذرات مقتطعة من كتب اليونان المعربة برعاية العباسيين والمؤلفات التي وضعها كبار المعربين والمؤلفين من الكلدان كابن ماسويه وابن الخصي وحنين بن اسحق مثال ذلك قول ابن ابي اصيبعة في عيون الانباء : « وكان الشعراء في ذلك

---

(١) عيون الانباء جزء ١ ص : ١٨٥

الزمان على ما ذكره حنين بن اسحق اوميرس الخ » [1] وقوله في ترجمة ارسطوطاليس « ومن كتبه كتاب في مسائل من عويص شعر اوميرس في عشرة اجزاء [2] وقوله في ترجمة جالينوس عند ذكر الكتب التي اعترض حنين بن اسحق على نسبتها اليه « ومنها كتاب الطب على رأي اوميرس » [3] ومن هذا القبيل قول البيروني « اميروس المتقدم عند اليونانيين كامرىء القيس عند العرب [4] ومثله قول ابن خلدون في مقدمته [5] « ان الشعر لا يختص باللسان العربي بل هو موجود في كل لغة سواء كانت عربية او عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب المنطق اوميروس الشاعر واثنى عليه » ومثله قول ابن ابي أُصيبعة [6] « قال افلاطون وقد كان مار ينون (اغاممنون) ملك اليونانيين الذي يذكره اوميروس الشاعر باسمه وجبروته وما تهيأ لليونانيين في سلطانه رُمي بشدائد في زمانه وخوارج في سلطانه » . ويدرج في هذا الباب قول الشهرستاني [7] « أُوميرس الشاعر من القدماء الكبار الذي يجريه افلاطون وارسطوطاليس في اعلى المراتب ويستدلُّ بشعره لما كان يجمع فيه من اتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ » واما الشواهد التي اوردها الشهرستاني من كلام هوميروس في كتاب الملل والنحل والبهاء العاملي في الكشكول فلا شك ان فيها اختباطاً وانتضاباً على نحو ما جرى

(١) عيون الانباء جزء ١ ص ٣٦
(٢) « « « ١ « ٦٩
(٣) « « « ١ « ١٠١
(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية لابي الريحان محمد البيروني الخوارزمي . طبع باريز ص : ٨٦
(٥) ابن خلدون . باب اشعار العرب واهل الامصار
(٦) عيون الانباء جزء ١ : ١٨٥
(٧) كتاب الملل والنحل جزء ٢ : ١٥

لكتّاب العرب في اكثر ما استشهدوا به من كلام الاعاجم

وقد اكثر ابو الفرج الملطي المعروف بابن العبري من ذكر هوميروس في تاريخه حتى دون حكايته مع ماجنٍ سأله ان يهجيه طمعاً في الشهرة من وراء ذلك الهجو فأبى هوميروس فتهدده بالشكوى الى رؤساء اليونانيين فضرب له هوميروس مثل الكلب الذي نكل الاسد عن مبارزته فقال الكلب « سأمضي الى السباع فأشعرهم بضعفك » فأجاب الاسد « لئن تعيرني السباع بالضعف احب اليّ من ان الوّث شاربي بدمك »[1]

وخلاصة القول ان هوميروس كان له شأنٌ مذكور عند نقلة الكتب من بطانة الخلفاء ولكن المام ادباء العرب بأقواله كان الماماً ناقصاً بقي محصوراً في افرادٍ معدودين من كبار الكلدان . واما منظوماته فالثابت انها لم تعرَّب

منظوماته

نقصر الكلام في هذا الباب على الالماع الى ما نُسب لصاحب الالياذة من الشعر مما ثبت له ومما لم يثبت . واما البحث في شعره من حيث هو واساليبه وطرائق نظمه وتشابيهه واستعاراته وفائدة ذلك للعلم والتاريخ والآداب فنستبقيه الى الكلام على الالياذة بعيد هذا

ان لهوميروس منظوماتٍ كثيرة لاغرو ان يكون المفقود منها شيئاً كثيراً . فان العلماء ما زالوا حتى الآن يعثرون حيناً بعد حين على قطع مبعثرة في عاديّات القدماء من تلك القطع المختزنة في دفائن الارض . وان العهد لقريب بالعثور على مقاطيع مكتوبة على ورق البردي في عاديات مصر مما لم يدرج في ديوانه . على ان درة تلك القلادة انما هي الالياذة بلا خلاف . بل هي كانت ولا تزال درّة عقد ما نظم الشعراء في كل عصر وبلاد مما تقدم زمن هوميروس وما تأخر عنه

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري طبع بيروت ص : ٦١

الاوذيسية

ويتلوها الاوذيسية وهي ملحمة تقصر عن الالياذة بضعة آلاف من الابيات يغلب على الظن ان الشاعر نظمها في شيخوخته وموضوعها رحلة اوذيس اثناء عوده الى بلاده بعد انتهاء حرب طروادة والقصة بأجمعها لاتتناول الا اربعين يوماً ولكن فيها من الحقائق وتنوع المباحث ما يكاد يعادل الالياذة. وهي كشقيقتها في اربعة وعشرين نشيداً ولكنها باعتبار وقائعها تقسم الى اربعة اقسام يشتمل القسم الاول منها على ما حصل لاوذيس في منتهى المدة الطويلة التي نزل بها على الالاهة كاليبسو في جزيرة اوجيجيا وعشاق امرأته ساعون اذ ذاك في تبديد ثروته وتقويض دعائم ملكه وابنه تلياخوس وهو فتى يافع مهتمٌّ في احباط مساعيهم حتى اذا اعيته الحيلة شخص بايعاز آثينا الاهة الحكمة الى فيلوس واسبارطة مستطلعاً اخبار ابيه. وفي القسم الثاني وصف مغادرة اوذيس لجزيرة اوجيجيا وبلوغه بلاد الفاقيين حيث نزل وقص عليهم خبره ثم غادرهم الى ايثاكة مقر حكمه. وفي القسم الثالث تفصيل الخطة التي اختطها هو وابنه تلياخوس في منزل خادمه الامين الراعي افميوس للضرب على ايدي اولئك البغاة. وفي القسم الرابع وصف انتقامه منهم واستقراره في ملكه

معارضة الاوذيسية بالالياذة

ان بين الاوذيسية والالياذة شبهاً كثيراً في النهج والسياق مما يدل على ان الناظم واحد فكلتاهما قائمة على اساس بسيط مرجعه الى موضوع واحد. ففي الالياذة «كيد اخيل» وفي الاوذيسية «رحلة اوذيس» وعلى هذين الامرين مدار جميع حوادث الروايتين بما تخللهما من القصص والتاريخ وما وراء الطبيعة ودونها. وكل واحدة من الروايتين منحصرة الوقائع في ايام قليلة في منصرم اعوام طوال. فالالياذة لاتتناول سوى ستة وخمسين يوماً من حصار عشر سنين والاوذيسية لاتتجاوز في مدتها الاربعين يوماً من رحلة اوذيس. وكما ان مطالع

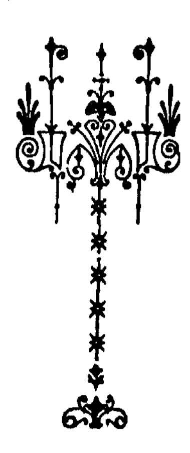
الالياذة يلمّ استطراداً بتاريخ ذلك الحصار وما تقدمه وما وليه وبتمثل حالة البلاد بالنظر الى التاريخ والجغرافية والدين والآداب والاخلاق والعادات فكذلك يحيط مطالع الاوذيسة علماً بما لقي اوذيس في تلك الرحلة منذ نزل بكاليبسو فشغفت به واسكنته في جزيرتها سبعة اعوام ويقف على حالة البلاد التي القته الاقدار اليها وينزل الى اعماق الجحيم ويصعد الى اعالي السماوات ويطوف حول الارضين تطواف الشاهد البصير. وكلتاهما متماسكة الاجزاء متراصة المعاني لا تقرأ نشيداً منهما الا انست به نفس سائر الاناشيد. ومع هذا فقد يُعترض على وحدة الناظم بما بين الملحمتين من التباين في قوة التركيب وحدة التصور وجزالة اللفظ فان الالياذة في كل ذلك فوق شقيقتها. وانما هو اعتراض مردود بثبوت ان الالياذة متقدمة على الاوذيسة نظمها الشاعر في ابّان عمره وبخيلته على نضارتها ومادّته بمعظم غزارتها ولكن في الاوذيسة من اصابة المرمى وسداد الرأي ورسوخ الحكم وسعة العلم ما لا يقصر عما في الالياذة

سائر منظومه

واما سائر المنظومات المعزوّة الى هوميروس فسواء ثبتت له او لم تثبت فلا تزيده رفعة وشأناً بل خيرٌ له ان لاتكون له. والراجح عند اهل التحقيق انها من غير نظمه وان نسب اليه هيرودونس بعضها «كحرب الضفادع والفيران» و«حرب الزرازير» وجماعة «الكركوفة» وهي قصائد لاتتجاوز المئات من الابيات وليس فيها شيء مما يدل على انها من نتاج تلك القريحة السيالة والذهن المتوقد. ونسبتها الى الالياذة والاوذيسة كنسبة بعض قصائد المتنبي المنظومة في صباه والمثبتة في اول ديوانه الى سائر قصائده الرائعة. وقد ذهب ارسطوطاليس الى ان هوميروس نبغ في الشعر الهزلي نبوغه في الشعر القصصي. واستدلوا على ذلك بالمنظومة «مَرْجيتِس» وهي قصيدة يصف فيها الناظم رحلة مرجيتس الغني المتغطرس ولم يبق منها الا اجزاء متقطعة

ومما ينسب اليه ايضاً ثلاثة وثلاثون مزموراً ترنم فيها بمدح الآلهة وقص فيها بعض اخبارهم وترسّل بالابتهال الى افلون وعطارد (هرمس) والزهرة وذيميتير والمريخ (آريس) واثينا وهيرا وهرقل قلب الاسد واسقليبيوس الاه الطب وهيفست الاه النار وفوسيذ وزفس والشمس والقمر والارض وهلمَّ جرّا

وقد نسبوا اليه ايضاً بعض مقاطيع واهاجي في ابيات قليلة والاظهر ان تلك المقاطيع والزبور واشباهها مما أُلصق بديوان هوميروس لجهل رواتها اسماء اصحابها



الالياذة

تمهيد

الإلياذة او الإلياس نسبةٌ يونانية الى إليون عاصمة بلاد الطرواد وهي الملحمة التي نحن بصددها وضعها هوميروس على اسلوبٍ بسيطٍ وبناها على موضوعٍ واحدٍ هو « غيظ اخيل او احتدامه » ونهج بها نهجاً متناسقاً قص في اثنائه حوادث متسلسلة لاتتشعب وقائعها بتعدد الاشخاص مهما كثروا وكثرت . فهي بهذا المعنى سلسلة واحدة من اولها الى آخرها وهو مذهب معظم الرواة والقدَّماءين من القدماء ولا سيما الشرقيين لميلهم الى البسيط من القَصص بخلاف رواة الاوروبيين في الاعصر الحديثة فانهم يفرّعون الحوادث ويكثرون من تدخل الاشخاص بوقائع متشعبة مما يأُول في نظرهم الى زيادة تفكهة القارىء ولعل المتأخرين مصيبون برأيهم هذا في الزمن الحاضر وخصوصاً لانهم بعد انتشار فن الطباعة اصبحوا في غنىً عن استظهار اقاصيصهم على نحو ما كان القدماء يحفظون رواياتهم حرفاً حرفاً عن ظهور قلوبهم . ومعلومٌ ان البسيط المتناسق اسهل حفظاً من المركب المتشعب

ولا بد لنا قبل بسط موضوع الالياذة من الالماع الى حرب طروادة تلك الحرب التي خلد هوميروس ذكرها باقتطاع شذرة منها موضوعاً لاناشيده

كانت مملكة طروادة اثناء تلك الحرب ممتدة من جنوبي اسيا الصغرى الى الهلِسْبُنْطُس وهو مضيق الدردنيل وملكها فريام وقاعدتها اليون وتدعى ايضاً طرويا (او طروادة) وقد عفت اثارها منذ قرون ولكنه قد يؤخذ مما تُوصِّل اليه بالبحث انها كانت واقعة في سفح الجبل القائمة عليه الآن قرية بونار باشي

اما بلاد الاغريق فكانت ممالك صغيرة تتحالف احيانًا وتتشاقّ اخرى وبينها وبين بلاد الطرواد صلة تجارة ونَسب . وحدث ان منيلاوس ملك اسبارطة غاب عن عاصمته في مهمّة وان فاريس بن فريام أُوفد برسالة الى اسبارطة فنزل ضيفًا على منيلاوس وهو غائب وما زال بهيلانة امرأة فاريس حتى استهواها فأحبته ووافقته على الفرار معه الى بلاده . فقامت الاغريق وقعدت لذلك النبأ . ولما أعيتهم الحيلة في استخلاص هيلانة تأهبوا للحرب واستصرخوا جميع قبائلهم ففزع اليهم القاصي والداني وعقدوا لاغاممنون اخي منيلاوس وملك ميكينيا . فكانت الرئاسة اليه منذ نشوب الحرب الى ان خبت جذوتها بدمار اليون . فساروا جيشًا كثيفًا يعيثون في بلاد الطرواد يخربون المدائن ويقتلون الرجال ويسبون النساء وينهبون الاموال الى ان بلغوا اليون العاصمة فحصروها واقاموا على حصارها عشر سنين . فساءت حال الفريقين ونفدت الارزاق وبادت المقاتلة وكاد الاغريق ينثنون الى اهلهم ويقنعون بسلامة من بقي منهم لو لم يوافهم داهيتهم اوذيس بخدعةٍ مكّنتهم من فتح اليون

موضوعها

تناول هوميروس اياماً قلائل من السنة العاشرة لحصار اليون وبنى عليها منظومته وشرع فيها بقوله :

ربّةَ الشعر عن اخيل بن فيلا أَنشدينا وأَروي احتدامًا وبيلا

اشارةٌ منه الى انه سيدور حول ذلك الاحتدام منذ اتقد الى ان خمد . وهو موضوعٌ يكاد يحسبه شعراؤنا تفهًا لبساطته ويعجبون لقريحةٍ علقت به فأنتجت نحوًا من ستة عشر الف شطرٍ او شعر مع ان معلقة امرىء القيس ومطلعها ينبىء بمجموع اوسع وموضوع اجمع تقصر بجملتها عن مئة بيت . وانك مع هذا اذا طالعت الالياذة كلها لاتكاد ترى فيها حشوًا ولغوًا بل لاتمالك ان تستزيد منها في مواضعٍ كثيرة

ومُجمل القصة انه كان في جملة السبايا فتاةٌ جميلةٌ وقعت في سهم اخيل عنترة الاغريق فانتزعها منه اغاممنون زعيم الزعماء واستخلصها لنفسه فعظم الامر على اخيل وكاد يبطش باغاممنون لولا ان اثينا الاهة الحكمة هبطت من السماء وصدّته قسرًا . فانكفأ عنه واعتزل القتال هو وعشائرهُ . فحمي وطيس الحرب بين الاغريق والطرواد واخيل في عزلته يتحرق غيظًا . فاشتدت عزيمة الطرواد لاحتجاب اخيل فنكّلوا بالاغريق في مواقع كانت الغلبة في معظمها لهم . فلما ثقلت الوطأة على الاغريق . اوفدوا الوفود استرضاء لاخيل فما زاد الا عتوًّا وكِبرًا . فوقعت هيبة هكطور زعيم الطرواد وابن ملكهم فريام في قلوب الاغريق وما زالت تتوالى له الغلبة بعد الغلبة حتى كاد يحرق سفائنهم ويردهم خائبين . وكان لاخيل صديقٌ حميم هو فطرقل .فتىً جمع بين كرم الخلال وبسالة الابطال صحب اخيل في معتزله وهو مع هذا يتلظى اسىً لنكبة قومه ويستفز اخيل للاخذ بدمهم واخيل كالحجر الاصم لا يرقّ ولا يلين . ولما اشتدت الازمة على الاغريق . وكاد يقضى عليهم جعل فطرقل ينتحب كالطفل فأذن له اخيل ان يتقلد سلاحه ويحمل على الطرواد بجند المرامدة قوم اخيل . فحمل عليهم حملةً مزقت شملهم وردّتهم على اعقابهم واذا به خرَّ قتيلاً امام هكطور فدارت الدائرة بموته على قومه فولّوا مدبرين وهكطور يضرب في اردافهم . ولما علم اخيل بموت فطرقل قتيلاً تسعّر حزنًا على حليف وده والتهب حقدًا على الطرواد وتحول غضبه من عن الاغريق اليهم ونهض الاخذ بالثار فصالح اغاممنون واغار على الطرواد فبطش بهم بطش الاسود بالحملان فلاذوا بالفرار وتحصنوا في معاقلهم ما خلا هكطور فانه برز له فقتله اخيل ومثّل به . ولكنه ما لبث ان سكن جأشه وخبا غيظه فانقلب ذلك الغيظ رفقًا وعطفًا اذ رقّ لشيبة فريام فأتى اليه بجثة ابنه وسيّرهُ آمنًا فانتهت القصة بسكونٍ وسلام

نظمها وتناقلها

اذا لزم من تماسك اجزاء الالياذة ان تكون منظومة واحدة فلا يلزم ان تكون نظمت وأُنشدت جزءًا واحدًا . ولا يؤثر على مجموعها ان تكون أُنشدت في قطرٍ واحد او اقطارٍ مختلفة فهذا نقلها العربي وما هو بالشيء المذكور ازاء الاصل اليوناني وقد نُظم في اربعٍ من قارَّات الارض . ولا فرق ان يكون الشاعر نظمها تطربًا بمعانيها او تطلُّبًا بأغانيها . تلك جميعها مباحث لا فعل لها في جوهر الالياذة فليس لنا هنا ان نطيل النظر فيها . وانما يجب النظر في طريقة اتصالها على سعتها من السلف الى الخلف

ذهب برتلمي سنت ايلير (1) الى ان اليونان كانوا يكتبون لعهد هوميروس وهو قولٌ لم يؤيده أثرٌ حتى الساعة . ومع هذا فعلى فرض صحة هذا المذهب فان الكتابة عندهم كانت في زمن طفولية لاتكاد تتسع الا لتدوين ما عظم من حوادث التاريخ والا لخلفت ولو أثرًا ضعيفًا كما خلَّفت في مصر وبابل . فلا ريب اذًا انها انما حُفظت اولاً في اذهان الرواة فتناقلوها جيلاً عن جيل

وقد يُستغرب تناقل الالياذة في اول امرها استظهارًا على ما فيها من كثرة الابيات واتساع المباحث وتنوع الاحاديث . على انه يتضح لدى التروِّي ان ذلك الاتساع كان من مسهِّلات حفظها وعلوقها في ذاكرة المنشدين . وهو ثابتٌ ان الانشاد مهنةٌ كانت ولا تزال شائعة بين اجيالٍ شتى من الناس . وكان للرواة والمنشدين منزلةٌ يُحسدون عليها ولهذا تطالَّ اليها كل ذي علم واسع وذاكرةٍ نيِّرة . وكثيرًا ما كانت باب رزق لكل ضرير كُفَّ نظرهُ فتحوَّل نور بصره الى بصيرتهِ فادخرت في محفوظها ما تقصر عن رسمه اقلام الخطَّاطين

ذكر سقراط وافلاطون وغيرهما ان المنشدين كانوا يتهافتون الى مجتمعات الناس في اثينا وسائر مدن اليونان فينشدون ما حفظوه من الالياذة وغيرها

(1) Barthélemy Saint-Hilaire, Iliade d'Homère traduite en vers français.

وكان قيام هؤلاء المنشدين بين العامة والخاصة من لوازم كل احتفال وطني وعيد ديني . فتقام لهم في اثينا وسافس وتيوس وأرخمينا ومدائن اخرى اسواق كسوق عكاظ ومربد البصرة يتناظرون فيها وتُعدُّ لهم الجوائز السنية فيحرزها المبرّز منهم ويحرص عليها حرص الفائز باكليل الغار بعد الانتصار . ولطالما كان يجنح الواحد منهم الى التغني ببطلٍ معين او روايةٍ مخصوصة فيفني العمر بالقائها حيناً بعد حين على ما هو اليوم شأن القصَّاصين في مصر وبر الشام والاقطار العجمية . ويؤخذ على ذلك دليلٌ من نفس هوميروس اذ انطق أوذيس في الاوذيسية (ن ٩ — ١٢) بما يربو على الفين ومئتي بيت نفساً واحداً . على انه لايلزم مما تقدَّم ان راوياً واحداً ينشد الالياذة كلها او يحفظها لهذا الغرض

وقد اسهب متفرد [١] وغروت [٢] وغيرهما في ذكر الادلة الساطعة على امكان بقاء الالياذة محفوظة في الاذهان قبل شيوع الكتابة مما لا متَّسع لنا لنقله . وحسبنا ايراد شيء من الادلة الحديثة منها وما يتصل بأزماننا مما يرتاح اليه قراؤنا ولا سيما العرب منهم

العميان وانشاد الشعر

بحث فورييل [٣] في الاغاني اليونانية في الاعصر الاخيرة فقال في مقدمته « انها لاتزال على ما كانت عليه في سالف الزمن والغريب انها بقيت مهنة العميان وهي مهنةٌ تحببهم الى الناس بل تجعل لهم مقاماً ذا نفعٍ بالنظر الى حالة الامَّة واخلاقها وتصوراتها وشأنهم التنقل من بلدٍ الى آخر فيطوفون اطراف بلاد اليونان وجزرها وهمُّهم استظهار جميع ما وسعه ذهنهم من الاشعار والاناشيد القديمة والحديثة . فكلهم يعرف منها شيئاً كثيراً ويبلغ ما يحفظه بعضهم الى حد الغرابة والاعجاز . فاذا ذخروا هذه الاغاني فانما ادخروا كنزاً ثميناً

(1) Mitford, History of Greece p. 135.
(2) Grote, History of Greece Vol. II p. 145.
(3) Fauriel, chants populaires de la Grèce moderne. 1824.

يطوفون به فيلقونه بضاعةً ذات قيمة وحيثما حلوا اجتمعت الناس اليهم فيأخذون في الانشاد بما وافق المقام ويتعيشون بما ينحهم به مستمعوهم . وهم في الغالب يؤثرون الانشاد بين عامة الناس لان العامة اكثر اقبالاً عليهم واقل تعنتاً في انتقاء المواضيع — ولا يزالون كما كانوا لعهد هوميروس يتغنون على نغم القيثارة او الكنّارة وهم فئتان فئة تنشد محفوظها من شعر الشعراء وهي الفئة الكبرى وفئة قليلة تنشد من محفوظها ومنظومها وهي ارفع منزلةً واوسع جاهاً . وهكذا فان هؤلاء المطربين هم الآن كما كانوا في القدم رواة الاخبار والتواريخ وشعراء الامة »

حفّاظ الشعر عند سائر الامم وخصوصاً العرب

قال غرِمّ [1] « ان الالمان كانوا يسلكون هذا المسلك وان الاناشيد الجرمانية كانت تنشد كاناشيد اليونان على نغم القيثار »

ومن قول فوريل ايضاً [2] « ان الروايات والقصص كانت تنشد في فرنسا على هذا النمط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وكان الراوي اذا اراد الانشاد دعا الجماعة الى استماع اغنية تاريخ جميلة (une belle chanson d'histoire) ثم يتغنى على نغم شبّابة عربية ذات ثلاثة اوتار واذا اخذ فيه العياء ظل ينغم زمناً بلا انشاد . تلك كانت الوسيلة المثلى لالقاء الروايات والاقاصيص »

ونقل الكسندر شدزكو [3] « ان حفّاظ العجم يتلون لك من شعر شعرائهم ما لا تكاد تصدق ان ذاكرةً تعيه لكثرته فقد يظل المنشد يتغنى باشعار الشهنامة (وهي الياذة الفرس) نهاراً كاملاً » وما ادراك كم بيتاً يقال في نهار

(1) Grimm, Deutshe Heldensage, p. 373
(2) Romans de chevalerie, Revue des deux mondes, XIII p. 559
(3) Alexander Chodzko, specimens of the popular poetry of Persia, London 1842. Introd. p. 13

اما العرب فلم يكن في أمَّة من امم الارض شأنٌ للانشاد ارفع منه عندهم وهذه اخبار عكاظ والمربد تملأ الاسفار بصرف النظر عن اخبار الشعراء المنبثين في كل اصقاع البلاد العربية لامهنة لهم الا انشاد الشعر . وهذه اخبار الخلفاء وقد كان ما يجيزون به الشعراء من ابواب النفقة الطائلة مما لايبقى معه ريب ان انشاد الشعر كان الضالّة المنشودة والمفخرة التي يتسابق اليها الرفيع والوضيع

واذا طالعت اخبار الشعراء المُترجمين في كتاب الاغاني وغيره رأيت بعضهم كهوميروس اميّين لا يقرأون ولا يكتبون بل ربما احتاج ابلغهم الى قارىء صغير كما فعل طرَفة ابن العبد والمتلمس اثناء شخوصهما الى عمرو بن هند ملك الحيرة اذ اضطرّا الى استرضاء غلام ٍ حدَث ليقرأ لهما كتاباً وكلاهما من فحول الشعراء (شرح الالياذة ص : ٤٤٩) وهؤلاء اصحاب المعلقات والمجمهرات والملحمات كان فريقٌ كبيرٌ منهم أُمّيّاً

واما مبلغ الذاكرة عندهم فمما لايفوقه شيءٌ في اخبار اليونان والرومان والافرنج . وفي اخبارهم ما لو حُذف منه شيءٌ كثير لربا باقيه على مرويّات اليونان قديمهم وحديثهم . فاذا علمت ان ابا العلاء المعرّي سمع محاورة اسرائيليّين بالعبرية وهو في شأن غير شأنهما ثم طُلب بعد مدة مديدة للشهادة فأعاد تلك المحاورة وهو لا يفقه من العبرية حرفاً — اذا علمت ذلك فما ظنك تعي ذاكرته من الشعر لو توخّى الحفظ — واذا قيل لك ان الالياذة مؤلفة من زهاء ستة عشر الف بيت فيصعب الاخذ بقول القائلين انه امكن استظهارها فما بالك لو سمعت ما ذكروا عن غرائب حافظة حمّاد الراوية اذ امتحنه الوليد بن يزيد ووكّل به من يسمع انشاده فأنشد تباعاً الفين وتسعمائة قصيدة من شعر الجاهلية . او لو قيل لك ان الاصمعي كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزةٍ كاملة ما خلا القصائد والمقاطيع واخبار العرب بدوهم وحضرهم . وهذا قولٌ مهما أُنس فيه من المبالغة لا يخلو من صحةٍ بعضها كافٍ لاثبات ما نتوخاه

هذا واني ممن يعتقدون انحطاط قوى الذاكرة وارتقاء قوى المخيلة في

ازماننا هذه بناء على الناموس القاضي بترقي القوى البشرية وانحطاطها بكثرة المزاولة وقلتها . ومع هذا فالحافظة مهما وُلدت خاملة لاتلبث ان تقوى بالمثابرة على الاستظهار فمثلها في تدرُّجها من الضعف الى القوة مثلُ يد النجار والحداد وقلم الكاتب . وفي عصرنا هذا من حفَّاظ التوراة والانجيل والقرآن مئاتٌ والوف عرفتُ بعضهم بالذات . ولقد طالما اضطررت في حينٍ من الزمن الى مراجعة خبرٍ او آية في التوراة والى جانبي المرحوم المعلم داود الحاج فكنت اذا ذكرت لهُ طرفًا مما أُريد اشار فورًا الى السفر والفصل وكثيرًا ما كان يعيّن العدد فأتصفح الكتاب فاذا هو كما قال . وحفَظَة القرآن منتشرون في كل صقع من بلاد الاسلام ومنهم الجم الغفير من كفيفي البصر كرواة سائر الامم . ويقال مثل ذلك في حفَظَة الانجيل من المسيحيين ولا سيما وعَّاظ الانجيليين

اما رواة الشعر فهم في البلاد الشرقية اكثر منهم في اقطار الغرب حيث قضت الكتابة على الاستظهار القديم . وقد شهدت بنفسي مصداق قول شدزكو في منشدي الفرس . فاذا جلست الى الواحد منهم وهو ينشد شعر الفردوسي او جلال الدين الرومي او قصص كلستان سعدي شعرًا ونثرًا لظننته يتلو كتابًا يتصفحه حرفًا حرفًا

واذا جلت في بادية العرب وسمعت منشديهم ينشدون على نغم ربابتهم الوفًا من الاشعار قلت تلك كنارة هوميروس وهؤلاء لا اولئك هم المنشدون الذين ذكرهم سقراط وافلاطون ومِنفُرد وغروت وفوريل وغرمّ وشدزكو

ولقد تيسر لي اثناء تجولي بينهم ان التقطت منهم قصائد شتى جمعتها في ديوان سامثّل منتخباتهِ بالطبع وكثيرًا ما كنت اسمع القصيدة من غير راوٍ فاذا هي هي

وليس بالامر اليسير بإزاء ما تقدم محفوظ زجَّالي مصر وقوَّالي لبنان وشعراء اهل الارياف في اسبانيا والبرتوغال . فقد استبقت الذاكرة بضع قصائد بل مَطالع من معنَّى اللبنانيين مما علق بها في الصغر منذ بضعة عقود من السنين فاستنشدتها بعضهم في الصيف الماضي فاذا هي عندهم على حالها لم تزد ولم تنقص

وقد ذكر كتاب الاغاني كثيرين ممن عُنوا بحفظ كتابٍ او منظومةٍ فما

لبثوا ان ادركوا بغيتهم كما كولي (Macauly) الذي أنشد نصف منظومة ملتن الانكليزية في الفردوس الغابر . واذا ساغ لي ان اذكر لنفسي ولرفاقي في الصغر مثلاً من ذلك قلت اننا كنا نتسابق الى حفظ ملحمة ملتن المذكورة حتى تيسر لي مرةً سرد نشيدٍ كاملٍ منها ونصف الثاني مع قسمٍ غير يسير من منظومة سيدة البحيرة لولتر سكُت . وكان استاذنا العم المرحوم المعلم بطرس البستاني يشوقنا الى حفظ الفية ابن مالك وما زال بي حتى استظهرتها واستنشدني منها مائتي بيت تباعًا في حفلة امتحان

وليس ما اذكرهُ في هذا الباب على سبيل الاستطراد شيئًا مذكورًا بازاء محفوظ الرواة الذين لا همَّ لهم الا اختزان الشعر والقصص في حوافظهم فالمنظومات فيها كالمتاع المنضود في حانوتٍ حافل بأصناف المنسوجات ينشرون منها ماشاؤا ايَّان شاؤا على نية ان يطووه الى موضعه . وكلما نشروه مرةً زاد زهاء ورواء واذا تلقَّاه احدٌ عنهم فانما يتلقى رسمه والاصل باقٍ في ملكهم لاتبلغه يد مشترٍ او سارق . فأمثال هؤلاء هم الذين استبقوا للخلف منظومات هوميروس الى ان كُتبت

جمعها وكتابتها

اذا علمت كيف تهافت الحكماء والعظماء على تلقي الالياذة وتلقينها للناس يومَ لم يكونوا يكتبون وعرفت كيف اكبَّ الحفَّاظ على ادّخارها تبادر الى ذهنك انه لم تكد الكتابة تنتشر في بلاد القوم حتى اقبلوا على جمعها وتدوينها . وان لنا في الاثر امثلةً اخرى مما تُلي وانتشر قبل ان يجمع في كتاب ليحفظ ويُنقل او نُبذ فأُهمل . وليس هذا خاصًا بالشعر بل قد تُنوقل الحكَم والروايات النثرية قرونًا طوالاً . وهكذا حُفظت تواريخ الجرمان والسكنديناف ومنظوماتهم قرونًا قبل ان يدوَّن منها شيء في كتاب (1)

(1) Grote, History of Greece Vol. II p. 149
Mariners accounts Vol. II p. 377

وهو معلومٌ ايضاً ان القرآن على غزارة مادَّته وتشابه آياته انتشر ورسخ في حوافظ الصحابة كاتبهم واميّهم بل ربما كان ارسخ في ذهن الاميّ

وليس لدينا شيء مما يمكن معه تعيين الزمن الذي بوشر فيه بكتابة الالياذة · ولا شك ان فيسيستراتُس كان من صفوة المشتغلين بهذا العمل الخطير كما تقدم (ص : ٢٣) حتى لقد عثروا في بعض مخطوطات رومية على اسماء اربعة من الشعراء استعان بهم على ضبط منظومات هوميروس وهم أونومكريتُس وزوفيرُس وأرفيوس وكُنكيلوس · ولكن الظاهر ان نسخة فيسيستراتس لم تكن النسخة الاولى وانه شُرع في كتابة تلك المنظومات منذ اواسط القرن السابع ق · م · اي قبل نحو قرن كامل · ولا ريب ان من ولي صولون الى زمن فيسيستراتس جمعوا منها نسخاً مما ذكره علماء مدرسة الاسكندرية أو اغفلوه · بل لعل الكتابة في زمن صولون نفسه كانت تتسع الى مثل هذه الغاية · وان جميع معاصري فيسيستراتس اثنوا الثناء الجميل على ما فعل · ولكن الغريب ان علماء الاسكندرية لم يذكروا نسخته في جملة ما حسبوه من النسخ التي كانت بين ايديهم · فاما انها لم تتصل اليهم وهو محالٌ مع شهرتها · واما انهم كانوا يعلمون انها انما كانت نسخةً تقدمتها نسخٌ كثيرة فأغفلت في جملة ما أغفل وهو الاظهر · وكانت في الاسكندرية اذ ذاك نسخٌ شتى نُقلت عن مجموعات ارُغس وخيوس (ساقس) واكريت وقبرس وغيرها من مدائن اليونان مما يدل على سعة الانتشار · فعمد علماء الاسكندرية الى تلك النسخ ومن جملتها النسخة التي كتبها ارسطوطاليس للاسكندر وقابلوها بعضاً على بعض ثم وضعوا النسخة التي تداولتها الايدي الى هذا الزمن · وكانوا رهطاً من فحول العلماء بل كانوا اعلم ابناء زمانهم كزينودوتُس الافسي وأرسطوفانس البيزنطي واعلمهم طرًّا أرسطرخُس السامثراقي وهو الذي قسم كلاًّ من الالياذة والاوذيسية على ما قيل الى اربعة وعشرين نشيداً[1] على عدد حروف الهجاء عندهم

(1) American Cyclopaèdia Vol. VIII p. 780.

القول في سلامتها من التحريف والتصحيف

لم يُعنَ البشر في زمن من الازمان بنسخ كتاب وتمحيصه وحفظه ونشره عنايتهم بالالياذة واختها الاوذيسية ولا يستثنى من هذا الاطلاق الا الكتب التي رُفعت عليها أُسس الاديان كالتوراة والانجيل والقرآن . ومع هذا فلست ممن يقول بسلامة الالياذة بجميع اجزائها من كل تحريف وتصحيف او زيادة ونقصان وايُّ كتاب اجمع الناس على انه لم تعبث به قطُّ يدُ كاتب ولم تنتبهُ جائحة زمان . أفليس في بعض نسخ التوراة عباراتٌ مختلفاتٌ عنها في نسخ اخرى . وانَّ منها أسفارًا كاملة يعدُّها فريقٌ قانونيـة وينكر ذلك فريقٌ آخر . أوَليس من يقول بضياع بضعة اناجيل واختلاط اسفارٍ اخرى من العهد الجديد . ومن ينكر عناية الخليفتين ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في جمع اجزاء القرآن في صحفٍ مكتوبة ومبلغ جهدهما وجهد الخليفة عثمان بعدهما في ضبط قراءته والنظر في كل ايةٍ من آية حتى اذا رأى عمر ان آخر سورة التوبة مفقود ظل يبحث عنها حتى وجدها مع ابي خزيمة الانصاري وفعل فعله عثمان اذ فقدت آية من الاحزاب فالتمسها ووجدها مع خزيمة بن ثابت الانصاري . وهل سد ذلك افواه المعترضين من بعض فرق الغُلاة والمعتزلة . أوَ لم يتواتر ايضًا ان بعض كتبة الوحي لنبي الاسلام كعبد الله بن ابي سرح في اول اسلامه كانوا يعمدون الى تبديل كلام بآخر

ولكن النبي كان حيًّا فأثبتوا انه كان يضرب على ايدي اولئك المحرِّفين و يردُّ الكلم الى مواضعه . اما الالياذة وقد تناشدها الرواة نحوًا من قرنين ولا ضابط لها سوى اذهان المنشدين فلم تكن ثَمَّ قوةٌ بشرية قادرة على حفظها من اولها الى آخرها على ما نطق بها هوميروس مهما بُذل في سبيل ذلك من العناية والهمة . بل ربما لو بُعث هوميروس نفسهُ وانشدها مرة اخرى لما تمالك عن تغيير حرفٍ وتبديل شعر . على انه لا ريب ان التحريف والتصحيف قليلان جدًّا في جميع

ما اتصل بنا منها لما رأيت من عناية القوم بها اللهمَّ الا أن تكون هناك اجزاء مفقودة برمّتها مما لا يدخل تحت هذا الحكم . ومع هذا فارتباط اجزائها بلا انقطاع يدل على انه ان كان ثمة مفقود فهو قليل . واننا الآن موزدون استجلاء لهذا البحث امثلة مما ذكره الشراح وما لم يذكروه من الدخيل والساقط والمكرَّر والمُغلق

الدخيل

ذكر هوميروس في النشيد الثامن انه عند غروب الشمس تحاجز الجيشان فانكفأ كلٌّ الى معسكره والطروادبون على بيّنة من الفوز في غدهم لما أُوتوه من انباء الغيب فاقاموا ليلهم ينتظرون بزوغ الفجر لينقضُّوا على اعدائهم . ثم وصفهم ووصف نيرانهم وقال : (ص : ٥٤٧)

فبين السَّفين الراسيات وزَنْثُس لوامعُ نيرانٍ بذاك المعرَّس
توَّجُ لدى إليون في الف مَقبِس يؤجّجها خمسون في كل مَقبِس
ودونهمُ بين العجال جيادهم وقوفٌ لدى ذاك القَضيم المُكدَّس

وهنا في بعض النسخ اربعة ابيات مفادها انهم ضحَّوا بالضحايا فلم تقع لدى الآلهة موقع قبول لما استقر في نفوسهم من كراهة اليون عاصمة الطرواد وملكها وملته . فذهب بعض الشراح وذهبنا مذهبهم الى ان هذه الابيات دخيلة فاغفلوها واغفلناها لان فوز الطرواد في ما يلي يدل على انها في غير موضعها بل هي مناقضة للمعنى على خطٍّ مستقيم لان زفس كبير الآلهة كان في زمن موالاة للطرواد

وفي النشيد الثالث عشر يوعز فوليداماس الى هكطور . زعيم الطروادبين ان يجمع اليه زعماء الجيش ويشاورهم في الامر فيقول الشاعر :

تَلقّاهُ هكطور قولاً مُصيبا وقال لِفوليدَماسَ مُجيبا

وهنا في بعض النسخ بيت يقول ان هكطور وثب الى الارض من مركبته وهو لا شك دخيلٌ من غير نظم الشاعر لان سياق الحديث يدل على ان الطرواد غادروا مركباتهم وزحفوا مشياً على الاقدام

هذا وان في الالياذة بذمة أبيات لا أرى لما علاً اصلاً ولو خيرت لحذفتها ولكنه لا سبيل الى ذلك لانها مثبتة في كل النسخ . مثال ذلك قول إيريس اذ انفذها زفس برسالة الى هيرا واثينا فبعد ان بلغتهما قوله كجاري العادة قالت لاثينا : (ن ٨ : ٥٤١)

وأنتِ ابا شرّ الكلاب وقاحةً أتلقين بالرمح الثقيل ابا الورى

فانها تجاوزت حد مهمتها وفاهت بكلام بذيء لم يفُهْ به زفس ولم يتفق للشاعر ان اتى بامثاله فضلاً عن انه كلامٌ لا يجوز ان يوجَّه الى اثينا ربّة الحكمة وحيثما ذكرها هوميروس فانه يذكرها بالتعظيم والتبجيل

ومثل ذلك قوله بلسان فطرقل في النشيد السادس عشر (ص : ٨٥٢) متهكماً على قبريون وهو يهوي قتيلاً من مركبته الى الارض :

وهكطور صاح بهِ قائلاً : فيا للباقته كيف يجري
فلو من سفينته واثبًا الى اليمّ غاص لِلجّة بحرِ
لصاد محارًا ولو صدع النو ء يكفي الجماهير شرّ الطوى

وفطرقل هذا على بسالته وعزته مثال الحلم والحصافة والدعة فلا يصح ان ينطق بمثل هذا التهكم على قتيل انقضى امره . ولا سيما انه قبل ابيات انتهر صاحبه مريون لمخاطبته عدوًّا بكلام فظّ فقال له : (ص : ٨٤٥)

علامَ اخي ذا الكلامُ المهينُ وأنت بلونك سامي النُّهى
أتزعمُ أن حديد الكلامْ يصدُّ الطراودَ يوم الصِّدامْ
فما ذا بدافعهم عن قتيلٍ حواليه تعطك لامٌ بلامْ
ولن يرجعوا عنه حتى يضافَ صريعًا لذاك الهمام همامْ
فللحربِ فعلٌ وللسلمِ قولٌ وهذا اوانُ الوغى لا اللُّغا

الساقط

ويقابل هذه الزيادة نقصانٌ قليل في ايراد بعض الروايات مثال ذلك قصة

بليروفون فانها مبتورة بترًا فسواء التقطها هوميروس من التوراة فمثّل به يوسف الصدّيق او تناولها من مصدر آخر فلا يأتي المطالع على آخرها الا وهو متطلع الى اسباب انحراف الآلهة عن ذلك الرجل البار وقد افضنا بهذا البحث في موضعه (حاشية ص : ٤٥٣)

المكرّر

وهناك ابياتٌ مكررة قد يمكن وضعها في ثلاث مراتب :

١ً ما كان واجب التكرار كالبلاغ الذي يلقى الى الرسول فيؤديه كما أُلقي اليه وهو كثير

٢ً ما كان جائزًا وهو اما مقصود من الشاعر لبلاغته واما دخيلٌ بقلم النسّاخ في احد موضعيه لكثرة تغني الناس به وانطباقه على المعنى في الموضعين .

مثال ذلك وصف اصطدام الجيشين في النشيد الرابع اذ يقول : (ص : ٣٧٥)

تدفقتِ الاجناد أيَّ تدفّقِ … الى الحرب تجري فيلقًا إِثر فيلقِ
كثائر امواج البحار تهيجُها … بن اللجِّ انواءٌ بغير ترفقِ
يدفع بعضًا بعضُها فوق لجّها … الى حيث فوق الجرف بالعنف تلتقي

نبعض ابيات هذه القصيدة مكررٌ في مثل هذا الموقف في النشيد الثامن (ص : ٥٢٠)

ومثال ذلك قوله في وصف هكطور وهو مقبل على الاعداء : (ن ١٥ : ص ٧٨٧)

افلّون هاتيك العزائم مانحٌ … وهكطور الابلاء والحرب جانحُ
كمهرٍ عتيٍّ فاض مطعمهُ على … مرابطهِ ينتُّها وهو جامحُ
و يضرب في قلب المفاوز طافحًا … الى حيث وجه الارض بالسيل طافحُ
يروّض فيه إِثرَ ما اعتادَ نفسه … و يطربُ ان تبدو لديه الضحاضحُ
ويشمخُ مختالاً بشائق حسنه … يطير واعراف النواصي سوابحُ
وتجرى به من نفسها خطَواته … الى حيث غصّت بالحجور المسارحُ

فهذه الابيات بعينها واردة بوصف فاريس في النشيد السادس (ص : ٤٨١)

٣ً ما كان مكروهاً والاجدر به ان يُعدّ من باب الدخيل كقول هيرا وهي تستمدّ رافة زوجها زفس بالاغريق : (ن ٨ : ٥٤٣)

ولكننا نرثي لحال الاغارقِ يُبيدهمُ المقدور تحت البلامقِ

اطعنا فلا نأتي الكفاح وانما نمدّهمُ بالرأي خوف البوائقِ

فهذا كلام سبقت اثينا فخاطبت به زفس في نفس النشيد (ص : ٥١٨) فما بقي محل لاعادته

واغرب من هذا تكرار خطاب اغاممنون في النشيد التاسع وهو الذي يقول في مطلعه

أحبايَ والاقيال والصيّد خلتني رمانيَ زفسٌ في حبائل آتيا

فهو خطاب القاه بنفسه في النشيد الثاني (ص : ٢٥٢) وقصد به هنا غير ما قصد هناك ولعل ما قاله في هذا الموضع مما فُقد اصلهُ فعوّض النسّاخ عنه بابيات سابقة حسبوها تليق بالمقام

المُغْلَق

ولقد أُغلق عليّ فهم المراد من مخالفة اثينا لابيها زفس مخالفةً بلغت حد العصيان وهي ربّة الحكمة والسداد تعرف انها لا قِبَل لها به و يشقّ عليها الخذلان فلا تأتي امرًا يورثها الندم . فكيف قامت بعد هذا تتهدد وتتوعد بكلام يملؤه العتوّ ثم ما لبثت ان استلأمت وتدججت بالسلاح لتنخرط في سلك مقاتلةٍ نهاها زفس عن الاخذ بيدهم فصدعت بالامر وقالت « اطعنا فلا نأتي النزال » ثم خالفت قولها وانتقضت عليه انتقاضاً كاد يودي بها (ص ٥٣٧ وما بعدها) — وحبذا لو كانت هذه الرواية في بضعة ابيات اذاً ليتيسر لي ان التمس للشاعر عذرًا فاجزم بكونها دخيلة ولكنها مندمجة في الرواية اندماجاً ولا سبيل الى افرازها منها الا اذا اختل نظام سياق الحديث فلا بد اذاً من ان تكون من نظم الشاعر ادرجها هنا لامرٍ غمضت عليّ حكمته .

وخصوصاً ان الشاعر يتوخى الحقيقة في كل اقواله صريحةً كانت او رمزية ويرمي في كل معانيه الى بث حكمةٍ ونشر فضيلةٍ وليس في هذه الرواية شيءٌ من ذلك · على انه اذا صحَّ انتقادنا فليس بعجيب ان يشذَّ الشاعر هذا الشذوذ في مظنَّةٍ واحدة من منظومة تملأُ هذا المجلد الفخم

وعلاوةً على ما تقدم ربما لاتخلو الالياذة من الفاظٍ بل من ابياتٍ لعبت بها ايدي النسَّاخ ولكنه ليس في شيءٍ منها ما يشوه وجه تلك الخريدة العذراء فلا يزيدها تقادم العهد الا بهاءً ورواءً فهي كزُهَرة هوميروس وقومه تتوالى عليها الاعقاب وتنقضي الاحقاب وهي هي تلك الفتيَّة العذراء ربَّة الجمال الخلاَّب

الرأي الوُلفي

او القول في كونها منظومةً واحدة او منظومات شتى

توالت الاحقاب على الالياذة والناس يتناشدونها ويتناقلونها وهم مُعجَبون ببلاغتها واتساقها مُكبرون ذكاء تلك القريحة السيالة التي تفجَّر منها ذلك المنهل العذب · فلما كان القرن الثامن عشر قامت عصابةٌ من العلماء وانكرت على هوميروس انشاء الالياذة وما يتبعها من سائر شعره وقالت بل هي قصائد متفرقة لشعراء كثيرين رواها الرواة وعني بجمعها المشغفون بمطالعة الشعر وكان من نتيجة قولهم هذا ان هوميروس رجلٌ وهمي خلقته تخيلات الشعراء

ذلك ما يُدعى في عرف الافرنج بالرأي الوُلفي نسبةً الى وُلف العالم الالماني وان لم يكن هو السابق الى بثِّ ذلك المذهب · وانما نُسب اليه لانه كان اشدَّ دعاتهِ وتيسر لهُ نشرهُ في زمن ثوران افكار وانتقاضٍ على كل كبير · وقد سبقه اليه افراد ذوو شأن في عالم الادب فلم يكن لكلامهم شيءٌ من الوقع

بدأَ الخوارج على هوميروس والياذته وسائر منظوماته بنشر دعوتهم في اواخر القرن السادس عشر وفي مقدمتهم كازوبون [1] الفرنسي فانكر وجود هوميروس

(1) Casaubon, 1559-1614.

وكون الالياذة من نظم شاعر واحد فلم يكد يعبأ بقوله احد الى ان مات فدفن مذهبه معه ثم بعث ذلك المذهب على يد هيدلين قس اوبنياك [1] فكان اشد من سلفه . وكأنه نبه افكار العلماء الى بحث جديد فحذا بعضهم حذوه واشهرهم مواطنه پيرو [2] وود [3] وبنتلي [4] الانكليزيان وتبعهم ڤيكو الايطالي [5] فأربى بكتابته على جميع من تقدمه . ولكن صاحب القدح المعلى في هذا المضمار انما كان وُلف الالماني [6] فشدد الحملة وما كاد ينشر مقدمته على الشعر الهوميري في اخريات القرن الثامن عشر [7] حتى فشا مذهبه في المانيا وانتشر منها الى اقطار اوروبا فهدم اركان عظمة هوميروس من أسسها وعم القول بين جميع المشتغلين بآداب اليونان ان هوميروس انما هو حي بن بي الاغريق راوية لم تلده انثى وانما ولدته قصائد الشعراء المندرسة اسماؤهم في غوامض الغيب . وان ما ينسب اليه من المنظوم ليس الا مجموع قصائد عني بجمعها في زمن فيسيستراتس في القرن السادس قبل المسيح . واشتد أزر ولف والذاهبين مذهبه بروح ذلك العصر المتطلع الى التشبث بكل رأي جديد والرامي الى تقويض كل مذهب تقادم عليه العهد من اصول الدين الى اصول التاريخ حتى قواعد الانشاء . فنسج على منواله بعض العلماء كهين الالماني في مقدمته على الالياذة [8] وشايعه نيبهر الدانمركي [9] وهردر [10] وغدفري هرمن [11] وولم يلم كثيرون غيرهم ومعظمهم من الالمان مع ان

(1) Hédelin, Abbé d'aubignac, 1604-1672.
Conjectures académiques sur l'Iliade, Paris 1715.
(2) Perrault, 1615-1686.
(3) Wood, 1032-1695.
(4) Bentley, 1661-1742.
(5) Vico, 1668-1744-Milan 1837.
(6) Wolf, 1757-1824.
(7) Prolegomena, 1795.
(8) Heyne, Leips. 1802.
(9) Niebuhr, 1776-1831.
(10) Herder, 1744-1803.
(11) Hermann, 1806.

النافخين في ذلك البوق كانوا في بدء الامر من الفرنسيس وكأنهم ارادوا ان ينكروا على رجل فرد الاستئثار بتلك السلطة الفكرية فوزعوها على عامة الشعراء كما أنكروا على الملوك والحكام الاستئثار بالسلطة الحاكمة فنهضوا الى توزيعها على الامة

ولم ينقض العقدان الاولان من القرن التاسع عشر حتى خمدت ثورة الافكار وانثنى العلماء الى اعادة البحث وامعان النظر ثم ما لبث ذلك المذهب ان تلاشى او كاد على يد جماعة من فطاحل العلماء وفي مقدمتهم أتفرد ملّر [1] فانه لم يقتصر بحثه على الفلسفة والخيال بل تعهد بنفسه جميع المواقع المذكورة في شعر هوميروس وغيره من كتبة الاقدمين وكتب تاريخاً مطولاً لآداب قدماء اليونان توفي سنة ١٨٤٠ وهو يشتغل فيه . وقد اثبت بما جمع من الادلة وجود هوميروس وان الالياذة من نظمه . ولم يكن ولكر بأقل من ملّر تضلعاً في هذا البحث فانه كتب الاسفار الطوال بتاريخ اليونان ووصف آدابهم وافاض في الشعر الهوميري [2] فتداعت على يده ويد ملر دعائم المذهب الولفي . ولكن الذي قوّضها تقويضاً انما كان غريغور نتّيش وله في تاريخ اليونان المجلدات الضخمة والحجج المسندة الى البينات [3]

وهكذا فان الالمان الذين شنّوا هذه الغارة اثاروا من جماعتهم من تصدّى لدفعها بسواعد اشد وادلّة اقوى . ومع هذا فلم يزل بينهم من يقول بالرأي الولفي مع ان معظم علمائهم ومحققي الانكليز والفرنسيس ومشايعي ڤيكو الايطالي قد نبذوه منذ طويل . وان المقام ليضيق عن ذكر اسمائهم جميعاً فضلاً عن ايراد ادلتهم فنجتزىء بالاشارة الى بعضهم ممن اشتهر بولوج هذا الباب كالاستاذ

(1) Ottfried Muller, 1797-1840.
(2) Welker, der epische Cyklus, 1835-1849.
(3) Gregor Nitzsch, 1790-1861.

بلاكي [1] في كتابه « هوميروس والالياذة » والاسقف ثرول [2] وغروت [3] في « تاريخ اليونان » . وغلادستن [4] في كتابه « هوميروس وعصره » . وغينيو في مقدمة المعجم الهوميري [5] ولوبريفوست في حواشي ترجمة الالياذة [6] وبرتين في « المسألة الهوميرية » [7]

وليس لنا في هذا المقام الضيق ان نفصل الادلة التي اوردوها . ومع هذا فلا بد من القاء نظرة مجملة على الالياذة لاستجلاء ما اذا كان يصح القول بكونها من نظم غير واحد من الشعراء

علمنا مما تقدم في تلك سيرة هوميروس و رأي المتقدمين والمتأخرين فيه انه لم يبق محل للريب في نظر المحققين ان شاعرًا يلقب بهوميروس نبغ في القرون الغابرة ونظم الالياذة والاوذيسية وقد اجمعت النصوص التاريخية والاثار العاديّة على انه كان بمنزلة يقصر عن ادراك شأوها سائر الشعراء فما بقي من ثمَّ سبيل الى انكار وجوده . وانما بقي علينا ان نعلم ما اذا كانت الالياذة كلها من نتاج تلك القريحة الوقّادة

وحدتها

لقد علم المطالع اللبيب من سياق كلامنا ولا سيما من بحثنا في سلامة الالياذة من التحريف والتصحيف والزيادة والنقصان اننا اذا انكرنا على ولف مذهبه لانتطرَّف في الانكار الى حد الاخذ بمذهب الدكتور شليمن الالماني [8] الذاهب الى اثبات حقيقة الكلي والجزئي فيها واسناد كل ذلك الى

(1) Professor Blackie, Homer and the Iliad.
(2) Bishop Thirwall, History of Greece.
(3) George Grote, History of Greece.
(4) Gladstone, Treatise on Homer and the Homeric age, 1858.
(5) Guignault, Notice sur Homère.
(6) Leprévost, Notes sur l'Iliade.
(7) G. Bertin, la question Homérique 1897.
(8) Heinrich Schliemann, Ithaque, le Péloponnèse et Troie, Paris 1869;
Trojanishe Alterthümer 1874;
Atlas Trojanischer Alterthümer 1875.

المكتشفات الاثرية . فاعتقادنا اذًا مقصور على ان هوميروس هو ناظم الالياذة وانه هو ناسج بردها وناظم عقدها من اولها الى آخرها بصرف النظر عن الحقائق التاريخية البحتة وعما قد يتخللها من ساقط ودخيل

قال غروت في « تاريخ اليونان » : [1] « ان تعداد القبائل في النشيد الثاني لا يمكن الا ان يكون جزءًا من كلٍّ اي انه لابد ان تكون فيه اشارةٌ الى حوادث مقبلة والاَّ فاذا أُخذ منفصلاً فلا لذة فيه للسامع والاذن لاشك تملُّ توالي تلك الاسماء والاعلام ما لم تكن النفس مرتاحة الى انه يُرمى بها الى الاشارة الى وقائع تعقبها على الاثر . وان في آثار القوم ما يثبت ان ذلك الجدول الجغرافي كان حتى في ايام صولون شائعًا شيوعًا عامًّا حتى قيل ان صولون نفسهُ عمد الى تحشية شطرٍ فيه ليتسنى له ربح الخطَر الذي عُقد رهانه بينهُ وبين الميغاريين كما ان الميغاريين اضافوا اليه شطرًا يقوّي حجتهم . ومن ثم يتضح ان اليونان كانوا قد أُلِفوا قبل فيسيستراتوس بزمنٍ طويل سماع الالياذة منظومةً واحدةً متناسقة الاجزاء متتابعة المباني »

وهو قولٌ لاشك سديدٌ في بابه ولكنه لايدفع حجة القائلين انه اذا صح ان تكون الالياذة على سلامتها في ذلك الزمن قد لايصحُّ ان تكون اتصلت الينا على تلك السلامة . فدفعًا لهذا الاعتراض حسبنا ان نوجه نظر المطالع الى ما اسلفنا عن عناية الاقدمين بحفظها نقيةً من الشوائب ولا سيما في باب « جمعها وكتابتها »

واننا موردون في ما يلي تحليلاً موجزًا لتلك المنظومة بل تشريحًا لذلك الجسم المتماسكة فقراته المترابطة عضلاته يتضح منه انه لا بد من ان تكون منظومة واحدة لشاعر واحد . وهو بحثٌ لم يتصل بنا نظيره في ما طالعناه من كتب القوم

تحليلها وتشريحها

الاشخاص

خذ الالياذة وتصفح اية صفحة شئت منها واقرأ حتي يقع بصرك على بطلٍ من

(1) Grote, History of Greece, Vol II p. 157.

ابطالها سواء كان من مغاوير الكماة او من عُرض الجند ثم انتقل الى معجم الاعلام وانظر في الصفحات التي ورد فيها ذكر ذلك الرجل واقرأ ما وُصف به فيهن جميعاً فتتبين انه هو هو حتى تكاد تنطق باسمه قبل ان تبلغه مهما تباينت المواقع وتباعدت الاناشيد

فهذا اخيل يبدو لك لاول وهلة قرماً عنيداً وشهماً حقوداً ووليّاً ودوداً وصارماً عتيّاً ترتسم حسناته وسيئاته في مخيلتك من تلاوة اول جزء من اول نشيد وتعلم انه الفتى المضروب بُنيت الالياذة على وصف غضبه فلا تقرأ نشيداً منها سواء ظهر فيها ذلك البطل او لم يظهر الا وتشعر انه لايزال متقدماً بسعير الحقد والغيظ الى ان يتيسر للشاعر تهيئة الاسباب المؤدية الى اخماد تلك الجذوة في آخر الكتاب فاذا به كما تستلزم دواعي السيادة والكرامة ساكن الجاش على رفعة نفسه وقد جمع في صدره من كرم الخلال ما يكاد يضيق عنه ارحب الصدور وليس في الكتاب كلهِ عبارةٌ واحدة يشذُّ بها الناظم عن هذا المرمى وهيهات ان يتفق هذا التناسب لغير ناظم واحد .

ثم انظر الى هكطور فهو حيثما رأيته حامي الذمار دفّاع العار عزوماً حزوماً مقداماً عن غير طيش ورِعاً عن صدق عقيدة ذا ذكاء ونيّرة يتمسك من دينه بما لصق بمعبوداته وينبذ ما دون ذلك من خرافات القوم . يعلم انه عماد قومه فيسير سير الزعيم الهمام ويحسن الذود والكر والابلاء ولا يفتأ على المثال الذي صوره به الشاعر حتى يذهب شهيد الدفاع ويموت ميتةً يحسد عليها .

واذا انتقلت من هذين الزعيمين الى سائر ابطال الالياذة وتأملت كل رجالها ونسائها رأيت ان الشاعر رسم لكلٍ رسماً لاينحرف فيه بشيء عن الوضع الذي وضعه له سيّان ذلك في اول الكتاب وآخره

فاغاممنون الامير الخطير والقائد الكبير

وانياس البطل الورِع والحليف الباسل

واياس رب بأس فعّال غير قوّال

وذيوميذ الفتى المقحام يهوّن له نزق الشباب ركوب الاهوال

ونسطور الشيخ الحكيم حنّكته صروف الايام

واوذيس الداهية الدهياء والبلية الصمّاء

وفطرقل الفتى الكريم والخل الحميم

وفريام الملك الصبور والهرم الوقور

وفاريس العاشق المتأنق

واندروماخ الزوجة الامينة

وايقاب الام الحنون

وهيلانة الفتاة الغالب هواها على قواها الشاعرة بسوء المصير

واذا نظرت بعد ذلك الى غير من تقدم ممن كثر ذكره او قلّ تهيأت لك النتيجة نفسها

فاغينور في النشيد الرابع هو نفسه ذلك المحراب في النشيد الحادي والعشرين

وانطيلوخ في النشيد الرابع هو نفسه ذلك الشاب العزوم المتسرّع في النشيد الثالث والعشرين

وقل مثل ذلك في ماخاوون وطبّه وهيلينوس وعرافته وفينكس وصداقته ومريون وامانته وهلمّ جرًّا · وقد تأتي على تلاوة اسمٍ ذكر بطريق العرض فلا ترى له شأنًا خاصًّا ثم اذا أُعيد ذكرهُ بعد مئات او آلاف من الابيات رأيته على صفته لم يتغير بشيء عما ذكر به للمرة الاولى وقد لايرد ذكره سوى مرتين او ثلاث · مثال ذلك أذميت وافرميذون وافروطسيلاس وافغياس واقطور وافلونيُّس واكاس والقميذ وامفياخس وثرسيلوخ وثواس وامثالهم كثيرون

الاعلام الجغرافية

ثم اذا تناولت البلدان والجبال والوهاد والبحار والانهار رأيت انه اتبع تلك الخطة فما ناقض نفسه بكلمة مما وصف به بلدةً او علمًا جغرافيًّا ودونك

بعض الامثلة :

فآرسية لاصقٌ ذكرها بنهر سليس وزعيم جندها اسيُس بن هرطاقس في النشيد الثاني وفي الالف الاولى من ابيات الالياذة وهي هي ونهرها وزعيمها بعد اربعة آلاف بيت في النشيد الثاني عشر

وبفراسا هي البلدة الكثيرة الانعام وهي موصوفة بذلك في النشيد الحادي عشر في منتصف الكتاب ويتكرر ذكرها بنفس الوصف في النشيد الثالث والعشرين اي بعد نحوٍ من خمسة آلاف بيت عربي او ثمانية آلاف شعر يوناني

وتينيذس البلدة المقدسة الموالية لآفلون وهي كذلك في غير موضع

وان المجال ليضيق عن امثلة ما تقدم فانها تفوق الحصر وقد توخينا في الامثلة الثلاثة السالفة الذكر بلاداً قليلة الشهرة فاذا كانت وحدة المرمى فيها هذه فما بالك بالمدن الشهيرة كإليون

وقل مثل ذلك في البحار والانهار كالاوقيانس وزنثُس والاسكمندر وكل ما في الالياذة من يبس وماء

واذا اردت اجمالاً سهلاً لهذا التفصيل فخذ القسم الجغرافي في النشيد الثاني واقتطع منه اية مملكة شئت من ممالكهم واسماء زعمائها ثم تصفَّح المعجم فاذا رأيت تلك الاسماء قد تكرر ذكر شيء منها فانما يتكرر بما لا يشذ عما مرَّ امامك هذا اذا لم ينطبق عليه كل الانطباق ولو فصلت بين الموقعين الاناشيد الطوال

ارتباط اجزائها

ثم اذا تأملت تماسك اجزاء الالياذة وارتباطها بعضها ببعض رأيت ان ناظم النشيد الاول انما هو ناظم النشيد الاخير فكانما هي مرقاة يصعد بك صاحبها درجةً بعد اخرى حتى تستقرَّ في آخرها وأنت متبين كل ما وراءك فاذا بدأت بخصام اخيل واغاممنون تطلعت الى ما وراء ذلك الخصام فيبسطه لك الشاعر بسطاً يزيد ايضاحاً كلما خطوت خطوة . فهناك الجدال وخشية قتال وحنق واعتزال

ووساطة رجال وينتهي الامر بما ترتاح اليه نفسك شأن القصّاص الذي يروي لك خبرًا واحدًا بنفسٍ واحد

واذ امعنت في توادّ اخيل وفطرقل بدا لك من خلال الفصول الكبار صديقان حميمان يتوادّان فيترافقان فيغضب احدهما لغضب الآخر فيتواليان في السرّاء والضراء واذا مات احدهما فلا تنقضي احزان الآخر حتى انقضاء حياته وكل ذلك بحديثٍ طويل تتخلله احاديث اطول تكاد تشطّ بقائلٍ واحد عن تلك الخطة المرسومة فما الظن لو تعدد القائلون

وقس على ذلك جميع حوادث الالياذة

واذا رجعت بعد هذا الى اعظم مظنّة لاعتراض المعترضين وهي الصاق النشدين الاخيرين بالالياذة رأيت انهم انما اتوا باوهن الحجج كما اثبتنا مسهبين في مقدمة النشيد الثالث والعشرين (ص: ١٠٥٣) فلا نسوق البحث هنا الا في ما لم يسبق لنا ذكره في ذلك الموضع

خذ الالعاب في ذلك النشيد وانظر الى ارباب كل ضربٍ من ضروبها ترَ انها لم تُلصق بالالياذة الا لكونها جزءًا طبيعيًّا منها . وان المتبارزين فيها لم يكن يصلح سواهم لوقوف كلٍّ منهم موقفه

ففرسان السباق افميل وهو الذي قيل في خيله في النشيد الثاني (ص: ٣٠٣):

أجودُ الخيل عندهم تلك الجيا ... رُ لدى آبن آبن فيرسٍ افميلِ

قد تساوت قدًّا وسنًّا ولونًا ... وجرت كالطيور فوق الطلولِ

وذيوميذوله مطهّما آنياس وقال عنهما الشاعر في النشيد الخامس (ص: ٣٩٩):

وامضِ واقتَدْ مطهّمي آنياسٍ ... خير ما في الدنيا من الافراسِ

والحق نسبتهما هناك بجياد زفس ابي الآلهة . ثم لما ابرز الشاعر ذيوميذ في حلبة السباق اعاد تلك الذكرى

ومنيلاوس وهو زوج هيلانة واخو اغاممنون والمتسبب بحرب طروادة

وانطيلوخس بن نسطور الفتى الباسل صديق اخيل

ومريون الحوذي الماهر . وهم جميعاً اجدر الفرسان بخوض ذلك الميدان
وانّ ما قيل في السباق يمكن اطلاقه على النضال والطعان والحُضر
والصرّاع وغيرها

فلسفتها وآدابها

واذا امعنت النظر في فلسفة الشاعر وخلائقه وآدابه رأيت انه رمى فيها كلها
الى امورٍ خاصة برجل واحد فهو وان جارى ابناء زمانه في كثير من عاداتهم
ومعتقداتهم فقد خالفهم في امورٍ اخرى لسلامةٍ في ضميره ونظرٍ بعيد في ترقيتهم .
وهو حيثما جاراهم فلا ينحرف في مجاراته وحيثما خالفهم فقد راعى ما انطبع عليه
من آداب النفس التي جعلته ارقى اهل زمانه : — فعصرهُ عصر فسق وفجور
وقد شجبهما حتى في نفس الآلهة (ص : ١١٠٧) وزمنه زمن بطش بالاسرى
وقد طعن بقتلتهم (ص : ١٠٦٦) وحسبك في هذا الباب ان تتصفح المواضع
التي افاض بها بمدح المرأة وأتى على اطراء صفات الامهات والزوجات والبنات
والاخوات حتى السبيَّات في قرنٍ كانت المرأة فيه من جملة المتاع وسامةً تُشرى وتباع
وهناك ادلة كثيرة افاض بها الشراح بالنظر الى التاريخ واللغة مما يضيق
دونها المقام

سبب الريب

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل من كلمة بشأن منشإِ الارتياب في آراء
كثيرين من الكتبة والمؤرخين
ان مظان الريب كثيرة في الكتب القديمة التي بين ايدينا ووجوه الاعتراض
دامغةٌ في بعضها حتى يتعذر في بعض الاحايين ارجاعها الى اصلٍ معلوم او
مؤلفٍ معيّن . وعندنا من امثال ذلك كتاب الف ليلة وليلة وقصة عنترة العبسي
واشباههما ولهذا تطرفت زمرة من المشتغلين في التاريخ والآداب الى انكار كل

قديم وبث الريب حتى في وجود مسميات واشخاص تكرر ذكرها في التاريخ وثبت وجودها ثبوت الشمس في رائعة النهار · فهل نعجب بعد هذا اذا تصدت فئة منها الى انكار هوميروس وقد انطوت عليه آلاف الاعوام وهذا فوريل [1] الباحث في آثار القدماء ينكر على الفردوسي هوميروس الفرس نظم الشهنامة والفردوسي ابن الامس بالنسبة الى هوميروس وشهنامته قبلة الفرس في غدوهم وآصالهم واذا سألت اصغر صغير فيهم فصّل لك تفصيلاً كيف نُظمت ولمن نظمت وما كان من امر ناظمها بحياته وبعد مماته

الالياذة ومعارف عصرها

اذا قال الشعراء ما احرى هوميروس ان يكون امير الشعراء قال العلماء وما احرانا ان نتخذ ديوانه خزانةً نفضّ فيها معارف عصره من علمٍ وادبٍ وصناعةٍ وتاريخٍ فقد صرف الادباء نظرهم عن جميع من تقدم من شعراء امته ولقّبوه ابا الشعر واتخذ العلماء والمؤرخون اقواله حجةً يرجعون اليها في استقصاء علوم القدماء

وليس في الامكان بسط الكلام على جميع ما افاضوا به في هذا الباب وانما نلمّ به الماماً موجزاً مع ايراد امثلة يسيرة نظنها وافية بالمرام · ونترك البحث في الشعر وادبه الى ما يلي من الفصول

الالياذة والتاريخ

لا شك ان هوميروس استقى من موارد طمس الزمان ذكرها فنقل ولا نعلم عمن نقل ودوّن حوادث كثيرة مما اثبتها الاثر وما لم يثبتها ولكن ثبوت البعض يرجح في الظن ثبوت الكثير مما بقي · وقد اشرنا في الشرح الى نبذٍ من الحوادث التاريخية التي لم يذكرها المؤرخون · فهو بهذا الاعتبار اول

(1) Fauriel, l'origine des epopées chevaleresques, 1836.

المؤرخين في قومه . وان هيرودوتس الملقب بابي التاريخ يستمد من معارفه و يستشهد بقوله كلما أُغلق عليه امرٌ واضطُر الى اثبات حجة . واذا رجعت الى مؤلفات جميع المؤرخين من اليونان والرومان والافرنج رأيتها مرصَّعة ترصيعًا بالشواهد الهوميرية مما يثبت لك علوّ مكانته في التاريخ

الالياذة والجغرافية

اذا قيل ان هوميروس هو اول مؤرخ قيل ايضًا ان قدمه في الجغرافيا ارسخ ومنزلته ارفع فهو واضع هذا العلم وعَلَمُهُ الاسنى اذ تعهد بنفسه معظم المواقع التي ذكرها ووصفها وصفًا لم يسبقه اليه المتقدمون ويكاد المتأخرون يقصرون عن الاتيان بمثله . وحسبك الرجوع الى القسم الجغرافي لتعلم انه لم يكن لجغرافيٍ ان يلمّ المامهُ بهذا الفن حتى اليوم . وان اسطرابون ابا الجغرافيا بعدهُ يعترف له بالفضل والسبق (١) وجميع مباحثه مؤيدة بشواهد من الشعر الهوميري حتى لقد يمكن اعتبار جغرافيته شرحًا لمتنٍ ثلاثة ارباعه في الالياذة واكثر باقيه في الاوذيسية . وقد حداني حبُّ الاستطلاع يومًا الى عدّ الشواهد التي اخذها اسطرابون من منظومتي هوميروس فاذا بها مئتان وتسعة واربعون بيتًا من الالياذة ومئة واثنا عشر بيتًا من الاوذيسية ما خلا الابيات المكررة في عدة مواضع وما ادراك ما يمكن ان يُكتب من الشرح على هذا المتن الطويل

الالياذة وسائر العلوم

أفردت في معجم الالياذة بابًا لكلٍّ من العلوم التي طرق هوميروس ابوابها والحقته بهذا الكتاب وعيَّنت فيه الصفحات التي ورد فيها ذكر العلم المراد ارشادًا للمطالع

وسترى منه ان الالياذة اشبه بدائرة معارف جمعت بين سطورها جميع

(١) اسطرابون الكتاب الاول

علوم العصر

الطب

فاذا اخذت الطبَّ مثلاً رايت هوميروس ألمَّ بجميع علومه من جراحة وتشريح وفسيولوجيا وبحث في النبات والعقاقير والصيدلة والعلاج ووصف الامراض والاوبئة

الفلك

واذا طلبت الفلك وعلم الهيئة ذكر لك كما بلغه منهما علم زمانه فوصف السماء والابراج وتطرق الى التنجيم فبحث في تأثير طوالع النجوم . وذكر الظواهر الجوّية وفعلها في الاحياء

الحرب

واذا تطلعت الى الحرب والفنون والعسكرية افاض لك بتفصيلها افاضةً تُدهش لما فصَّل لك مواقف الجيوش وحركاتها بهجومها ودفاعها و زحفها وتعبئتها . وابان لك اسباب الظفر ووجوه الاندحار . ووصف اركان الحرب والتمرين العسكري والحرس والكمين والمبارزات . وبحث في الاسرى والاسلاب والبدل العسكري والتتريس والجواسيس وديوان القضاء في المعسكر والعيون والارصاد والطلائع . وبيَّن احوال الحصار واقامة الحصون وحفر الخنادق . ولم يغفل عن ذكر الخيم والمضارب وارزاق الجند واطماعه . ولم يغادر شاردة الا قيدها حتى الراية والنيران والرقص الحربي والالعاب العسكرية

ثم فصَّل لك انواع القتال واصناف الاسلحة والدروع فوصف الشكَّة والخوَذ والمغافر والتروس والرماح والسيوف حتى الفؤوس والمخاذف والحجارة

السياسة والحكومة

واذا تطرقت الى السياسة بحث لك في الحكومة والملوك وسلطتهم وما يعرض

لهم وعليهم . وموقفهم تجاه الرعية وبالعكس . وحذّر من الفوضى . وذكر خدَع السياسيين وحيَلهم . واشار الى الشرائع والمجالس والخراج والاقطاعات . واحاط باحوال الوفود والسفراء والتحالف والتعاهد والخطابة في الرعية

الدين

واذا رغبت في الوقوف على دين القوم اسهب لك بذكر معبوداتهم ونسبتهم الى العباد ونسبة الخالق اليهم . ووصفهم فردًا فردًا بين ذكرٍ وانثى واوضح صفة كلٍّ منهم بنفسه وبالنسبة الى زملائه وهيأ لك مزاياهم كبارًا وصغارًا . وقسمهم الى طبقات ودرجات مع بيان منزلة كل طبقة على حدة . واتى على ذكر العبادات والصلوات والضحايا والادعية . ووصف الروح ومصيرها وبحث في عالم الارواح وسائر ما يتطلع اليه الراغب في الوقوف على احوال العبادة في ذلك الزمان

الفنون وسائر الاعمال

وقل مثل ذلك في الفنون الجميلة من نقشٍ وغناء وموسيقى وتصوير وكل منقول ومعقول من معارف الانسان واعماله كالحراثة والزراعة والتجارة والمعاملات حتى العرافة والعيافة والكهانة وتفسير الاحلام

الالياذة والصنائع

وكأن هوميروس عني عناية خاصة بصناعات زمانه فاسهب بوصف الكثير منها اسهابًا تخال اذا قرأته انه كان ينتمي الى كل فريقٍ من الصنّاع

فبينا تراه وشّار سفن اذا به صانع مركبات وبينا هو نجّار حاذق اذا به بنّاء ماهر ومهندس . ثم تخاله صيقلاً وحدّادًا وحفّارًا ونقّاشًا وخرّاطًا وصبّاغًا وصائغًا . وليس هو باعمال النساء اقل الماماً منها باشغال الرجال وحسبك من هذا تطريزه وغزله ونسجه وحياكته

سبب حياتها وخلودها

لم يكن هوميروس اول من نظم الملاحم او منظومات الشعر القصصي ولا مبتدعًا لطرق انشادها واساليب ترصيعها بشواهد العلم والتاريخ . فتلك سليقةٌ الِفتها امّته واكثر الامم في غوامض ايام البداوة والجاهلية . وقد حسبوا لمن تقدم من شعراء اليونان سبعين منظومة كملحمتيه منهما الياذتان الكبرى والصغرى واوذيسية واحدة وقد بادت جميع تلك المنظومات ولم يقوَ على مكافحة الزمان سوى تينك المنظومتين فقد بقيتا كلؤلؤتين برّاقتين في قلادة الادب وكسفتا باشعتهما سائر ما بقي من نظائرها وخلّدتا لليونان مجدًا لا يمحوه تقادم العصور وكرور الدهور

ولم يشع شيوعهما بين البشر شيء من المنظوم والمنثور الا كتب الدين ولا تزالان كما كانتا منذ ثلاثة آلاف عام في المقام الاول بين نتاج القرائح

وليس ما تقدّم من ابداعهما خلاصة العلم والسياسة وتوابعهما من اسباب ذلك البقاء في شيء فان طلاّب العلم ولا سيما في العصور الغابرة فئةٌ ضعيفة تطلب العلمَ من ابوابٍ اخرى تتلقنها من كتبٍ وضعت لها . والعلم كل يوم في شأن يتقلب ويتغير وينحط ويرتقي فما صلح منه في الامس لا يصلح في الغد وما كان منه في اليوم صوابًا ساطعًا اصبح بعده خطأً فادحًا . فلا بد من ان تكون ثمّة اسبابٌ ثابتة مغرسها في النفس ومنبتها في القلب لا تتغير بتغير زمان ولا تتأثر بترقٍ وحضارةٍ

فان هوميروس انما نقر على اوتار الافئدة فأثارها . ونفخ في بوق الارواح فاطارها . ومزج الحقيقة بالخيال مزجًا يخيل لك انهما تآلفا فتحالفا . وسبر اعماق النفس في سذاجتها . وتحرّى الفطرة في بساطتها . وهاج العواطف والشعائر وتكلم بجلاء لا تشوبه مسحة التكلف فأسهب موضع الاسهاب واوجز موضع الايجاز ومثّل تمثيلاً ناطقًا وفصّل تفصيلاً صادقًا عن عقيدةٍ واخلاص

واذا اضفنا الى ذلك بلاغة الشعر وتناسق النظم ودقة السبك ورقة المعنى والسهولة والانسجام ذهبت عنك غرابة ذلك الخلود

قال غيزو [1] « وان ما يرى في شعر هوميروس من مزج الخير بالشر والضعف بالقوة . واتحاد الافكار والمشاعر بمظاهر مختلفة . وتنويع الافكار والاقوال وبسط احوال الطبيعة والاقدار على انماط متباينة كل ذلك يبث الاميال الشعرية بما لا يماثله مثيل لان فيه اسَّ كل اساس وحقيقة الانسان والعالم » — وعندي ان من اقوى عوامل البقاء في الالياذة والاوذيسية مع استجماع ما تقدم من الاسباب ان بذورهما وقعت من كفّ صالحة على ارض صالحة اذ نظمتا بلغة سهلة في عصرها فلم يكن يغلق فهم شيء من معانيهما على اقل الناس علماً فشغف بهما القوم وتناولوهما وتناقلوهما وحرصوا على ادخارهما لانهما مستودع الجمال والمرء حريص على استبقاء كل جميل

انتشارها ونقلها من اليونانية الى سائر اللغات

اللاتينية

كان انتشار الالياذة بين اليونان كانتشار نور الشمس عند بزوغها فما كان يبرق منها بارق من فم الشاعر حتى يتهافت عليه كل رفيع ووضيع . ثم ما لبث ان تطرق هذا التهافت الى الرومان فنقلوها الى لغتهم وترنموا بانشادها وشد شعراؤهم على التقاط دررها وتحدي معانيها حتى اقاموا على تلك المعاني دعائم منظوماتهم الكبرى وفي مقدمتهم ڤرجيليوس كبير شعراء اللاتين

الهندية والفارسية

وقد روى اليانوس المؤرخ [2] ان الهنود نقلوها الى لغتهم وان ملوك الفرس كانوا يتغنون بها بالفارسية . ولعل الفردوسي استمد منها كثيراً من معاني الشهنامة واتخذ الالياذة مثالاً لمنظومته الغراء

---

(1) Guizot, Cours d'Histoire moderne, 7me Vol. I p. 285.

(2) Aelian, I. 12 Cap. 48.

السريانية

ولم تكن سائر الامم اقل شغفًا بها فعلق بها السريان كغيرهم ونقلها ثاوفيلس الرهاوي الى لغته شعرًا (انظر ص: ٢٦٥)

لغات الافرنج

ولا تسل عما كان من علوق الافرنج بها فقد نقلت مرارًا شعرًا ونثرًا الى كل لغة من لغاتهم حتى صارت اشهر كتاب عندهم جميعًا وطبعت كل ترجمة منها مرارًا عديدة

واشهرها ترجمة چيزارُتي [1] ومُنْتي [2] الى الايطالية . ومُنبيل [3] الى الفرنسوية . وفُوس [4] الى الالمانية وپوپ وچاپمن وكوپر [5] الى الانكليزية . واصدق هؤلاء النقلة منتي وهو وپوپ ابلغهم شعرًا

اغفال العرب نقلها الى لغتهم

كان العرب من احرص الملل على علوم الادب واحفظهم للشعر واشغفهم بالنظم ومع هذا فلقد يأخذك العجب لبقاء الالياذة محجوبةً عنهم وهي منتشرة هذا الانتشار بين قبائل الارض ومنظومة بلغة ساميّة كلغتهم يتناشدها الادباء المقيمون بين ظهرانيهم في مقر الخلافة العباسية

وان لذلك اسبابًا اذا تبيّناها زال العجب لاغفالها في ما سلف مع وضوح الحاجة الماسّة الى تعريبها في هذا العصر . وان مرجع تلك الاسباب الى ثلاثة : الدين واغلاق فهم اليونانية على العرب وعجز النقلة عن نظم الشعر العربي

---

(1) Cesarotti.
(2) Monti.
(3) Monbel.
(4) Voss.
(5) Pope, Chapman, William Cowper.

الالياذة والنصرانية

اشرنا فيما مرّ الى اقبال أُمم اوروبا على الشعر الوميري وقلنا (ص : ٢٤) لم يتخلل اقبالهنّ فتورٌ الا عقود اعوامٍ معدودات في بَدء النصرانية . فاذا خذل المسيحيون هوميروس وهو معروف عندهم ونبذوا شعرهُ وهو متلوٌّ في مجالسهم فما احرى المسلمين في اوائل الاسلام ان يطّرحوه ولا اثر له في اذهانهم ويعرضوا عن اقواله وهم لا يعرفون منها شيئاً

كان هوميروس في ذروة مجده في الممالك الرومانية عند انتشار الدين المسيحي فكان لا بد من تقويض اركان الوثنية وهي ممثّلة اصدق تمثيل في الشعر الوميري فبات اغفال ذلك الشعر ضربة لازب لحداثة عهد المسيحيين بدينهم ولزوم اخذهم به مورداً صافياً لا تشوبهُ اساطير السلف من عبدة الاوثان. ولكن بعض الدُعاة غالَوا في اتخاذ الطرق المؤدّية الى تلك الغاية فاتّهموا هوميروس بابتداع البدع وتحريف آي التوراة ليصوغ منها ما وافق مذاهب قومه من القصص المستنبطة منها كعصيان الطيطان وطردهم من الجنة وتلبّس فرسيُس بصورة موسى في أَول امره . ومماثلة بليروفون ليوسف الصدّيق . وامثال ذلك مما اشرنا اليه في الشرح . ولهذا كانوا ينادون بتحريمها خشيةً من ان تفسد عقيدة الناشـئة المتنصرة . وكان من لوازم قولهم ان هوميروس لم يكن الناقل لخرافات الاولين بل الواضع لها المنادي بها

تلك كانت الحال بين عامّة المسيحيين . واما علماؤهم كالقديس ايرونيمس (1) فما زالوا مكبّين على تلاوة اشعار هوميروس معجبين ببلاغتها وسموّ معانيها

وما رسخت قدم النصرانية في البلاد حتى افرجوا عن هوميروس والياذته وسائر منظوماته فانطلقت تلك الخرائد من عقالها وبرزت بحللٍ قشيبة فعادت الى اختلاب الالباب في مجالس الآداب

(1) Saint Augustin, Confess. l. I. cap. 140.

الالياذة والاسلام

وانّ ما قيل عن النصرانية في نشوءها يصدق على الاسلام في قرونه الاولى اذ لا ريب ان ائمة الامةّ لو فرضنا وتوفهم ذلك الحين على تحنويات الالياذة لمـا ارتاحوا الى بثها بين العامة لئلا تكون من مفسدات الايمان

وزد على ذلك ان العرب لم يكادوا يخرجون من مهامه البداوة حتى ملكوا الامصار وانتشروا في سائر الاقطار واسسوا الممالك الكبار · وما استقر الملك للامويين في الشام حتى بدت لهم الحاجة الى استخراج كتب العلم · وما توطدت دعائم الدولة العباسية في العراق حتى نظّم الخلفاء مجالس النقلة لتعريب علوم المتقدمين من الفرس والهنود واليونان · فلاح لهم انهم احوج الى العلوم منها الى الشعر والادب وكانت حاجتهم الكبرى الى علم الطب ثم الى علم الكلام للمناضلة عن الدين فعمدوا الى تعريب طب ابقراط وجالينوس وفلسفة ارسطوطاليس ونظائرها واغفلوا الالياذة وجميع ما يجري مجراها من كتب الشعر والادب

ثم انه ليس في لغات الارض لغةٌ يربو شعرها على الشعر العربي ويزيد شعراؤُها عدداً على شعراء العرب وهم جميعاً مخلصو الاعتقاد في شعرهم وَرِعِين في تعبُّده فلا يخالون في الامكان وجود شعرٍ أعجمي يجاري قصائدهم بلاغةً وانسجاماً ودقةً واحكاماً

فهذا ايضاً كان من دواعي تقاعدهم عن الاقبال على شعر الاعاجم اكتفاء بما لديهم من درر ذلك البحر الزاخر

على اني اعتقد انه لو طال زمن عظمة الدولة العباسية او لو تأخر زمن تبوُّء المأمون اريكة الخلافة جيلين لكانت بعض مقاطيع الالياذة تُتلى الآن في اندية الادب · ولا يطعن بهذا القول قيام دولة الاندلس بعد حين واشتغالها في الادب فان الامويين الاندلسيين تفننوا بآداب العرب ورقوا درجاتٍ في مرقاة الشعر ولكنهم لم يضاهوا العباسيين في بغداد بشيء من اقبالهم على النقاط فلسفة

الاعاجم وتعريب كتبهم

وبعد هاتين الدولتين لم تقم للعرب دولةٌ حريصة ٭نظيرها على اختزان العلوم من مخابئها وادخار الاداب من مناشئها . فان كلاً من دولة الفاطميين بمصر ودول المغرب كانت منصرفة الى مشاغل اخرى فضلاً عن قلة النقلة في ازمانها من المتضلعين في لغات الاعاجم فوق لغتهم

نقلة العرب

وهناك ايضاً حاجزان طبيعيان وقفا عقبةً صماء في وجه تعريب الالياذة شعرًا في القرون الاولى ولعلهما لايقلاّن شأناً عن حواجز الدين او يزيدان وهما

اولاً ان معرّبي الخلفاء كابن الحمصي وابن حُنَين وآل بختيشوع لم يكونوا عربًا وان تفقهوا بالعربية على اساتذتها فلم يكن يسهل عليهم نظم الشعر العربي وهم انما كانوا بنظر العرب علماء اكثر منهم ادباء وان كانوا حريصين على اداب لغاتهم حتى حلّوا جيد السريانية بقلادة الالياذة منظومةً شعرًا كانوا يترنمون به في مجالسهم . ولا يشذ عن هذه القاعدة الا قليلون معظمهم من الفرس الذين تفرغوا لاداب العرب فبرّزوا فيها كابن المقنع وهؤلاء ايضاً لم يكونوا في عداد الشعراء

وثانياً ان شعراء العرب انفسهم لم يكونوا يحسنون فهم اليونانية فلم يكن فيهم من يصلح لتلك المهمَّة

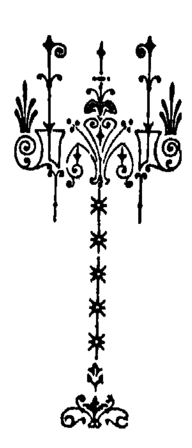
وان قيل ان عجز النقلة عن الاجادة في نظم الشعر العربي لم يكن مانعاً من تعريب الالياذة نثرًا كما عُرِبَتْ شهنامة الفردوسي قلنا ان الارتباط بين الفرس والعرب كان اكثر منه بين العرب واليونان وشتان بين ناظم الالياذة وناظم الشهنامة . فذلك من عبدة الاصنام وهذا من ادباء الاسلام . ومع ذلك فلم يقم بين العرب من تجرد لتعريب الشهنامة الا بقيام ملك يحسن فهم العربية والفارسية طرب بتلاوة الاصل فأراد ان يطرب امتهُ بتلاوة التعريب فوسّع بالرزق على

رجل توسَّم فيه الكفاءة وهيهات ان يتيسر ذلك في غير تلك الحال [1]

ثم انه لايخفى ان الشعر اذا تُرجم نثرًا ذهب رونقه وبُهت رواؤه . والظاهر ان هذا الحكم انطبق على تعريب الشهنامة فأهملها الناس والا فما ذهبت ضياعًا وبقيت اثرًا بعد عين نقرأ عنها في كتب التاريخ وليس في الادباء من روى لنا منها حديثًا مذكورًا

وخلاصة القول انه مهما يكن من الحوائل التي كانت تصد الادباء عن نقل الالياذة وتحول دون ابرازها للعامة فما بقي لتلك الحوائل اثرٌ في زمننا بل صار من لوازم العصر إلباسُها حلَّةً عربيـةً تجاري بها لغتنا لغات ابناء الحضارة وخصوصًا انَّ ما فيها من اساطير دين الوثنية قد باد اثرهُ فصار من المحتوم ان يبقى خبرهُ عبرةً للمعتبر

(١) نقل شهنامة الفردوسي الى العربية الفتح بن علي البغدادي الاصبهاني نثرًا للملك المعظم عيسى بن العادل ابي بكر الايوبي واتم ترجمتها سنة ٦٧٩ (كشف الظنون)



التعريب

حكاية المعرّب في تعريب الالياذة

سألني الجمّ الغفير من اصدقائي الادباء كيف عرَّبتُ الالياذة وما حداني الى تعريبها فكتبت الفصل الآتي ولعله لا يخلو من فائدة لمن قُضي عليه ان يسير في مثل هذه العقَبة

كلفت منذ الصغر بمطالعة الشعر القصصي ولا سيما ما تعلق منه بالخياليّات وعبادات الاقدمين . ولما كانت لغتنا تكاد تكون خلوًّا من ذلك الشعر وفروض الدروس تستنزف الوقت ولا تبقي معها بقية لقراءة ما شذّ من مثل ذلك عن معيناتها فتحول دون استقاء المياه من مواردها كنت التقط ما سقط عرضًا من افواه الاساتذة او ورد شاهدًا في كتب التدريس . فاجتمعت لديّ نبَذ ضمّنتها بعض قصائد لفّقتها ولم أُتمّ العقد الثاني من اعوام الحياة . ولا يطالبنّي المطالع اللبيب بامثلةٍ من تلك القصائد فحسبي هزء نفسي بي دون هزئه اذ لا اتمالك من الضحك كلما خطر على البال شيء مما علق في الذاكرة . فهنالك يمٌّ مخبطٌ اختلطت فيه آلهة الكلدان بآلهة اليونان والرومان وأُنزلت معبودات مصر موضع معبودات الهند والصين واشتبه الذكور بالاناث والتبست الاعلام الافرنجية بالاسماء اليونانية على نحو ما دوّن الكتبة في كثيرٍ من اخبارهم عن ام القرون الخالية . وهذا ولا بدع بشأن كل كاتب تطاول الى فنّ دخله من غير ابوابه

فلما حكمت نفسي واصبحت متصرفًا مطلقًا في استعمال اوقات العطلة ادركت انني لم اعرف شيئًا مع سابق الظن بسعة الاطلاع فانتهيت الى حيث كان يجب ان ابتدىء . فعمدت الى تلك المنظومات ولم اكن بعد قرأت شيئًا منها قراءةً صحيحة ما خلا « الفردوس الغابر » لملتُن وقرأت جميع ما وصلت اليه كلّ كتابٍ بلغته اذا كنت من قرائها والا فبترجمته الى لغةٍ اعرفها

وكنت كلما قرأت منظومةً من المنظومات القديمة والحديثة زاد اعجابي بالالياذة لانها وان كانت اقدمهنّ عهداً فهي لا تزال احدثهن رونقاً وابهرهنّ رواءً واكثرهن جلاءً واوسعهن مجالاً وابلغهنّ جميعاً . نسج صفوة الشعراء على منوالها فلم يبلغوا شأوها واستقوا من بحرها فملأوا بحارهم ولم ينقصوها شيئاً

فقلت ما احرى لغتنا العربية ان تحرز مثالاً من هذه الدرة اليتيمة فهي اولى بها ممن تناولها من ملل الحضارة . فليس في شعر الافرنج ولغاتهم ما يوفّر لها اسباب البروز بحلةٍ اجمل مما تهيئه معدّات لغتنا . فالشعر اليوناني بلغةٍ قريبةٍ الى الفطرة كلغتنا والبحث في جاهلية قوم كجاهليتنا . وليس في شعراء ملّةٍ من الملل من انطبقت معانيهم على معاني الالياذة بالحكمة والوصف الشعري كالمتقدمين من شعرائنا

فناجتني النفس بتعريبها مع علمي بخطورة الموقف ووعورة المسلك وطول الشقة وقلت تلك ملهاة نقضي بها اوقات الفراغ . فاذا فتح الله وفسح في الاجل زففتها الى القراء . والا فلا اقلّ من ان اروّض نفسي بها وهي خير ما تروّض به النفوس . وعزمت منذ نظمت اول بيت منها على ان لا اغادرها حتى آتي على آخرها

تعريب الأصل

فخططت لنفسي خطةً وقلت لانظمنّ منها امثلةً من حيث اتفق لي واعرضها على الادباء فاتنسم ما يكون من وقعها في النفوس واتبين مواطن الخلل فخيرٌ لي ان اتبينها قبل التوغل في العمل . فتوكلت على الله وعمدت الى ترجمةٍ فرنسية منها كانت بين يديّ والقيتها الى جانب ترجمة انكليزية واخرى ايطالية وفتحت الكتاب الفرنسي من ثلثهِ الاول فاذا باخيل واغاممنون يتخاصمان واخيل ينهال علي اغاممنون بالسباب والشتيمة فنظمت الابيات التي مطلعها :

يا مليكاً بنشوة الراح مُثقَلْ . . . (ص ٢٢٣) فعربتها على الطريقة المألوفة في النظم وكانت اول ما نظمت من الالياذة . وذلك في اخريات سنة ١٨٨٧ بمصر القاهرة . ثم فتحت الكتاب من ثلثه الثاني فاذا بي في معتركٍ عنيف في اول النشيد الخامس عشر فنظمت القصيدة التي مطلعها :

تجاوزتِ الطرواد حدَّ الخنادقِ يصلّمهم فيها حسام الاغارقِ

فكانت قصيدةً طويلة توثّقت بها من اتساع اللغة للمعاني والقوافي ونهجت فيها نهجاً جديداً مما كنت اعددته في ذهني وستراه منصلاً في باب « النظم في التعريب »

ثم فتحت الكتاب من ثلثه الاخير فاذا بي في الصفحة الثالثة من النشيد الثالث والعشرين فرجعت الى اوله ونظمت منه نحو مئة بيت رجزاً مصرّعاً ومقفّى على أسلوبٍ استحسنته وحسبته وافياً برامي لتعريب كل النشيد على سياقه

فحملت جميع ما تجمّع لديّ من القصائد الثلاث بمسوّداتها وجعلت اعرضها على من زارني وزرته من الادباء والشعراء ممن أَلِف الشعر العصري ومن نشأ على انتهاج الشعر القديم فاستحسنوا وجاملوا فزدتُ بمجاملتهم نشاطاً . وانست من بعضهم ريبةً وخشية عليّ من الملل والقنوط لوفرة ما يتبع هذا العمل الشاق من العناء الفادح وكثرة ما يستلزم من النفقات لو مُثّل بالطبع وليس قرّاء العربية وطلاّب امثال هذا الكتاب ممن ينشّط على المجازفة بمثل تلك النفقات وشق النفس وضياع الاوقات : — على ان ذلك كان اقل ما تجزع له نفسي اذ اقدمت وليس بي جشع للربح من وراء هذا العمل بل انا راضٍ بالخسارة لو حصلت ليس ذلك ترفعاً عن الكسب ولكن لغرامٍ في النفس تستسهل الصعب في سبيله.

فقلت لقد حان اذاً اوان الشروع فرجعت الى اول نشيد واخذت في النقل تباعاً حتى اكملته ونظمت نصف النشيد الثاني . وكنت اثناء النظم اقابل الترجمات بعضاً ببعض فاری فرقاً يصعب عليّ معه تبيُّن الرجحان لنسخة دون اخرى . فاوقفت النظم وقلت لا بد اذاً من الرجوع الى الاصل اليوناني اذ لا يصلح النقل من غير اصله

وكانت معرفتي باليونانية قاصرةً اذ ذاك لا تكاد تتجاوز القراءة البسيطة وبعض اصولٍ ومفردات لا تشفي غليلاً . فاخذت ابحث عن استاذ يروي غلّتي فأرشدت الى عالمٍ من الآباء اليسوعيين وأُبلغت انه متضلعٌ باليونانية

تضلّعه بالفرنسية · وكنت اعلم ان الآباء اليسوعيين لا يسعهم التفرغ لالقاء دروس خاصة خارج مدارسهم فكان لا بد اذًا من رضاء الاستاذ واذن الرئيس فوفقني الله الى الحصول على الامرين فشكرت لهما هذه المنة وجعل استاذي يلقنني اصول اللغة و يفسر لي فصولاً من الالياذة وانا مُكبّ على الدرس متفرغ للاستفادة · وبعد ان قضيت معه اشهرًا وعلمت منه انه يسعني ان استتم الدرس وحدي وان اتناول تعريب الالياذة من اصلها مع الاستعانة بكتب اللغة وتفاسيرها فارقته شاكرًا ولبثت مدةً اجهد النفس بالمطالعة ثم استأنفت التعريب

وكان بنفسي شيءٌ مما عرّبته من النشيد الاول والثاني فرجعت الى امعان النظر فيه ومقابلته على اصله فرأيت خللاً الجأني الى التنقيح والتصحيح فكنت لا احجم عن تغيير البيت والبيتين وربما اعدت نظم مقاطيع برمتها · ولم يقع لي شيءٌ من هذه الاعادة في سائر الاناشيد الا ان يكون في استبدال فقرةٍ او شطر بغيرها او تغيير قافية بأخرى مما يقع لكل ناظم · وفي ما سوى ذلك كنت اجهد النفس باحكام البيت على قدر الاستطاعة قبل كتابته

ولم اكد استقر في مصر حتى حدا بي حادي الاسفار التي الفتها منذ الصبا فبرحت القاهرة سنة ١٨٨٨ وفي النفس شغفٌ بها وحنينٌ اليها · فانتهى بي التطواف الى العراق بعد ان طرقت الهند واطراف العجم فأقمت فيها زهاء سنتين اضطررت الى طي الالياذة في معظمها ولم يتسنَّ لي العود اليها الا بضعة اسابيع · على اني لم اجتمع بأديب منها الا عرضت عليه شيئًا من منظومها وادباء العراق مولعون بسماع الشعر

ثم شخصت الى الاستانة واتخذتها مقامًا طيبًا لبثت فيه سبع سنوات كنت كثير التنقل في اثنائها بين الشرق والغرب فيومٌ بسوريا وسنة باوروبا وامركا والمرجع الى الاستانة · وكانت الالياذة رفيقي حيثما توجهت اختلس الاوقات خلسةً فلا تفرغ اليد من عمل الا عدت اليها · ولطالما مرت الاسابيع والاشهر وهي طي الجراب ثم هببت بها من رقدتها وعاودت العمل وكثيرًا ما حصل

ذلك في رؤوس الجبال وعلى متون البواخر وقطارات سكك الحديد فهي بهذا المعنى وليدة اربع اقطار العالم

وكنت حيث حللت اتوخى الاستفادة من اهل ذلك المحل ولا سيما في الاستانة حيث هيأ لي حسن التوفيق ان اتصلت ببعض ادباء اليونان عشّاق هوميروس والياذته كاستافريذس ترجمان السفارة الانكليزية وكاروليذس احد اساتذة كلية خلكي اليونانية بالاستانة وبعضهم من قراء العربية فكنت اشاورهم في بعض ما التبس وأُغلق وهم لا يضنّون واقرأ لهم اجزاء من المنظوم العربي فتهزهم هزة الطرب مستبشرين بتعريب اعظم منظومة لاعظم شعرائهم

وهكذا ظللت بين وقوف ومسير الى اول صيف سنة ١٨٩٥ فخرجت بعائلتي الى مصيف فنار باغجه في ضواحي الاستانة وظللت فيها اربعة اشهر فرغت في نهايتها من عناء التعريب

كتابة الشرح

على انني منذ شروعي في النظم كنت اطمح الى ما وراء ذلك اذ لو عرضت الالياذة على قراء العربية عاريةً من الشروح لما خالوها الا هيكلاً شعرياً لا تربو فائدته على شيء مما بين ايديهم من الدواوين وما اكثرها في لغتنا

فرأيت ان اعلق عليها شرحاً انتهج فيه اسلوباً جديداً لم ينتجعه احد من الشرّاح بغية ان يأنس القارىء العربي بالرجوع في نظره الى اخلاق امته في جاهليتها وبعض حضارتها والمشهور من اساطيرها وعباداتها والمأثور من آدابها وعاداتها ومناهج شعرائها وادبائها ومواقف ملوكها وامرائها وساستها وزعمائها والاعجاب باتساع لغته في الوضع لكل معنى من المعاني الفطرية مع عجزها في الحال عن تأدية بعض الاوضاع العصرية وجميع ما يتناول وصف حالة العرب ولغتهم وحالتهم الاجتماعية . كل ذلك بالمقارنة والمقابلة مع ما كان من نظيره في الامم الغابرة ولا سيما في امم اليونان . ويرتاح المطالع الافرنجي من قراء لغتنا الى الولوج في باب لا اظن احداً ولجه من قبل فيبحث وينقب ويسترشد فيرشد على ما جرى عليه

في سائر الشؤون ونحن عن معظم ذلك غافلون

ولهذا لم يكن لي بدٌّ من مطالعة الاسفار الطوال والمجلدات الضخمة من كتب العرب والاعاجم في الادب والشعر والتاريخ . واذا القيت نظرك على باب الشواهد في المعجم في ذيل الكتاب ورأيت انني اضطررت الى الاستشهاد بمئتي شاعر عربي بين جاهلي ومخضرم ومولَّد فضلاً عما نقلته من شعر الاعاجم عذرتني على ما اضعت من الوقت في شرح الكتاب اذ ربما قرأت ديوان الشاعر كله طمعاً ببيت واحد: — ولو جمعت الزمن الذي صرفته في النظم لما زاد عن نصف مثله مما صرفته في تدوين الشرح

وفي اوليات سنة ١٨٩٦ دعاني داعٍ حثيث الى القاهرة والنفس تشتاقها فانتهزتها فرصةً وانتقلت بعائلتي اليها ولكن اموراً هامَّة حالت دون تمثيل الكتاب بالطبع اخصها اشتغالي بعمل شاقٍّ آخر هو « دائرة المعارف » . ولكنني كنت اختلس اوبقاتٍ يسيرة ارتّب الشرح في اثنائها حتى انتهيت منه عام ١٩٠٢ فباشرت الطبع

ولست بمعتذرٍ لابناء وطني عن انقضاء كل هذا الزمن قبل انجاز العمل الاخير فقد أَلفنا التأني والمطل وان الواحد منا ليشرع في طبع مئتي صفحة فتمر الاعوام ولا يتمُّها . على ان ابن الغرب تعتريه الدهشة لمثل هذا التراخي وهو في بلاده لايكاد يسمع بتأليف كتاب حتى يراهُ مطبوعاً تتداوله الايدي . فلمثل هذا اللائم اقول ان الحالة عندنا على خلاف ما تعهد فليس في بلادنا شركات تأخذ على نفسها طبع الكتب على نفقتها فتعد المال والرجال . بل لابد عندنا وان توفرت النفقات ان يتولى المؤلف في مثل هذه الاحوال طبع كتابه بنفسه . وان استعان بصديق او غيره على مراجعة مسودَّة فلا يغنيه ذلك عن ان يكون هو المصحّح المنقح . واذا زدت على هذا ان دواعي صحة الجسم تلجئني كل سنة الى ايقاف العمل بضعة اشهر اذ اضطرُّ ان ابرح مصر الى لبنان اوغيرها من بلاد الله اتّضح اني اسرعت في طبع الالياذة مع ابطائي في إعدادها

المعجم والمقدمة

وفي منصرم ربيع السنة الماضية (١٩٠٣) كان الفراغ من طبع الالياذة وشرحها فحملت الكتاب معي الى لبنان حيث قضيت الصيف وانتهزت فرصة الفراغ والراحة لكتابة المعجم . وحالما وصلت القاهرة في آخر الصيف اخذت في انشاء هذا الفصل وسائر فصول المقدمة :— وهكذا فقد كان الفراغ من هذا الكتاب حيث كان الشروع فيه اي في قاهرة مصر . واراني كما اسلفت لك لم اذخر وسعاً في تحبير تعريبه وتنميقه ولم آل جهداً في تطبيق شرحه وتنسيقه فان احسنت وفيه منتهى جهدي فذلك من حسنات الاجتهاد والا فحسبي ان افتحه باباً يلجه من وفقه الله الى سبيل السداد

اصول التعريب

لقد جرى الكثيرون من نقلة لغات الافرنج الى العربية على اصول ابتدعوها لانفسهم فشطُّوا باكثرها عن منهج الصواب . فاجروا قلمهم بل هو جرى بهم مُطلق العنان يحبِّر ما يريد دون ما اراد الواضع . فمن متصرفٍ بالمعنى يزيد وينقص على هواه فيفسد النقل ويضيع الاصل . ومن متسرّعٍ يضنُّ بدقائق من وقته للتثبت من مراد المؤلف فيلتبس عليه فهم العبارة فينقلها على ما تصورت له لاول وهلة فتنعكس عليه المعاني على كرهٍ منه . ومن ماسخٍ يلبس الترجمة ثوباً يرتضيه لنفسه فينقلب بالمعاني على ما يطابق بغيته ويوافق خطته حتى لا يبقى للاصل اثراً . ومن عاجزٍ يجهد النفس ما استطاع وهو وان اجهدها ما شاء غير كفوء لخوض هذا العباب

ثم يقوم هؤلاء الكتّاب ويسمّون ما كتبوا تعريباً واولى بهم ان يسمّوه تضميناً او اختصاراً او معارضةً او مسخاً

ولكنهم جميعاً اولى بالعذر والعفو من فئة اخرى يأتي الواحد منها على الكتاب فينقله كله او بعضه ثم يعرضه على الناس تأليفاً من نتاج قريحته . وهؤلاء هم

السرّقة الدجّالون

على ان لدينا والحمد لله رهطاً من ذوي الذمة والعلم يتوخّون الصدق ويتحرّون الضبط والاحكام ويجيدون الرسم فيأتي مثالاً صادقاً . فاذا نقلوا قالوا نقلنا واذا تصرفوا قالوا لغرضٍ تصرفنا وان خمّنوا قالوا لامرٍ خمّنّا وان عارضوا قالوا لسببٍ عارضنا فهؤلاء اذا صحت كفاءتهم هم الذين يجب ان يصدق خبرهم ويقتفى اثرهم

معرّبو العرب

واذا رجعنا الى النَّقَلَة الاوائل رأينا ان زمرةً كبيرة منهم كانوا من هذا الفريق الاخير وهم على تفاوت اجادتهم في تأدية المراد ممن قصد الفائدة الحقّة وتوخى الصدق والدقة

وقد سلكوا في التعريب مسلكين نقلهما البهاء العاملي في الكشكول عن الصلاح الصفدي قال :

« وللترجمة في النقل طريقان احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة اخرى دائماً . وايضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . الطريق الثاني في التعريب طريق حنين ابن اسحق والجوهري وغيرهما وهو ان يأتي الجملة فيحصّل معناها في ذهنه ويعبّر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ ام خالفتها . وهذا الطريق اجود ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب الا في العلوم

الرياضية لانه لم يكن قيّمًا بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والالهي فان الذي عربه منها لم يحتج الى اصلاح »

وان هذين الطريقين اللذين اشار اليهما الصلاح الصفدي منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعوّل عليهما في النقل حتى يومنا وليس وراءهما مذهب ثالث في التعريب الصحيح . اما الطريقة الاولى فهي كما قال رديئة اذا أُريد بها استجماع محصل المعاني وهي ايضًا انها تذهب بطلاوة التركيب فلا تبقي لهما اثرًا ولا تصلح للكتب التي تتداولها الايدي من الخاصة والعامة ولا ترتاح اليها نفس مطالع . وقلما تجد قارئًا يقوى على استتمام صفحة منها . ولكنها مع هذا مفيدة لطالب اللفظ دون المعنى ولهذا جرى عليها بعض كتّاب الافرنج في بعض التآليف المراد بها تعليم اللغات وانتحوها في نقل كثير من كتب الادب والشعر كمنظومات هوميروس وفرجيليوس اذا أُريد بها افادة طلاّب اليونانية واللاتينية دون طلاب الالياذة والانياذة . ويشترط لصحة فائدتها امران اولهما ان يكتب الاصل بلغته ومردفًا في اللغة المنقول اليها . — والثاني ان يكون بازائها ترجمة اخرى على الطريقة الثانية التي هي طريقة حنين لاستجلاء المعنى والاّ اختلطت المعاني على المطالع وغاب عنه فهم قوة العبارة لان الجمل على الطريقة الاولى تأتي مختلة التركيب مقلوبة الوضع فما يجب تقديمه في لغة يجب تأخيره في اخرى وما يجب اثباته في الاصل يجب تقديره في النقل وهلمّ جرًّا . فلا طلاوة ولا احكام ولا اعراب ولا انسجام

اما الطريقة الثانية فهي التي عوّل عليها الجمهور لحصول الفائدة فيها من الوجه المطلوب وهو نقل المعاني ورسمها رسماً صحيحاً ينطبق على لغة النقل ومشرب قرّائها . فاذا قرأ المطالع فيها كتابًا معرّبًا فانما هو يقرأه عربيًا ولا يقراه أعجميًا كما يحصل في الطريقة الاولى ولهذا يصح ان يقال ان طريقتنا انما هي طريقة حنين بن اسحق والجوهري

مسلك المعرّب في تعريب الالياذة

علمت مما تقدم ان المعرّب تحرّى الصدق في النقل مع مراعاة قوام اللغة وعسى ان يكون ممن كُتب لهم التوفيق . واقول زيادةً للايضاح اني وطنت النفس على ان لا ازيد شيئًا على المعنى ولا انقص منه ولا اقدّم ولا أُؤخر الا في ما اقتضاه تركيب اللغة . فكنت اعمد الى الجملة سواء تناولت بيتًا او بيتين او اكثر او اقل واسبكها بقالب عربي اجلو رواءهُ على قدر الاستطاعة ولا انتقل الى ما بعدها حتى يخيَّل لي اني احكمتها

ولما كان الشعر العربي يختلف طولاً وقصرًا باختلاف اوزانه كان لا بد من حصول التفاوت في النسبة بين عدد ابيات الاصل وعددها في النقل . وليس في اليونانية شطرٌ وبيتٌ كالعربية فكل شطر منها بيتٌ تامٌ كالرجز في عرف بعض العروضيين اذ يعتبرون كل شطرٍ منه بيتًا كاملاً . ثم انه كثيرًا ما يحصل الترابط فيها بين بيتين واكثر بما لا يجوز اتيان نظيره في العربية . ولهذا لم يكن في دائرة الامكان ان يُنقل البيت اليوناني بيتًا او شطرًا عربيًا . اذ كلما كثرت اجزاء بحر الشعر العربي زاد اتساعه لاستيعاب المعاني فالطويل والبسيط مثلاً يستوعب البيت منهما ما لا يتسع له السريع والمنسرح . وهذان تامَّين يستوعبان ما لا يتسع له المجزوء من سائر الابحر . فبهذه النسبة يمكن اعتبار كل بيت من الطويل والبسيط بمثابة زهاء بيتين من الاصل اليوناني و يقرب منهما الكامل التامّ وكل بيتين من الخفيف والسريع والمنسرح والرجز والمتقارب والمتدارك والوافر والرمل واحذّ الكامل مقابل ثلاثة ابيات من اليونانية . فجاءت الابيات العربية بين العشرة والاحد عشر الف بيت نقلاً عن اصل عددهُ بين الستة عشر والسبعة عشر الف بيت

وكنت اثناء مطالعتي ترجمات الافرنج انكر امورًا كرهت ان ينكرها غيري عليَّ فاجتنبتها . مثال ذلك تصرف البعض منهم تصرفًا غريبًا فيبدلون معنى

بآخر ولفظة بغيرها ولهم في ذلك اعذارٌ تافهة اشرنا اليها في مواضعها · واغرب من هذا ما يقدمون عليه من الحذف والاضافة فقد رأيت في بعض المواضع ابياتاً كثيرة قضوا عليها بالحذف وابياتاً كثيرة حسّنت لهم انفسهم اضافتها حتى ان احدهم حاك من اربعة ابيات اربعة وثلاثين بيتاً ضمّنها معاني لم تخطر على بال هوميروس

المحافظة على الاصل

فكان معظم همي ان لا اجحف مثل هذا الاجحاف فلم اتصرف بشيء من المعاني وحافظت على الالفاظ ما امكن فان حذفت لفظة فهي اما من مكررات الاصل التي يحسن تكرارها في لغتها ولا يحسن في لغتنا واما من الالفاظ التي يمكن استخراجها من المعنى وقد يمكن ان تكون من الالقاب والكنى التي يستغنى عن ايرادها كل حين · وان زدت لفظة فهي اما مما يقتضيه سياق التعبير العربي واما قافية لا تزيد المعنى ولا تنقصه · وان قدمت او اخرت فكل ذلك في فسحة قصيرة يقتضيها السبك العربي وكان هذا اعظم قيدٍ قيدت به نفسي

اجتناب الوحشي والحوشي

ثم اني اجتنبت ما امكن حوشيّ الكلام ووحشيّه طمعاً بان لا تحقره الخاصة ولا يغلق فهمه على العامة · واذا اضطُررت الى اثبات كلمة لغوية فتلك اما لفظةٌ وضعية لا يمكن استبدالها بغيرها واما قافيةٌ لا يمكن العدول عنها واما تعبيرٌ ليس ما يفضله في الكلام المأنوس

الالفاظ التي لا مرادف لها في العربية

وليت هذا منتهى الاشكال في تعريب الالياذة فقد اعترضت لي الفاظ وتراكيب وصفية بعضها غير مألوف في العربية وبعضها لا يقابله مرادفٌ اصلاً فاضطررت الى انتقاء الفاظ يمكن اطلاقها على المعنى المراد ونبهت عليها · والى نهج اسلوب في التركيب الوصفي لا يختل معه نظام العربية ودونك امثلةً يسيرة من ذلك :

لآلهة اليونان طعامٌ وشرابٌ يعبَّر عنهما بلفظتين لا مرادف لهما في العربية فعبَّرت عن الشراب بالكوثر والسلسبيل كما اوضحت في الشرح (ص : ٩٣٥) وعبَّرت عن الطعام بالعنبر لان هذا لفظها باليونانية (Αμβροσια) وهو عندهم طعامٌ وطيب بآن واحد كما اوضحت (ص : ٧٤٧)

وعند القوم آلهة وشبه آلهة كثيرون لا شبيه لهم عند العرب فلم توضع لهم اسماء خاصة بهم . فحيثما اتيت على لفظة من مثل هذا رجعت الى معنى اللفظة اليونانية وعربتها بما رادف ذلك المعنى او قاربه فدعوت ربات الغناء ومنشدات الآلهة « القيان » والقينة في العربية الجارية المغنية . ودعوت ربات اللطف البهجات والخرائد فاللفظة الاولى اخذًا عن مفاد المعنى واللفظة الثانية تشبيهًا بالكلمة اليونانية التي تماثلها في اللفظ (Χαριτες) كما اوضحت في الشرح (ص : ٧٥٦)

واما الموصوفات العلوية الموضوعة لمعنى معيَّن فقد سميتها باسمائها التي تنطبق عليها في العربيــة فسميت الاهة الفتنة « فتنة » ورب الهول « هولاً » والاه الشقاق « شقاقاً » والساعات « ساعاتٍ » والصلوات « صلواتٍ » وهلمَّ جرًّا

التراكيب الوصفية

وفي الالياذة تراكيب وصفية ملازمة لكثيرٍ من اعلامها وقد يكثر تكرارها فيها الى حيث يُكره ذلك في العربيــة كوصف اخيل بخفة القدم ووصف هكطور بهز الخوذة والقول في نسـطور انه راعي الشعب وفي زفس انه ابو الآلهة والبشر . ففي مثل هذه الاحوال خففت التكرار وانتقيت الفاظًا حسبتها خفيفةً على المسمع العربي فقلت طيَّار الخطى وهيَّاج التريكة وما اشبه

تعريب الاعلام

ثم انهُ لم يكن بالامر السهل تعريب الاعلام بما لا يمجُّهُ الذوق العربي وخصوصًا اني اعلم ان قارىء امثال الالياذة لا بد ان يستثقل في اول الامر توالي

اعلام اعجمية لم يألف سمعه شيئًا منها . ولكنه اذا نفر من تلاوتها اولاً لا يلبث ان يألفها بعد تلاوة قصيدة او بعض قصيدة

وقد كانت لي هذه الاعلام في النشيد الاول عثرة في سبيل احكام النظم فكان لابد من وضع اصول اعتمد عليها في سائر الاناشيد وليس في كتب العرب ما يماثل هذه الاصول . وان في كتاب سيبويه بابًا للتعريب ولكنه اقتصر في في معظمه على تتبع بعض الالفاظ مما استعمله العرب من اعلام الاعاجم وغيرها والنظر في ما ألحق منها بالبناء العربي كبَهْرَج وَجَوْرب ودينار وديباج و يعقوب واسحق وما لم يلحق به كَكُرْكُم وخُرَّم وخُراسان

وجميع ما كتب الخفاجي في شفاء الغليل وابو حيّان في ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب والثعالبي في فقه اللغة والسيوطي في المزهر وغيرهم ممن طرق هذا الباب لايكاد يتعدّى الالفاظ الفارسية وقليلاً من غيرها وتحصله ايضًا انه لم يضع العرب قواعد مطّردة يمكن الرجوع اليها في مثل هذه الحال . واذا اردنا القياس على ما جاء في الكتب العربية من الاعلام اليونانية زادت المعضلة اشكالاً فان ايدي النساخ قد لعبت بها كل ملعب هذا فضلاً عن انهم لم يجروا بها على نمطٍ معلوم في زمن من الازمنة الا في احوال محصورة واسماء مشهورة . وزد على هذا ان اكثر اعلام الالياذة غير مذكور في كتب العرب . ولا ريب عندي ان المعربين والمؤرخين توخوا ما امكن حسن التطبيق في تعريب الاعلام ولكن عدم جريهم على خطة واحدة وسَنَنٍ معلوم ذهب بذلك الجهد ضياعًا فقالوا مثلاً ارسطاطاليس وارسطوطاليس وارسطاليس وارسطوليس و بتروه ايضًا فقالوا ارَسْطَ . وقالوا اسقليبيوس واسكولابيوس واسكابيب واسقولاب وامثال ذلك كثيرة في النثر فما بالك لو نظمت شعرًا

تلاعب النسّاخ

واما تحريف النساخ وتصحيفهم فما لا يدركه حصر فكثيرًا ما نقرأ فيلقوس

وفيلثوس وفيلنوس وقيلبوس وقنلتوس ويكون المراد فيلبُّس ابا الاسكندر . وتقرأ بودنطه وتبرنطه وبيريطه وبورنطا والمراد البيزنطية . وخذ اي كتاب شئت من كتب التاريخ من البيروني والمسعودي الى ابن الاثير وابن خلدون حتى المقريزي وانظر فيه الى الاعلام اليونانية فيشكل عليك ارجاعها الى اصلها

وكثيرًا ما ترى الاسم الواحد مكررًا في صفحات وهو في كل صفحة بهجاء تختلف عما قبله وما بعده فاذا فتحت القرماني طبع بغداد صفحة ٢٣٦ وقرأت انطيانوس ثم رأيت ابطيحش بالباء والحاء ص: ٣٦٩ فما ادراك ان المراد بهما انطيوخوس اذا لم تكن هناك قرينة ترشدك

ومن بلاء النسخ ايضًا تحويل الفكر من علَمٍ مشهور الى علَم مشهور فتضيع فائدة الرواية بجملتها كقولهم في يوليوس قيصر بولس او بولوس وابن بولس من يوليوس

ولا يصح ارجاع اللوم في خطأ النساخ الى المؤلفين والمؤرخين الا حيث اجتزأوا بالنقل من نسخ مصحفة والا فلا ريب ان القاضي الفاضل مثلاً لم يفسد شيئًا من الاسماء الافرنجية في ما كتب عن الصليبيين فلم يقل الاستبارية والاستناربة كما نقل ابن الاثير وابن خلدون بل قال الاسبتالية على لفظها الافرنجي (hospitaliers)

عودٌ الى تعريب الاعلام

بقي عليَّ ان اذكر الاصول التي جريت عليها في تعريب الاعلام :

جرت للافرنج عادةٌ في نقل كثير من الاعلام اليونانية عن الاصل اللاتيني دون اليوناني ولا سيما في اسماء المعبودات . فاذا ارادوا اثينا الاهة الحكمة قالوا مينرفا بلفظها اللاتيني واذا ارادوا فوسيذ او فوسيذون الاه البحار قالوا نبتون . والسبب في ذلك ان معبودات الرومان كانت تماثل معبودات اليونان من اوجهٍ شتى . ولها عند كلٍّ من الفريقين اسماء توافق روح لغته.

ومعانيها · واذ كان الافرنج اقرب عهداً بالرومان وقد تناولوا اسماء معبوداتهم عن اللاتينية على ما دوّنها ڤرجيليوس وغيره من الشعراء والكتّاب اطلقوا تلك الاسماء على الاعلام اليونانية ايضاً لماثلتها لها في المفاد · على ان كثيرين من محققيهم قد اخذوا يرجعون الى الاصل ويذكرون كل علمٍ باسم لغته

وهكذا فعلت في تعريب المعبودات فسميت كل معبودٍ باسمه اليوناني وان كان لبعضها ذكرٌ في كتب العرب · فقلت زفس ولم اقل زاويش كما قال ابو نواس ولا المشتري وان ورد بهذا اللفظ في كتب العرب · وقلت هرمس ولم اقل عطارد وقلت آرس ولم اقل المريخ كما قال العرب او بهرام كما قال العرب والفرس · وذلك لان مشتري العرب وعطاردهم ومريخهم وبهرامهم هم غير امثالهم عند اليونان وليس لهم في كتبنا وصفٌ معيّن ينطبق على المفاد اليوناني · ولم اتوسع في شيء من هذا الباب الا باسم عفروديت فقد أُطلق عليها اسم الزهرة لقرب الشبه بين الزهرتين في اساطير القومين

وفي سائر الاعلام حفظت الاصل اليوناني مع مراعاة صحة اللفظ العربي على قدر الامكان

وتابعت العرب في الاسماء الشائعة فابقيتها على حالها فلم اقل أَلِكْسَنْدَر او الكسندروس على ما يقتضيه اللفظ اليوناني بل قلت الاسكندر لاجماع العرب على كتابته بهذا الهجاء

وجاريت الافرنج وكثيرين من كتاب العرب بزيادة حرف الهاء في اوائل الاسماء المبتدئة بحرف علة ثقيل فقلت هوميروس وهَلِّيس وهيرا وهيبا كما قالوا هيرودس وهيرودوتس وهِرَقل وهيلانة مع انه لو روعي رسم الحروف اليونانية وعُلم انهُ لا هاء فيها لوجب ان يقال ايرودس وايرودوتس وارقل وايلانة · على ان العرب لم يراعوا ذلك في كل الاحوال ولهذا قالوا اوميروس واسيودس بدل هوميروس وهسيودس

ومثل ذلك يقال في زيادة العين في اوائل نحو عشرة اسماء فان ذلك يقرّبها

الى اللهجة العربية فاخفُّ علينا ان نقول عسقلاف من ان نقول اسقلاف وعفروذيت بدل افروذيت .

وجاريت الافرنج و بعض العرب ايضًا في بتر بعض الاسماء ولا سيما الطويل منها فقلت طرطار بدل طرطاروس وطفطام بدل طفطاميوس ومريون بدل مريونس واسكندر بدل اسكندريوس وفوسيذ بدل فوسيذون كما قال العرب هرقل بدل هرقليس وتيوفيل بدل ثيوفيلوس وخصوصًا ان ملازمة هذه السين للاعلام اليونانية كملازمة الحركة والتنوين للمعرفة والنكرة ففي الحركة العربية غنى عنها .

الحروف التي لا مقابل لها في اليونانية

وليس في اليونانية طاء ولا قاف ومع هذا فهما كثيران جدًّا في الاعلام اليونانية واللاتينية المعرَّبة فقالوا انطيغونس وانطيوخس وقبرس وقسطنطين وقيصر بدلاً من انتيغونس وانتيوخس وكبرس وكنستنتين وكيسار . واخالهم احسنوا بالنظر الى انطباق تعريبهم على اللهجة العربية . فجاريت من سلك هذا المسلك وقلت بالطاء طروادة وطرنا وطيطان وامثالها . وبالقاف قرونس وقبريون وقليارُس . وربما اجتمع الحرفان كما في طفقير

و يقال مثل ذلك في الصاد فهي ليست من حروف اليونانية ومع هذا فقد قلت صوقوس كما قالوا صولون وصوفيًا

واليونانية خلوٌ من حرف الدال فكل دالٍ فيها ذالٌ فراعيت في هذا الباب جودة اللفظ وحافظت على ابقاء معرَّبات المتقدمين على حالها فقلت الاسكندر والاسكمندر وداماس ودردانيا بالدال وذريون وذبتر وذيفوب بالذال

الحروف التي لا مقابل لها في العربية

وفي اليونانية حروف ليست في الهجاء العربي كالفاء B فهي مقام الباء في الحروف السامية وموقعها موقع هذه اي ثانيةً في الحروف فكما عبَّر اليونان بها

عن بائنا لخلو لغتهم منها يجب ان نعبر عنها بالباء لخلو لغتنا من حرفهم ويشمل هذا التعريف جميع الالفاظ التي يدخل هذا الحرف بمجانبها وهي كثيرة كباتيا وبريسا وبورس وبرياس .

وفيها حرف آخر لا مقابل له في العربية وهو الپاء الفارسية Π فقد اخترت لها الفاء لقرب مخرجها اليها فقلت فريام وفطرقل وفوذالير كما قالوا فرسيس وافلون وفيداس . ومن معربي القدماء من اختار لهذا الحرف الباء العربية فقالوا بطرس بخلاف كثيرين من معربي السريان الذين يقولون فطرس فعولت على هذا الوجه الا حيث وقع تكرار الحرف او ثقل اللفظ بالفاء فأرجعته الى الباء وقلت فينبس وبفلغونة وأوليمب ولم اقل فينفس واولمف وففلغونة

ولا فرق في اليونانية بين الجيم والغين فيعبر عنهما فيها بحرف واحد Γ مخرجه بين الغين العربية والجيمين اي الجيم المصرية والجيم السورية فقد اخترت ان اعبر عنها بالغين فقلت غلاطيا وغرطينة الا في احوال قليلة رأيت فيها الجيم اوقع في الاذن سواء كان مصرياً او سورياً كجيربنيا ومجيس

تنافر السين والثاء

والثاء والسين كثيرتان في الالفاظ اليونانية وقد تجتمعان معاً فيشكل على العربي لفظها اذا كان اولهما ساكناً . ففي مثل هذا قلبت الثاء تاء فكتبت اغستين بدل اغسثين . واثقل من ذلك اللفظ اذا وقعت الثاء بين سينين نحو منسثيس فكتبتها منستس . واما اذا كان الساكن الثاني فاني ابقيته على حاله لسهولة لفظه اذ لا يصعب مثلاً ان يقال ثسطور

الپاء والڤاء

ومع اني تحاشيت الپاء الفارسية والڤاء اليونانية في النظم فلم اتحاشهما في الشرح فالعربية واليونانية لغتان قديمتان وللنقلة فيهما اوضاع رأيت ان لا اتعداها في الشعر الا فيما لم يطرقوا بابه رغبة في استبقاء الصبغة الفطرية على حالها .

واما الشرح فهو بلسان عصري وقد اضطررت فيه الى ايراد اعلام قديمة وحديثة وقع فيهما هذان الحرفان فأبقيتهما على حالهما دفعاً للبس كما يفعلون مثلاً في اليونانية الحديثة اذا اوردوا علماً افرنجياً احد حروفه الباء وهي ليست موجودة في لغتهم فيعبرون عنه بحرفين MΠ وليس من ذلك شيء في اليونانية القديمة

طريقة ابن خلدون .

وقد تعرض للقارىء اثناء مطالعته كتب الاعاجم حروف كثيرة لا نظير لها في العربية فكان قدماء الكتّاب من العرب يكتبونها بما يقارب لفظها من حروفهم وهو نقص غير خاص بالعربية ولكنه يتطرق الى كل لغة من سائر اللغات ومنشأه من التباين في النطق بالحروف بين لغة واخرى . فمهما كانت الصور التي يرسم بها الافرنجي اكثر حروف الحلق وبعض الحروف العربية كالحاء والعين والقاف والضاد فليس بالامر السهل عليه ان يتلفظ بها على وضعها العربي . ومع هذا فقد اتخذ لها بعض الكتّاب المدبثين صوراً فارقة تميزها بالرسم دفعاً للاشكال كأن يضعوا نقطة فوق حرف k ليشيروا انها في الاصل قاف وليست كافاً . ونقطة فوق حرف h او تحته ليشيروا انها حاء وليست هاء . و d منقوطة يعبّر بها عن الضاد . واذا ارادوا بها الطاء الحقوا بها حرف h . والعين ساكنة يعبّرعنها بضمة . ومتحركة بحرف حركتها مع الضمة المذكورة وهلمّ جرّاً

وليس كتّاب العصر باول من انتبه الى هذا البحث فقد قال ابن خلدون في مقدمته :

« ليست الامم كلها متساوية في النطق بتلك الحروف فقد يكون لامّة من الحروف ما ليس لامة اخرى والحروف التي نطقت بها العرب هي ثمانية وعشرون حرفاً كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفاً ليست في لغتنا وفي لغتنا ايضاً حروف ليست في لغتهم وكذلك الافرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من العجم . ثم ان اهل الكتاب من العرب اصطلحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة باوضاع حروف مكتوبة متميزة باشخاصها كوضع ألف وباء وجيم وراء وطاء الى آخر

الثمانية والعشرين واذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقي مهملاً عن الدلالة الكتابية مغفلاً عن البيان وربما يرسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي يليه من لغتنا قبله او بعده وليس ذلك بكافٍ في الدلالة بل هو تغيير للحرف من اصله . ولما كان كتابنا مشتملاً على اخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في اسمائهم او بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح اوضاعنا اضطررنا الى بيانه ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لانه عندنا غير وافٍ بالدلالة عليه فاصطلحت في كتابي هذا على ان اضع ذلك الحرف العجمي بما يدل على الحرفين اللذين يكتنفانه ليتوسط القارىء بالنطق بين مخرجي ذينك الحرفين فتحصل تأديته . وانما اقتبست ذلك من رسم اهل المصحف حروف الاشمام كالصراط في قراءة خلف فان النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت انا كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف الصريحة عندنا والجيم او القاف مثل اسم بلكين فاضعها كافًا وانقطها بنقطة الجيم واحدة من اسفل او بنقطة القاف واحدة من فوق او ثنتين [1] فيدل ذلك على انه متوسط بين الكاف والجيم او القاف وهذا الحرف اكثر ما يجيء في لغة البربر . وما جاء من غيره فعلى هذا القياس اضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معًا ليعلم القارىء انه متوسط فينطق به كذلك فنكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبيه لكنا قد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذي من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بمنه وفضله »

ذلك ما أشار به ابن خلدون منذ خمسة قرون وهو مقتبس من كتابة اهل

---

(١) قال ابن خلدون « بنقطة الكاف واحدة من فوق » لانه مغربي واهل المغرب ينقطون القاف بنقطة واحدة من فوق والفاء بنقطة من اسفل . واردف ذلك بقوله « او ثنتين » للدلالة على نقط القاف في غير بلاد المغرب

المصحف فلم يعبأ الكتّاب بكلامه او هم لم يشعروا بحاجة ماسّة اليه اذ كادت تنطوي صحف التعريب في الاعصر المتأخرة · على ان ابناء العصر اخذوا يشعرون بتلك الحاجة فجعل بعضهم يميز بين رسم الحروف الاعجمية البحتة

وليس عسيرًا علينا ان نستمد من الفرس كثيرًا من الحروف التي ليست في اوضاع العربية فتسدّ مسدّ ما نقص عندنا من حروف الافرنج لان الفارسية على ما لا يخفى اقرب بوضعها ومنشإها الى لغات الغرب منها الى اللغات الساميَّة · فلما عدل الفرس بعد الاسلام عن حروفهم النهلوية الى الحروف العربية رأوا ان حروفها لا تؤدي جميع منطوق اللفظ بلسانهم فزادوا من عندهم حروفًا لما نقص عن مدلول لفظهم في لغة العرب فرسموا الپاء والچيم.وفرقوا بين الجيم والژيم وبين الكاف والگاف وزاد الترك الكاف الخرساء

ولا يفوتنّ المطالع اللبيب اننا اذا اشرنا باستعمال هذه الحروف فانما نشير بها في الاعلام الاعجمية المعرّبة ليس الا · وهي على كل حال لا تصلح في الشعر اذ يجب ان يبقى على صبغته العربية · ولهذا استعملتها في الشرح دون المتن

على ان النقص ليس كله في الحروف الصحيحة ولكنه يتمشى ايضًا الى الحركات او حروف العلة الافرنجية فالحركات العربية ثلاث فقط يقابلها ثلاثة حروف علة وليس منها شيء ينطبق على لفظ ,é و o و u و eu و è وامثالها مما هو شائع في لغات الغرب

ولبعض كتّاب الترك طريقةٌ حسنة في الدلالة على حركات الفاظهم التي لا يمكن التعبير عنها بالحركات العربية · ذلك انهم يتخذون من الفتحة فتحتين ثقيلةً وخفيفة · وكذلك من الكسرة كسرتين · ومن الضمة اربع ضمات اثنتين ثقيلتين واثنتين خفيفتين يسمّون واحدةً من كل من الثقيلتين والخفيفتين مبسوطة والاخرى مقبوضة ··وباختلاف رسم هذه الحركات قائمةً او منحيةً او مقلوبةً فوق الحرف او تحته تجتمع لديهم ثماني حركات يستمّون بها التعبير عن جميع ما يقتضيه منطوق لسانهم

وليست العربية في حاجة الى شيء من ذلك للدلالة على منطوق الفاظها بحركاتها كافيةٌ وافية . ولكن الحاجة فيها الى ما يمثل بعض منطوق اللغات الاعجمية كما تقدم

ولقد وضع الشيخ ابراهيم اليازجي منذ بضع سنوات اربع حركات تمثل بعض الحروف الفرنسية وهي ـــ ـــ ـــ ـــ ترسم فوق الحروف فتدل على لفظ ü, é و o و u و eu . وقد جرى فيها على الجمع بين حركتين او ثلاث مراعياً بذلك مخارج الحركات كما راعى ابن خلدون مخارج الحروف

وان في استعمال هذه الحركات مع الحروف الفارسية مسهلاً كبيرًا للدلالة على اصل كثيرٍ من الحروف الاعجمية . وقد لا يصعب مع التوسع بها قليلاً والاصطلاح على اوضاع لسائر حروف الاعاجم التي لانظير لها في العربية والفارسية ان يتوصل كتاب العرب الى الدلالة على منطوق جميع الحروف في سائر اللغات وان كان النطق ببعضها يظل مستحيلاً على من لم يألف قراءة اللغة المعرَّبة اعلامها والتلفظ بحروفها الاصلية . وعلى كل حال لايجوز الاكثار من هذه الاصطلاحات ولا يسوغ استعمالها الا في احوالٍ خاصة

النبر

وقد راعيت النَّبر اي موقع المدّ في اللفظة (accent) ما امكن فقلت مثلاً آرس ولم اقل اريس الا حيث اضطرتني ضرورة الشعر ورجائي ان يكون ذلك قليلاً

التصرف بالحروف والحركات

ولم اتصرف في الحروف والحركات الا فيما ندر ووجهتي في ذلك تقريب اللفظة لمسمع القارىء العربي دون ان اعبث بمادة الاصل كما قلت مثلاً صفيَّة تعريباً لاسم انثى اصلها صفيُّو او سفيو

واما حروف العلة التي نعبر عنها بحركاتٍ فقد تحاشيت تغييرها عن مواضعها كما وقع في كثير من كلام العرب في الشعر ولا سيما المولدين منهم كقول ابن هاني :

ونحنُ بنو العباس منك عزيمةً قد كان يعرفها المليك الهرقْلُ

وكان حقه ان يقول هِرَقْل فغلبته القافية وامثال هذا كثيرة في شعر المتنبي وابي تمّام وغيرهما

الالفاظ المعرّبة من اليونانية

وقد نبهت على الكلمات اليونانية الاصل كالاسطول والمينا والليمان والنوتي · وما يشتبه في كونه يونانياً كالعفريت والعنبر وما يشابه اليونانية كالجريدة

هذا جلُّ ما توخيته احكامًا لتعريب الالياذة وحاشا ان ازعم الفلاح بكل ما توخيت او ادعي الصلاح بكل ما تحريت · ولكنه لا يريبني ان ادّعي اخلاص النية وصدق الاجتهاد فقد اتيت ما اتيت وانا واثقٌ من نفسي انها لم تدخر جهدًا في هذا السبيل

النظم في التعريب

لا بد للشارع في تعريب منظومة كالالياذة او نظم ملحمةٍ على مثالها من ان يقف طويلاً ويتردد برهة قبل ان يعيّن اوزان منظومته وقوافيها · وليس لنا في اوضاع السلف اصولٌ نرجع اليها في مثل هذه الحال · وهيهات ان يتسنى وضع مثل هذه الاصول فينقيد كل بحر من بحور الشعر بباب من ابوابه او تتعين كل قافية من القوافي لمعنى من المعاني · فقد نظم العرب كل معنى على كل بحر وكل قافية واجادوا · والقريحة الجيدة نقّادةٌ خبيرة اذا طرقت بابًا انفتح لها ملء رغبتها فتقع على البحر والقافية وهي لا تعلم من اين تأتّى لها ان تقع عليهما وانما هو الشعور الشعري يدفعها الى حيث يجب ان تندفع

فالشاعر المجيد اذا تصوّر امرًا فانما يتصور له ذلك الامر على كماله فتهيء له السليقة جمال الشكل كما هيأت له جمال المعنى فيجتمع له احكام التناسب بين اللفظ والمعنى والوزن والقافية · فكل بيت بنى عليه قصيدته فهو الاساس

الذي يصح ان يستند اليه و يبني عليه

ولا يخرج عن هذه القاعدة الا الشعر المنظوم لاغراض معلومة ودعت الحاجة الى تقييده بقيود لا مناص لهُ منها كالاراجيز المنظومة في العلوم وبعض الموشحات والاغاني المربوطة بانغام معينة فالشاعر مقيد فيها بنمطٍ لا يتيسر له العدول عنه الى غيره

وفي ما سوى ذلك فالشاعر مطلق اليدين يتصرف بالشعر كيف شاء ولهُ ان يرتضي ما تيسر له من الاوزان والقوافي وهي في الغالب تبرز له من نفسها بشكلها الانيق وقوامها الرشيق

على ان قريحة الشاعر وان كان مجيدًا ليست كيد النسَّاج تنطلق في العمل ايَّان حركها العامل . فقد يضطرب الجنان و ينحبس اللسان والذهن وقَّاد . وقد يكون القلم سيالاً فيجف فيه المداد . فالامساك عن النظم في مثل هذا الاعتقال خيرٌ من اجهاد النفس فلا يلبث العقال ان ينحل من نفسه . واذا طال الخمول فليشحذ الشاعر قريحته بتلاوة جيد الشعر فهو كالجلاء للسيف الصدي.

ولكنه قد يحصل خلاف ما تقدم فتتراكم المعاني وصورها وتتدفق التخيلات تدفقًا يكاد يذهب بها شتاتًا فيتهيأ للشاعر رسم مطلعه ببيتين او اكثر على ابحر مختلفة فيحار في الاختيار ويميل الى الاسترشاد

اوزان الشعر وابوابه

ولهذا رأيت ان اذكر في ما يلي ما تيسر لي استخراجه من شعر العرب بالنظر الى ترابط بحور الشعر بمواضيعه وابوابه . فقد راعيت هذا الترابط في بعض الاناشيد فادَّت تلك المراعاة الى فائدةٍ يحسن التعويل عليها في بعض الاحوال

ولا شك ان العروضيين نظروا الى ابحر الشعر من هذه الوجهة ولكنهم لم يزيدوا على تسميتها باسماء تنطبق توسعًا على مسميات مواضيع القصائد المنظومة عليها فقالوا هذا طويل وذاك بسيط وذلك خفيف أو سريع وهلمَّ جرًّا ووقفوا عند هذا الحد

ولكنه يستفاد من هذه التسمية ان لكل بحر ساحلاً يقف عنده ويرشد اسمه اليه فاذا قلنا هذا بحرٌ طويل علمنا انه لا يسوغ ان ننظم عليه الاهازيج والموشحات والاغاني واذا قلنا هذا بحرٌ مقتضب او مجتث علمنا انهما لا يصلحان للمنظومات على اطلاقها ولا يصح فيهما تدوين الروايات والتواريخ

ولو اردنا ان نضع اصولاً وافية لهذا البحث لوجب ان نرجع الى منظوم نوابغ الشعراء ونقابل بين ابوابه وبحوره فتظهر لنا اغلبية كل وجه في كل بحر . وهو بحث طويل لا يتسع له هذا المجال

فحسبنا اذاً فتحاً لهذا الباب ان ننبه اليه ونذكر موجزين خلاصة ما اتضح لنا بالتطبيق والمقابلة

فالطويل بحرٌ خضمٌ يستوعب ما لا يستوعب غيره من المعاني ويتسع للفخر والحماسة والتشابيه والاستعارات وسرد الحوادث وتدوين الاخبار ووصف الاحوال ولهذا ربا في شعر المتقدمين على ما سواه من البحور لان قصائدهم كانت اقرب الى الشعر القصصي من كلام المولدين . خذ مثالاً لذلك معلقات امرىء القيس وزهير وطرفة ولامية الشنفرى وقصيدة عبد يغوث الحارثي التي مطلعها :

ألا لاتلوماني كفى اللوم ما بيا   فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا

والبسيط يقرب من الطويل ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني ولا يلين لينه للتصرف بالتراكيب والالفاظ مع تساوي اجزاء البحرين . وهو من وجه آخر يفوقه رقةً وجزالة ولهذا قلَّ في شعر ابناء الجاهلية وكثر في شعر المولدين . مثال الشعر الجاهلي قول تأبط شرًّا :

يا عيد ما لك من شوق وايراقِ   ومن خيالٍ على الابواب طرّاقِ

وقول عبدة بن الطبيب :

هل حبل خولةَ بعد الهجر موصولُ   ام انت عنها بعيد الدار مشغولُ

ومثال شعر المولدين قول ابن زريق :

لاتعذليه فان العــذل يوجعهُ   قد قلت حقًّا ولكن ليس يسمعهُ

وقول ابي تمّام :

السيف اصدق انباء من الكتبِ   في حدّهِ الحدّ بين الجدّ واللّعبِ

والكامل اتمّ الابحر السباعية وقد أحسنوا بتسميه كاملاً لانه يصلح لكل نوعٍ من انواع الشعر ولهذا كان كثيرًا في كلام المتقدمين والمتأخرين وهو اجود في الخبر منه في الانشاء واقرب الى الشدة منه الى الرقة ومنهُ معلقتا عنترة ولبيد . وقصيدة الحادرة قطبة بن جرول :

بكرت سُميَّة بكرةً فتمتّعِ   وغدت غدوّ مفارقٍ لم يربعِ

واذا دخلهُ الحذذ وجاد نظامهُ بات مطربًا مرقصًا وكانت به نبرةٌ تهيج العاطفة كقولهم :

يادميةً نُصبت لمعتكِفِ   بل ظبيةً اوفت على شرفِ

بل درّةً زهراء ما سكنت   بحرًا ولا اكتنفت ورا صدفِ

وهو كذلك اذا اجتمع فيه الحذذ والاضمار كقول المخبل السعدي :

ذكَرَ الرّباب وذكرها سقمُ   فصبا وليس لمن صبا حلمُ .

وقول الحارث اليشكري :

لمن الديارُ عفون بالحبسِ   آياتها كمهارق الفُرسِ

والوافر ألين البحور يشتد اذا شددته ويرق اذا رققته واكثر ما يجود به النظم في الفخر كمعلقة عمرو بن كلثوم وفيه تجود المراثي ومنها كثير في شعر المتقدمين والمتأخرين كقول الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخرًا   واذكرهُ لكل طلوع شمسِ

وقول المهلهل :

اهاج قذاء عينك الادّكارُ   هدوًّا فالدموع لها انحدارُ

وحسبك من شعر المولدين مرثية ابي الحسن الانباري :

علوٌّ في الحياة وفي المماتِ   لعمرك تلك احدى المعجزاتِ

ومرثية المتنبي :

نعدُّ المشرفية والعوالي　　ونقتلنا المنون بلا قتالِ

والخفيف اخف البحور على الطبع واطلاها للسمع يشبه الوافر ليناً ولكنه اكثر سهولةً واقرب انسجاماً · واذا جاد نظامهُ رأيتهُ سهلاً ممتنعاً لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور وليس في جميع بحور الشعر بحرٌ نظيره يصح للتصرف بجميع المعاني ومنه معلقة الحارث بن حلّزة اليشكري

والرمَل بحر الرقة فيجود نظمه في الاحزان والافراح والزهريات ولهذا لعب به الاندلسيون كل ملعب واخرجوا منه ضروب الموشحات وهو غير كثير في الشعر الجاهلي واكثره في مثل ما تقدم ومع هذا فلعنترة فيه شيءٌ من الحماسة وللحارث اليشكري قصيدةٌ وصفية اخبارية ابدع فيها ومطلعها :

عجبٌ خولة اذ تنكرني　　ام رأت خولة شيخاً قد كَبِرْ

والسريع بحرٌ يتدفق سلاسة وعذوبة يحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف ومع هذا فهو قليلٌ جداً في الشعر الجاهلي ومنه قول الخنساء :

وصاحبٍ قلت له صالحٍ　　انك للخيــل بمستمطرِ

والمتقارِب بحرٌ فيه رنّةٌ ونغمة مطربة على شدةٍ مأنوسة وهو اصلح للعنف منه للرفق ومنه قصيدة بشامة بن عمرو:

هجرتَ أُمامةَ هجرًا طويلا　　وحمَّلك النأْي عبأً ثقيلا

وقصيدة ربيعة بن مقروم :

من آل هند عرفت الرسوما　　بجُمْران قفرًا أبت ان تريما

والفرس يصرّعونهُ كالرجز وعليه نُظمت شهنامة الفردوسي

والمحدَث اومتدارَك الاخفش بحرٌ اصابوا بتسميته الخبَب تشبيهاً له بخبب الخيل فهو لا يصلح الا لنكتة او نغمة او ما اشبه وصف زحف جيش او وقع مطر او سلاح وهو قليل في الشعر القديم والحديث

والرجَز ويسمّونه حمــار الشعر بحرٌ كان اولى بهم ان يسموهُ عالِم الشعر لانه لسهولة نظمه وقع عليه اختيار جميع العلماء الذين نظموا المتون العلمية كالنحو والفقه

والمنطق والطب فهو اسهل البحور في النظم ولكنه يقصر عنها جميعًا في ايقاظ الشعائر واثارة العواطف فيجود في وصف الوقائع البسيطة وايراد الامثال والحكم

تلك هي الابحر العشرة التي نظمتُ عليها الالياذة فقد ترى النشيد كله بحرًا واحدًا وقصيدة واحدة وقد تتعدد فيه الابحر والقصائد على مقتضى ما تراءى لي من سياق الكلام

واما الابحر الستة الباقية وهي المضارع والمقتضب والمجتث والهزج والمديد والمنسرح فالاربعة الاولى منها لاتصلح لقصرها لمثل الالياذة ولا يجود نظمها في ماخلا الاناشيد والتواشيح الخفيفة . والمديد قل من ينظم عليه وهو ثقيل على السمع . والمنسرح لم يتفق لي نظمهُ في الالياذة لغير سبب مقصود

القوافي

القوافي والاوزان اليونانية والافرنجية

اذا سمع العربي لفظة « شعر » علم فورًا ان المراد به بالنظر الى اللفظ الكلام المقفى الموزون ورسخت في ذهنه القافية رسوخ الوزن . وليس الامر على هذا الاطلاق في سائر اللغات اذ ليس في اليونانية ولغات الافرنج ابحر وتفاعيل فانما هذه من خصائص لغة العرب ومن حذا حذوهم من ابناء الشرق كالسريان والفرس والترك . واما بنو الغرب فلهم اقيسة واوزان خاصة بهم . فالقياس عبارة عن عدّ الاجزاء او المقاطع التي يتألف منها الشطر او البيت والغالب فيها ان تكون اثني عشر مقطعًا وهو ما يسمونهُ بالاسكندري نسبة الى اسكندر دوبرناي وهو اشبه شيء برجز العرب . وهذا القياس البسيط يقوم عند الافرنج مقام جميع ابحر الشعر وتفاعيله عند العرب . واما الالياذة وما جرى مجراها من الشعر اليوناني ففيه الوزن تزيد اجزاؤهُ وتنقص بحسب التفاعيل فهناك اسباب خفيفة وثقيلة تتألف منها اوتاد مجموعة ومفروقة تقوم مقام التفاعيل العربية والاساس في كل ذلك طول المقطع او قصره وكون حرف العلة القائم مقام الحركة في العربية

ممدودًا او غير ممدود . وبعبارة اخرى يراعى في المقام الاول موضع النبرة من اللفظة

واما القافية فليست من لوازم الشعر في كل اللغات فالفرنسوية لا يصلح شعرها بدون قافية والانكليزية فيها الشعر المقفَّى وغير المقفى ومثلها الايطالية والالمانية . فبهذا الاعتبار نُقلت الالياذة الى لغات الافرنج بالشعر المقفى كترجمة پوپ والشعر غير المقفى كترجمة مُنْتي . واما الاصل اليوناني فهو موزون غير مقفى وقافية كل بيت قائمة بنفسها لا تراعى فيها المماثلة لاية قافية كانت من القصيدة او النشيد

القوافي في لغة العرب

والعربية لا يصلح شعرها بدون قافية لانها لغةٌ قياسية رنَّانة يجب ان يراعى فيها القياس والرنة . وفيها من القوافي المتناسبة ما يتعذر وجود نظيره في سائر اللغات فلا يسوغ لها ان تبرز عُطُلاً مع توفر ذلك الحلي الشائق . فاذا اقتصر الافرنجي على صوغ شعره كالرجز العربي لكل شطرين قافيتان متناسبتان ينتقل منهما الى غيرها واضطُرَّ الى تكرارها بعدَ حين او لو اختار ان يعرّي شعره من القوافي بتاتًا فعذره في ذلك ان لغته هكذا خُلقت . بل لو اجهدَ نفسه في مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة . والشاعر العربي بخلاف ذلك فان كثيرًا من ضروب القوافي تنهال عليه انهيال الغيث واذا انحبست فلا تنحبس الا لقصر باع او لقرع بابٍ ضيّق او لتجاوزه الحدّ في اطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة

تناسب القوافي والمعاني

وقوافي الشعر كبحوره يجود بعضها في موضع ويفضله غيره في موضع آخر وحسبك دليلاً ان جميع قراء الشعر يطربون لبعض القوافي دون البعض الآخر واذا نظم شاعرٌ واحد قصيدتين على بحرٍ واحد بمعنى واحد ونَفَس واحد فلا ريب ان القافية الغناء تميل بالسامع الى ايثارها على اختها . ولا ريب ان

اختيار قافية القصيدة ابعد منالاً من اختيار بحرها وذلك بنسبة ما يربو عدد القوافي على عدد البحور والمرجع في ذلك الى سلامة الذوق وغزارة المادة . فالقريحة الجيدة في غنى عن اصول توضع لها بهذا المعنى لو فرضنا من الممكن وضع مثل هذه الاصول فهي من نفسها تقع على القافية والبحر بلا جهد ولا تردد . ومع هذا فلا بأس من ايراد بعض ملاحظات تتراءى للناظم اثناء النظم وللقارىء اثناء المطالعة

الشعر كالنغم الموسيقي والقافية رستهُ او قرارهُ فحيثما جاد النغم وتناسق الى منتهاه حسُن وقعه في الاذن وانشرح لهُ الصدر وطربت له النفس . فكل نغم اطرب ارباب الصناعة وذوي الاذن السمَّاعة فهو الحسن وهكذا الشعر فلا يحسن وقعه في نفوس قرائه وسامعيه ما لم يكن جيدًا وقد يستهان بالمعنى البليغ لضعف قافية او وقوعها في غير موضعها

القوافي الضيقة والثقيلة

واول ما يجدر بالشاعر اجتناب القوافي الصعبة الضيقة فانه يُضطر معها الى استعمال الكلام المنبوذ والوحشي المهمل ويضيق في وجهه باب التصرف بالمعاني على ما يتصورها فيعضل عليه النظم وعلى قارئه الفهم . ولنضرب لذلك مثلاً نابغة من نوابغ الشعراء ابا الطيب المتنبي . نأخذ قصيدتهُ التي مطلعها :

أمُساورٌ ام قرن شمسٍ هذا ام ليث غاب يقدم الاستاذا

وقابلها بمعظم شعره فيبدو لك من استغلاق العبارة والتكلف ما يحملك على الظن انها ليست من نظامه لو لم تكن مثبتة في ديوانه . وان اردت برهانًا اقرب فانظر في محبوكات صفي الدين الحلي وكلها منظومة في باب واحد واقرأ الثائية والخائية والظائية وان كنت صبورًا جلدًا فأتم قراءتها من اولها الى آخرها وقل لي بعد ذلك رأيك فيها

ففي مثل هذا المأزق الضيق يضطر الشاعر الى اتخاذ جميع البيت تتمةً للقافية مع ان الغرض من القافية ان تكون تتمةً للبيت مندمجةً في معناه . فاذا كُره في القافية

وهي كلمةٌ واحدة ان تكون حشوًا للبيت فكم يُكره ان يكون جميع البيت حشوًا للقافية ما لم يكن مبنيًّا عليها لغرض مقصود

رنّة القافية

وكما ان العرب نظموا جميع المعاني على جميع البحور فقد كان هذا شأنهم في القوافي فلم يقيدوا قافيةً بباب من الابواب وخيرٌ للقوافي ان تبقى مطلقة يتخير منها الشاعر ما شاء فتأتيه ارسالاً . فان سلم ذوقه جاءته منقادة طوعًا فحلّت محلّها والا فلا يسلم الذوق كرهًا

ولكنه يجوز للباحث ان يلقي نظره على منظومات الشعراء ويمحّصها بالنقد والمقابلة . فاذا فعلنا ذلك بدا لنا مثلاً : ان القاف تجود في الشدة والحرب . والدال في الفخر والحماسة . والميم واللام في الوصف والخبر . والباء والراء في الغزل والنسيب . وانما هو قولٌ اجمالي اذا صحّ من باب التغليب فلا يصح من باب الاطلاق . لان مناحي التحول من نغمةٍ الى اخرى في قافية الحرف الواحد اكثر من ان تحصى . فنغمة الراء مضمومةً تختلف عنها مكسورةً ومفتوحة . وهي وما قبلها متحرك غيرُها وما قبلها ساكن او ممدود بحرف علة . ورنّتها في بحرٍ تختلف عنها في بحر آخر وهكذا الى ما لا نهاية له

وغاية ما يقال في هذا الباب ان المعاني الشعرية كاللآلىء المنثورة لا مرشد الى احسان نظمها في سمطها خيرٌ من سليقة الناظم فان جادت الصناعة بهرت البصر والا جاءت ركامًا بعضها فوق بعض وذهب خلل بنائها بنضارة روائها

جوازات الشعر

ليس المقام مقام بحثٍ في بيان اللغة وعروضها ومع هذا فلا بد لي من ايراد نبذةٍ يسيرة في ما رأيت اجتنابه واتيانه من الجوازات الشعرية استتمامًا لبيان النهج الذي نهجته في التعريب

لو اراد الشاعر ان يحتجّ لكل خطاء يرتكبه في النظم بشاردةٍ من شوارد

شعر العرب لما عدم سبيلاً الى التخلص من معظم ما يتورط فيه عجزًا وجهلاً . على ان الطويل الباع القويم اليراع تأبى نفسه ان يتورّك على شذوذٍ فارط وقدحٍ ساقط ولو كان صاحبهما من شيوخ الشعراء كامرىء القيس وزهير بن ابي سلمى . — فايُّ شاعر مُجيد يرتضي جزم المضارع بغير جازم بناء على ورود ذلك في معلقة زهير بقوله :

وانَّ سفاه الشيخ لا حلم بعده وان الفتى بعد السفاهة يحلمِ

ومن يُقبل على ايراد المتنافرات في شعرهِ اقتداء ببيت فذٍّ لامرىء القيس اذ قال :

غدائرها مستشزراتٌ الى العُلى تضلُّ العقاص في مثنّىً ومرسلِ

بل من يقدم اليوم على قبض مفاعيلن الاولى من احد شطري الطويل كما جاء في الشطر الثاني من بيت امرىء القيس بآخر لفظة «عقاص» — ومثله قول طرفة :

أمونٍ كالواح الاران نصأتها على لاحبٍ كأنه ظهر برجدِ

وقول الشنفرى وقد قبضها في الشطر الاول

غدا طاويًا يعارض الريح هافيًا يخوت باذناب الشعاب و يعسلُ

ولا تخلو قصيدة من شعر الجاهليين من مثله . جاز لهم ذلك لنغمةٍ كانت لهم في تلاوة الشعر يضيع معها الفرق في الطويل بين مفاعيلن ومفاعلن . وليست للمولدين تلك النغمة الا في شيء من انشاد اهل العراق و يضارعهم بها الفرس في انشاد الشعر العربي والفارسي اذ يمرُّون على ياء مفاعيلن مرًّا خفيفًا فلا يُشعر بحذفها اذا حذفت وقد يسكنون اللام ولا حرج

وقد ضبط العروضيون جوازات الشعر ولكنَّ لكل ناظم ضعفًا من وجه فتكثر استباحتهُ في ضروبٍ لا يستبيحها غيره ويمتنع الواحد عما لا ينكره الآخر . ولهذا رأيت ان اذكر ما انكرت وما لم انكر من تلك الجوازات :

استبحت صرف ما لا ينصرف حيث اقتضاه الوزن بلا تكلف الى منعه

قصرت الممدود قليلاً ولم استبح مد المقصور مطلقاً

لم اصل المقطوع الا بهمزة انْ بعد لو ولم اقطع الموصول الا في اول الشطر وهذا قليل جداً

لم اشدد المخفف ، ولم اخفف المشدد الا اذا كان حرف قافية

لم اسكن المتحرك الا في ضمير الغائب والغائبة بعد الواو كما في « وَهْوَ » وَ « هْيَ » ولم احرك الساكن الا حيث وجب تحريكهُ في الدرج لالتقاء الساكنين او في القافية لاطلاقها . او ما جاز تحريكهُ على الاطلاق كالميم اللاحقة بالضمير نحو « هُمْ » و « كُمْ »

لم اجتنب تحريك العلَم المنادى اذا اقتضاه الوزن

لم استجز اختلاس حرفٍ في ما سوى « انا » وحروف العلة الساقطة طبعاً بدرج الكلام قبل الساكن كالواو والياء في « اولو الحكمة » و « ذوي العلم »

لم أُشبع الا ما جاز اشباعه كهاء الضمير الغائب الساكن ما قبلها نحو منه او وجب كالهاء المذكورة المتحرك ما قبلها نحو « به »

سكّنت في موضع او موضعين السين الواقعة في آخر العلَم الاعجمي نحو اوذيس مجاراةً لمن يحسب ان هذا الحرف مع ملازمته لاكثر تلك الاعلام يصح اعتباره حركةً بنفسه

واما ما فرط في كلام العرب من غريب المسوّغات كمنع صرف المنصرف وتذكير المؤنث وتأنيث المذكّر وفك المدغم فيجب ان يعتبر شاذًّا ولا يجوز ان يقتدى بشيء منه

عيوب القافية وسنادها

لاحاجة بي الى تقبيح عيوب القافية كالاكفاء والاجازة والاقواء والاصراف فان صغار الطلبة لايجمعون في قوافي القصيدة الواحدة بين « فالح وشامخ » او « كمين وعميد » او « رجلُ وحملِ » او « راسُ وتفسا » وانما اقول كلمةً في السناد

فمنه ما يجب نبذهُ مطلقًا كسناد التأسيس في الجمع بين المؤسّس وغير المؤسّس كأن تكون قافيةٌ « يتصبَّر» واخرى « يتظاهر » · ومنه المكروه وان ورد قليلاً في شعر البلغاء كسناد الاشباع اي الجمع في القوافي بين نحو « مكارِم » و« تفاقَم » باختلاف حركة الدخيل

ويقرب من هذا سناد الرِّدف وهو ان يكون بيت مردفًا بحرف علة وآخر غير مردف كالجمع بين « قوم » و « حلم » وهو اكثر ورودًا في الشعر الصحيح

ومنه الجائز الشائع وهو سناد الحذو وسناد التوجيه اي اختلاف حركة ما قبل الرويّ بين الفتحة والضمة والكسرة نحو « قَدُم » و « قَدَم » و « قَدِم »

وهذا النوع الاخير كثيرٌ في كلام النوابغ من المتقدمين والمتأخرين ومع هذا فقد اجتنبت في تعريب الالياذة جميع انواع السناد جائزها ومكروهها

تكرار القافية

واما تكرار القافية فليس من مذهبي وان اجازه العروضيون · فلم استبحه في النظم ولم اكرر قافيةً واحدة في كل الالياذة بلفظها ومعناها طالت القصيدة او قصرت · ولا يستثنى من ذلك الا حيث تكررت الابيات في الاصل ووجب اعادة العبارة بنصها او حيث كان النظم رجزًا او متقاربًا مصرَّعًا فهنالك كل بيت قائم بنفسه تنقطع القافية بانتهائه فاذا اتفق تكرارها بعد ابيات فكأنما هي واقعة في قصيدة اخرى

التجنيس

لم أتوخَّ التجنيس في شيء من النقل بل ربما نبذته اذا ظهر منه ثقل او تكلف فانهُ اسمج شيء في الشعر اذا تسقَّطه الشاعر تسقُّطًا

قال لي صديقٌ من عليّة الادباء وقد جرى امامه ذكر البيت القائل:

بالدُّنا لا تطمعنْ في مَصْرِفي عنهما فضلاً بما في مِصرَ فيْ

هذا بيتٌ لشاعرٍ تفاخر به الشعراء فوالله لو خُيِّرت بين ان أشنق أو

يُنسب لي هذا البيت لاخترت الشنق . ينبئك هذا بمبلغ الانقباض الذي تحدثه في النفس امثال هذا التكلف . ومع هذا فقد أُثبتُّ ما جاء عفوًا في الكلام بلا تلمُّس مثال ذلك : (ص: ٧٦٢)

بهما النَّوْرُ عن الارض ارتفعْ وغمامُ التبر بالنُّور سَطَعْ
وحُباب القَطر في أكنافهِ كحُبوب الدرِّ للارض وقعْ

ذلك هو النهج الذي آليت على نفسي ان انهجهُ في كل الكتاب واني ابرأُ الى الله من العصمة فاذا فرطت مني فارطةٌ على خلاف ما ذكرت فانما تلك هفوةٌ زلَّ بها القلم وجلَّ ربك ولي العصمة والسداد

ضروب النظم في التعريب

بقي عليَّ تتمةً لهذا الباب ان اذكر ضروب النظم التي جريت عليها في تعريب الكتاب : —

رُبَّ من ترجو به دفع الاذى عنك يأتيك الاذى من قبلهِ

فقد يأتي الضرر من حيث يُرجى النفع فان اتساع القوافي في اللغة العربية من جملة اسباب التضييق على الشعراء اذ مهما طال الشاعر باعًا فلا يأتي على عددٍ معلوم من الابيات حتى يكاد يستنزف القوافي السائغة ولهذا كان من المستحيل نظم الالوف المؤلفة على قافية واحدة . وهذا من جملة اسباب ضعف الشعر القصصي في العربية . واذا فرضنا وجود قافية تتسع لمثل هذا المجال فالاذن تملُّ توالي النغمة الواحدة لأطيب الالحان . فهذه تائية ابن الفارض الكبرى وقلَّ من يقرأها مع ان حفَّاظ شعره يعدُّون بالالوف كما ابنَّا في موضع آخر . واذا لجأنا الى الرجز في مثل هذا السياق الطويل فلدينا من سائر البحور ما يفوقهُ جزالةً في بعض المواقف وقوةً في مواقف اخرى

زارني صديقٌ من نوابغ شعراء العصر وقال بودّي نظم الحادثة التاريخية الفلانية وهي تستغرق نحو خمسمائة بيت في سياق واحد وانه ليعز عليَّ ان التزم

قافيةً لمثل هذا العدد ولا احب ان انظمها رجزًا والمقام لا يؤذن بتقطيعها قصائد . قلت وما قولك لو جعلتها نشيدًا مسبَّعًا او مثمَّنًا لا تستعيد القافية فيها الا مرةً كل بضعة ابيات فتتخللها قوافي اخرى تطيب لها نفس القارىء فلا يملُّها ويتسع لك المجال فتتخلص من العسف والتكلف فاستحسن واظنه فعل

ولهذا نوَّعت النظم على طرقٍ شتى متبعًا الخطة التي تقدم بسطها ومراعيًا لكل ضرب من ضروب النظم مقامًا حسبته ينطبق عليه فربما قطعت النشيد قصائد مختلفة وربما نظمته قصيدةً واحدة . ووسَّعت لنفسي في استنباط ضروبٍ غير مطروقة ولكنني لم اخرج بشيء منها عن اصول الشعر واللغة .

فاستعملت النظم الشائع من قصائد وتخاميس واراجيز وسلكت مسالك اخرى دعوتها باسماء رأيتها تنطبق عليها وهي :

المثنَّى

وفيه تبنى القصيدة على قافية يُرجع اليها في كل بيتين مرة . وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على نحو ما اصطلح عليه المتأخرون في الرباعي او الدوبيت الاعرج ومثاله : (ص : ۳۸۹)

لو تربَّصتَ والعجاج استطارا	ونجيعُ الدماء سال وفارا
وتبصَّرت بابنِ تيـذيُسٍ لم	تذرِ ايُّ الجيشين منه اغارا
مستشيطًا ينقضُّ فوق الاعادي	ينهب السهل بين عادٍ وغادِ
كخليجٍ يضيق بالسيل تجرا	هُ فيستأصل الجسور الكبارا

وهكذا الى آخر القصيدة

والمربَّع

ومثاله : (ص : ۵۱۵)

كسا الفجرُ وجهَ الارض ثوبًا مزعفرا	وزفس ابو الاهوال في ارفع الذرى
على قمَّة الأولمب تُصغي مهابةً	لمنطقهِ الاربابُ أَلْفَ تحضرا

فقال: « لِيعلَمْ كلُّ ربٍّ وربّةٍ بما اليوم في صدري فؤادي اضمرا
فلا ينبذنّ الأمر عاصٍ بل اذعنوا لأنفذ ما ابرمتُ امرًا مقدّرا

لنصرة اي القوم من يجرِ منكمُ يأوبن منكوبًا يخضّبهُ الدمُ
والا فمن شمّ الألمب براحتي الى الظلمات الدهم يلقى ويُرجمُ
الى حيث ابواب الحديد قد استوت على عتب الفولاذ والقعرُ مظلمُ
الى هوّةٍ بين الجحيم وبينها مجالٌ كأقصى الجوّ عن اسفل الثرى

والمثمّن او المربّع المسمّط

ومثاله: (ص: ١٠١٤)

فضيض الجيش مذ ذُعرا هزيمًا كالظبا نفرا
الى إليون حيث هناك خلف حصاره انحصرا
يجفّف في ظلال قلاعهِ عرقًا به سحبت
كتائبه ويروي غلّةً فيها قد استعرا
وراءهمُ الاخاءة والجواشن في عواتقهم
جرَوا لكنّ هكطورًا تربّص يرقب القدرا
لدى ابواب إسكيا فضاه الشؤم ثبّطه
وبابن أباك آفلونُ احدق يصدق الخبرا:

« علامَ وانت من بشرٍ جريت تجدُّ في اثري
أتجهل أنني ربٌّ فثُرتَ بلاهب الشررِ
تركتَ هناك طروادًا تفرُّ الى معاقلها
وجئتَ هنا فلا لا ان تفوز تعستَ بالظفرِ
فلستُ بمائتٍ ابدًا» فقال أخيل متقدًا:
« أزجّاج السهام وشرَّ آل الخلد والكبرِ
ارى أنا يثني عن سورهم مكرًا والأ كم

فتىً عضَّ الحضيض قُبَيل ما بحصاره استترا

والموشَّح المسبَّع

ومثاله : (ص:٣٣٩)

ما اشتمل الفجرُ بثوب الجسادْ من يمّه يبرز فوق البلادْ
يرمقه معبودها والعبادْ
حتى انبرت دون الخلايا ثتيسْ في تحف الرب هفيستٍ تميسْ
فابصرت آخيل فوق الثرى معانقًا فطرُقل واري الفؤادْ

يشهق بالعبرة هامي الجفونْ وحوله اصحابه يندبونْ
وسطهمُ حلّت بتلك الشجونْ
و يده اجترّت وقالت : » ألا معا طما الخطب وطمَّ البلا
دع ثَمّ فطرقل على الترب اذ في قدر الارباب بالغيب بادْ

والموشح المثمَّن

ومثاله : (ص : ٤٥٧)

سار هكطور حثيثًا وأتى باب إسكيَّة والزّان طليلْ

فتلقّته نساءٌ وبناتْ منه عجلًا تتقصَّى سائلاتْ
عن بنيهنَّ واخوانٍ ثقاتْ
وبعولٍ وأخِلّاءَ فامرْ ان يبادرن على ذاك الاثرْ
و يصلّين لارباب البشرْ
علّها تدفع عنهن الاذى ولزاهي قصر فرْيام مذى
هو صرحٌ شيدَ بالنحت الجميلْ فوق ابواب رواقٍ مستطيلْ

ضمنهُ صفٌّ بديع المنظرِ غرفٌ قد بنيت بالمرمرِ
كلها خمسون ملْس الحجرِ

لبني فريام شيدت مضجعا وثوت ازواجهم فيها معا
ويحاذيهن صفٌّ رُفعا
فيه بالايناس والرغد ثوى معَ كل ابنةِ الصهر الحليل

وفيه المنظومة مبنية على قافيتين وهما هنا الالف المقصورة واللام كما ترى وله لازمة في اوله يبنى عليها وتؤسَّس قافيته في ختام الدور الاول ببيتين واما في سائر الادوار فببيت واحد

والموشح المُردَف

ومثاله : (ص : ٧٣٥)

كان نسطورُ لدى كأسِ الشراب مُصغيًا يسمعُ عجًّا واصطخاب
فلماخاوُونَ قال : « أفكِرْ فما علَّهُ ينجمُ عن نزع الحراب
حولَ تلك الفُلك فتيانُ الوحى نقعُهم يعلو مهِ لا تبرحا
واشربِ الخمرة صرفًا ربثما هيكَميذا لك تحمي المسبحا
وتنقي الجرح من هذا الخضاب

وانا ماضٍ أرى ماذا جرى بالسُّرى واقتال ثرسًا اكبرا
كان ثرسيميذُ قد غادرَهُ مؤثرًا ترسَ أبيهِ نسطُرا
وعلى رُمحٍ طويلٍ قبضا بسنانٍ قاطعٍ صُفرًا اضا
والى البابِ عدا مستشرفًا فلهُ لاحَ القضا ايُّ قضا
ببني الاغريقِ قد جلَّ المصاب

والمستطرد

وهو ما تبنى القصيدة فيه على قافيتين فاكثر يرجع الى كل واحدة منها كلما استُطرِد الى الموضوع الذي قيلت في اوله . مثال ذلك محاورة اخيل وفينكس (ص : ٥٦٨) لخطاب اخيل بقصيدة سينية من المثنى :

قال آخيل : «يا أُذيسُ المؤانسْ لِيَ فاسمعْ فانني لا أُلابسْ
لي مقالٌ فلن احولنَّ عنه فعِهِ واطرَحنَّ عنك الوساوسْ
من يقلْ غيرَ ما تيقَّنَ فِكرًا كان عندي من الجحيم اشرَّا
فالذي قد اسررتُ هاكم جهارًا لجميع الاغريق لستُ بناكسْ

وجواب فينكس بقصيدة رائية من المثنّى ايضًا :

فاستتمَّ الحديث والقومُ طرًّا بوُجومٍ خالوا التصلُّبَ مُرًّا
ثم فينكسُ والدموع هوامٍ لاشتدادِ الوبالِ قال مُصرًّا
« ان تكنْ عن تحدُّم واحتدادِ راغبًا عن لقاء جيش الاعادي
وطلبتَ المآبَ يا ابني المُفدّى كيفَ القى على بعادِك صبرا

وهكذا فكلما تكلم احدهما رجع الى قافيته . وقد يقع هذا الاستطراد في غير الخطاب والجواب كان يكون بين الخبر والانشاء او غير ذلك مما يقتضيه المقام

مصرّع المتقارب

وعلاوةً على ذلك استحسنت تصريع المتقارب كما فصَّلت في الفقرة الاولى من النشيد السادس بعد المطلع الآتي :

خلَتْ ساحة الحرب من كل ربّ فعجَّ العجاجُ بطعنٍ وضربِ
فمن سِيمُويسٍ الى زَنْثُسٍ قِراعُ السيوفِ ومَدُّ القِسي

مصرّع الرجز ومقفاه

وجمعت في النشيد الثالث والعشرين بين مصرّع الرجز ومقفاهُ التصريع الانشاء والتقفية للخطاب واتَّبعت هذا النسق في كل النشيد المذكور



الالياذة والشعر العربي

الشعر القديم

لقد يعجز الباحث في تاريخ الشعر العربي ان يرجع ببحثه الى ما وراء قرن قبل الهجرة . وان معظم ما عزاه بعض الكتّاب الى من تقدم ذلك العهد ليس الا من باب التخرّص فلا يصحّ وضعه موضع ثقة بل يجب نبذه والحكم بانه انما وُضع لتتمة حديث او تنميق رواية . وكأن فطرة العرب الشعرية تدفعهم الى ترصيع كل رواية من رواياتهم بابيات ينقلونها من حيث تيسر لهم النقل وان اعياهم ذلك عمدوا الى وضع شيء مما تجود به قرائحهم . ولذلك كانت جميع تآليفهم مشحونة بالشواهد الشعرية مما يجوز الحكم بصحة نقله وما لا يجوز . فاذا ساغ لنا الآن ان نقول بصحة مآخذ الشعر الجاهليّ الحديث من المهلهل بن ربيعة الى زهير بن ابي سلمى بانه قيل في زمن كان فيه الشعر في ابّانه وسوق عكاظ في ريعانها والحفّاظ والرواة منبثون كاسلاك البرق يدوّنون و ينقلون ويحرصون على ادّخار مسموعهم ومحفوظهم والقراءة مألوفة والكتابة معروفة والشعر بمنزلة يحسد عليها فيُختزَن اختزان الدرّ المنضود . ومع هذا فان بعضه لايخلو من النقد والشُبهات . ولكن من لنا بدليل واحد يثبت صحة اسناد الشعر المرويّ عن شعراء القبائل البائدة وكهانها من طسم وجديس وعاد وثمود . ومن ذا الذي يثق اليوم مثلاً ان مهدّا الكاهنة هي القائلة يوم انذرت قوم عاد بالهلاك :

انى ارى وسط السحاب نارا ... تنثر من ضرامها الشرارا

يسوقها قومٌ على خيولِ ... تهتف بالاصوات والصهيلِ

وهي عذابٌ يال عادٍ فاعلموا ... فوحّدوا الله لكي ما تسلموا

ثم استجيروا بالنبيّ هودِ ... نبيّ ربٍّ واحدٍ معبودِ

لقد اتاكم عن قريبٍ داهيه ... فليس تبقي منكم من باقيه

ا قطُّ نطق بمثلها قوم عادٍ بل هي

ازاء الشعر العربي المنسوب الى
ثم الى الملائكة وابليس واشباه
ان يتكلف عناء الاشارة
، العرب عموماً قد انكروا على
زم ابن عباس « من قال ان

الطبيعة الى التطلع الى اصل
عر بحثوا في اصله وجعل كلٌّ
ائلٌ منهم اوّلُ من هذَّبه عديٌّ
، بالمهلهل لانه اوّل من هلهل
م الى ان اول شعراء العرب
الى ما وراء ذلك الزمن باحقاب
ثمود وقيل بل حمير وامثال هذه
العقل ويعجز النقل عن اثبات

، فلا يثبت مطلقاً ان العرب لم
يعتهم وطبيعة بواديهم وحواضرهم

هنا لعهد الهجرة وقبلها بقرنٍ على ما هنا عليه قبل عشرات من القرون .
فقد يصحُّ الفرض ان النهضة الشعرية كانت تتفاوت ارتقاء وارتخاء بين زمنٍ
وزمن ولكنه لا يصح القول ان جذوتها لم تلتهب الاَّ لهذا العهد القريب .
فارتقاء بلاغة الشعر متقدِّمٌ على ارتقاء بلاغة النثر لملازمة الافكار الشعرية

للفطرة البشرية . واذا كان الشعر مدوّنًا قبل الالياذة بعصور في لغات الهنود والمصريين وبلادهم معتقلة بقيود الحضارة فما بالك بالعرب وهم في بداوتهم وجاهليتهم يطوفون في عالم الخيال فلا قيد ولا عقال يطرقون البوادي والقفار فينقرون فيها على ماشاؤوا من الاوتار ويسامرون النجوم فلا يستر الجوّ عنهم شيئًا من بهائها وهم جميعًا بين هائم وهاجع وهاجم ومدافع ومنافر ومفاخر وكل تلك الاحوال تهيج السليقة الشعرية حتى في الافئدة الخاملة . وهم هم اليوم في باديتهم اولئك الرعاة الغزاة منذ الفي عام والشعر على تغير لغته وزوال اعرابه ما زال انيسهم وسميرهم في الحل والترحال وسيظل كذلك الى ما شاء الله .

طموسه

لا ريب بعد ما تقدم ان الشعر العربي القديم دَرَس اثره وطُمس خبره وان ما يُنقل منه لايامنا حديث الوضع من مخترعات الكتّاب . ولعله يأتي زمن يتوصل فيه الباحثون في عاديات الايام الخوالي الى اكتشاف شيء مما قد يكون عُلّق منه لغرض . ولكن افتراض حصول ذلك قليل الجدوى بالنظر الى لغة الشعر العربي من عهد شعراء الجاهلية المعروفين حتى يومنا . لانه اذا وجد شيء من الشعر الراقي الى ما فوق القرن الرابع للميلاد فانما يكون بلغة غير لغة امرىء القيس واذا كانت لغة اصحاب المعلقات ونظائرها يُشكل فهمها على معظم قرّاء العربية مع جميع القيود التي قيّدت بها اللغة من عهدهم فما يكون مبلغ فهمنا من لغة تلك العصور ولا ضابط لها ولا قيد

عُكاظ

ومن معلومٌ ايضًا ان منطوق لغة العرب كان يختلف ويتباعد بتباعد القبائل ولهذا كثرت المترادفات في اللغة العربية الى ما لا نظير لهُ في لغةٍ اخرى . ولو طال الامد على تلك الفوضى ولم تقم سوق عكاظ لباتت لغة العرب لغاتٍ لا يتفاهم اصحابها وانفصلت كلٌّ منها عن الاخرى انفصال العربية عن شقيقتيها العبرية

والسريانية · فلما عظم شأن السوق العكاظية واخذ الشعراء يؤمّونها من اطراف البلاد يتناشدون فيها و يتنافسون كان معظم همهم انتقاء الالفاظ الفصيحة المشهورة عند اكثر القبائل طمعاً بكثرة المستحسنين لشعرهم فاشتركت الالفاظ وعمت التعابير المألوفة بين الجميع فاتّقت اللغة شر التفرق وامنت الفاظها من التبعثر بين شتيت القبائل

وقد كان ذلك شأن العرب في اختيار الفصيح من الكلام في نظائر عكاظ كذي المجاز في الجاهلية ومِربد البصرة في الاسلام

القرآن ولغة قريش

اذا ثبت ان لعكاظ ونظائرها فضلاً في تمحيص الفاظ اللغة فالفضل العظيم في استحيائها واستبقائها انما هو للقرآن فهو الذي احكم تراكيبها وابدع في تنسيق اساليبها وصعد بالبلاغة الى أوج مراقيها · بل هو الذي جمع جامعتها وهذّب عبارتها · ولما ارتفع منار الدين الاسلامي كانت اللغة العربية تنتشر بانتشاره على وتيرةٍ واحدة في مشارق الارض ومغاربها · ولا عبرة بما كان يعتور لغة العامة من الركّة واللكنة بمخالطة الاعاجم وبُعد عهد الجم الغفير من الجالية العربية بالانقطاع عن اصولها · فان القرآن كان ولا يزال رائد الكتّاب يرجعون اليه في مواضع الاشكال ويتمثلون بعبارته و يتفقهون ببلاغته فكان من مُعجزه حفظ اللغة العربية الفصحى على اسلوبٍ واحد منذ ثلاثة عشر قرناً مع تفرق حَفَظتها وتشتت المتكلمين بها

وفضل القرآن على الشعر العربي يكاد يضاهي فضله على لسان العرب لان بلاغة التعبير تهيج الفطرة الشعرية سواء كانت العبارة نثرًا او شعرًا · ولهذا كثر لغط القائلين في اوائل الاسلام ان القرآن كلامٌ شعري · فجاءت الآية بتكذيبهم (وما علّمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكرٌ وقرآنٌ مبين) فلذلك اجمع ائمة العرب على ان الشعر لا يُعدُّ شعرًا ما لم يكن مقصودًا بالوزن · فان جاءت العبارة

موزونةً على غير قصد فليست من الشعر في شيء . وامثال ذلك كثيرة في القرآن والحديث . فمن الآيات القرآنية « من كان منكم مريضاً او على سفرٍ » و « واخرجت الارض اثقالها » و « لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون » ومن الحديث « هل انت الا اصبعٌ دُميت وفي سبيل الله ما لقيتِ »

وانَّ للافرنج اسلوباً نثرياً في الكتابة يتعمدون فيه تنميق العبارة بما لا يجوز اتيان مثله في النثر البسيط ويتوخَّون فيه اثارة العواطف والخوض في عالم الخيال ومذهبهم فيه بخلاف مذهب العرب اذ يعدُّونه من فنون الشعر وان تجرَّد من القالب الشعري ولم يقصد به الوزن والتقفية

واذا كان اللسان العربي خلوًا بعرف العرب من هذا النوع من الشعر فان في القرآن من البلاغة ما لم يجتمع لهُ نظير في نثرٍ ولا في شعر . فلا غرو اذًا ان يكون هو الناهض بهذا اللسان تلك النهضة التي وطّدت اركان فصاحته وهذَّبت مقول الشعراء حتى أربت بلاغة التركيب وجزالة اللفظ في شعر المخضرمين والمولَّدين ممن اكثروا من تلاوته وسماعه على مثله في شعر من تقدمهم من فحول الشعر الجاهلي — قال ابن خلدون « وكلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقةً في البلاغة من كلام الجاهلية لانهم سمعوا القرآن وحفظوه وهو في اعلى طبقةٍ من البلاغة وحفظوا الحديث ايضاً . ولذلك تجد شعر حسَّان والحطيئة وجرير والفرزدق وذي الرمَّة والاحوص وبشَّار ابلغ من شعر امرىء القيس والنابغة وعنترة وابن كلثوم وزُهَير ونحوهم »

وخلاصة القول ان لغة الأعراب في البادية ومنطوق سائر العرب في حواضرهم ما زالا يتراوحان بين الصعود والهبوط والتقارُب والتباعُد حتى هذَّبهما شعراء عكاظ واتى القرآن فكان فيه القول الفصل والمنهج القويم والحجة الكبرى والاساس الوطيد

واذ كانت عكاظ بين نخلة والطائف في الحجاز ولقُرَيش الحجاز منزلةٌ

لا تعادلها منزلة بين العرب ولهم سدانة الكعبة كان الشعراء الوافدون من اليمن و بادية الشام وهضاب نجد وبرق تهامة وسائر اطراف البلاد العربية يتشبهون جهدهم بلغة قريش المُضَرية وكانت اذ ذاك اللغة المعوَّل عليها بين اكثر قبائل الحجاز ونجد فقويت وما لبثت ان فازت بالغلبة في منظوم الشعراء . ثم جاء القرآن فأحكمها ذلك الاحكام الذي يُدهش له الاعجمي فضلاً عن العربي وهُجر ما سواها من لغات سائر القبائل في النثر والشعر الا بقية من الاصول النحوية والاصطلاحات التركيبية

وكانت لغة قريش تزداد رسوخًا في اذهان الشعراء وشيوعًا بين العرب كلما دانت قبيلة منهم بالدين الاسلامي بعد سماع آي القرآن ولا سيما بعد ان قام الشعراء القُرَشيون فأخذوا باطراف البلاغة فكان لهم القِدح المعلّى في الشعر كما كان لهم من قبل في رفعة القدر

وهو غير خاف انه كان لقريش بصرٌ في الشعر في الجاهلية ومع هذا فلم تكن لهم فيه مقامات عالية ولم يرتفع شعراؤهم بطبقتهم الى طبقة نوابغ الشعراء من سائر القبائل لان العرب كانت تقر لهم بالتقدم في كل شيء الا الشعر . ولما استنهضتهم بلاغة القرآن واقبلوا على النظم واجادوا فيه ايما اجادة ونبغ منهم الفحول كعمرو بن ابي ربيعة كبيرهم والحارث بن خالد المخزومي والعرجي وابو دهبل وعبيد الله بن قيس الرقيات اقرّت لهم العرب بالشعر ايضاً

واما سائر قراء العربية والمتكلمين بها بعد حين من ملل الاعاجم ممن دان بالدين الاسلامي او انتشرت بينهم قبائل العرب فما عرفوا الا لغة القرآن والحديث وما تبعهما من كتب الفقه وعلم الكلام مما استُمدّ جميعًا منهما ومعظم ذلك من لغة قريش . واذا رجعنا الى علم النحو الذي يقوم عليه عماد التركيب والتعبير في اللغة راينا انه انما نشأ بفضل القرآن لانه وُضع قبل كل شيء لضبط القراءات القرآنية . ثم لما كُتبت اسفار اللغة وسائر العلوم العربية وغير العربية كان القرآن والحديث مرجعًا للاستدلال على صحة التعبير وإحكام التركيب وضبط

المفردات فكانت لغة قريش في كل ذلك هي اللغة السائدة لحفظها الشعراء واصبحت في شعر المخضرمين والمولَّدين انقى منها في شعر ابناء الجاهلية اذ قلَّ الخليط فيها من سائر لغات العرب وهكذا صارت لغة جميع كتّاب العربية من عربٍ واعاجم ولا عبرة بما طرأ عليها من الخلل والانحطاط وزوال الاعراب بين عامّة المتكلمين بها فان الفساد يتطرّق بمرور الزمان الى كل لسان . وحسب العربية مزيّةً على سائر اللغات الحيّة انه ليس بينهنَّ لغةٌ غيرها حفظت اصول شعرها وكتابتها منذ اربعة عشر قرنًا و بقيت واحدةً في جميع اطراف الارض بين العرب وغير العرب والمسلمين وغير المسلمين

مقابلة

بين لغة قريش المُضَرية ولغة الالياذة اليونيّة

وكيف عاشت الاولى وتلاشت الثانية

قد يُفهم من عنوان هذا الفصل اننا لا نقصد فيه المقابلة بين لسانَي العرب واليونان بالنظر الى ما بينهما من الصلة او الشبَه والاختلاف في المنشإ والوضع والاشتقاق والتركيب فتلك امورٌ ليس هذا موضع البحث فيها . ولكنه لا بدَّ لنا من النظر الى سبب تلاشي لغة الالياذة لزمن يسيرٍ من استحكامها و بقاء لغة قريش حيةً طول هذا الدهر

ان سنَّة النموّ والتحول وتفرّع الاصل الواحد الى اصولٍ شتّى تشمل اللغات كسائر المخلوقات . فقد قلنا ان لسان العرب في الجاهلية تفرق الى فروع كاد كلٌّ منها يقوم لغةً بنفسه ويمتنع التفاهم بين اصحابه لجاء القرآن وازال الخلاف واوثق عرى الارتباط فسادت اللغة القرشية . وهكذا كانت لغة قدماء اليونان فروعًا كثيرة مرجعها الى فرعين كبيرين الدُّوريّ واليونيّ يتكلمهما سكان قلب بلاد اليونان ومستعمراتهم في صقلية وبعض بلاد ايطاليا وغيرها فهما بمثابة

لغة نجد عند العرب مع ما يتبعها من اطراف الحجاز . ويلحق بها فرعٌ ثالث هو الايولي وكان لغة فريق من سكان اسيًّا الصغرى وتساليا وتوابعها فمنشآت فنداروس وثيوكريتُس كانت باللغة الدورية ومنظومات هوميروس وهسيودس كانت باللغة اليونيّة . وان بين اللغتين على تقاربهما فرقًا يضاهي نظيره بين لغات جنوبي الحجاز ونجد واليمن . وكلما كانت تمتد فتوحات اليونان ويكثر الاختلاط كان يطرأ على تينك اللغتين تغيرٌ يبعدهما عن وضعهما وكان كلٌّ من الشعراء والكتّاب ينطق بلغة زمانه ومكانه حتى باتت لغة كلٍّ من بني الفرع الواحد تتميز عن الاخرى بالتعبير والتركيب . فاللغة اليونيّة مثلاً هي التي نطق بها هوميروس في أُخريات القرن التاسع للميلاد . وهي التي كتب بها ثوكيذيذس وهيرودوتُس في القرن الخامس وديموستينيس في القرن الرابع ومع هذا فالفرق بين لغتهم ولغته غير يسير بل قد تجد فرقًا بين لغة ابناء كل قرنٍ وآخر حتى لقد ذهب كُرتيوس في تاريخ اليونان الى انه في زمن الاسكندر لم يكن يحصل التفاهم بين المكدونيين واليونان . وقال فلوطرخوس ان فيلبس وابنه الاسكندر جنحا الى ايثار لغة جيرتهما على لغة قومهما فعدلا اليها في بلاطهما وبطانتهما

وعلى الجملة فقد ظلّ هذا التغيُّر يتعاظم حتى باتت اللغة اليونانية الحديثة لغةً قائمةً بنفسها ولها اصولٌ بعضها اقرب الى اللغات الحديثة منها الى لغة الالياذة . ولهذا ترى نوابغ كتّاب اليونان العصريين مع شدة ما بهم من الغيرة على احياء اللغة اليونانية القديمة والتشبه بها في بعض ما ينشئون لم يغنهم كل ذلك عن نقل الياذة هوميروس واشباهها بالترجمة الى اللغة اليونانية الحديثة فكأنهما لغتان منفصلتان

واما العربية فليس هذا شأنها فان اصول اللغة ما زالت على ما نطق به شعراء الجاهلية وغاية ما يشكل فهمه على قرّائها مفرداتٌ لم تألفها العامّة ومترادفاتٌ متشابهات وتعابير غير مأنوسة في عصرنا

ولكن التباعد بين لغات العامة محصورٌ في الكلام العامي . فالحجازي واليمني

والنجدي والعراقي والمصري والسوري والمغربي وان اختلفت مصطلحاتهم في كل قطر من اقطارهم فهم جميعاً يكتبون بلغةٍ واحدة على اصولٍ لا تختلف شيئاً بين اقليمٍ واقليم . وجميع هذه الاصول مبنيةٌ على اصول لغة القرآن

وان اختلاف منطوق العامة غير خاصٍ بالعربية بل هو يتناول جميع اللغات الحية حتى اذا نظرت الى ارقاهنّ كالفرنسية والانكليزية رأيت فرقاً بيّناً في كلام العامة بين منطوق ابناء قُطرٍ وقُطر وان اتحدت اصول اللغة الفصيحة بين جميع الناطقين بها من ابناء تلك اللغة وغير ابنائها . واذا رجعنا بالتخصيص الى اليونانية الحديثة رأيناها على توحّد لغتها الكتابية متشعّبةً فروعاً بمنطوق عامّة ابنائها فلغة اثينا غير لغة اكريت وكلتاهما تختلفان عن لغات ساقس وقبرس وجزر الارخبيل واسيا الصغرى

وخلاصة ما تقدم ان اللغة العربية اطول اللغات الحيَّة عمرًا واقدمهن عهدًا والفضل في كل ذلك للقرآن . فالالياذة و بلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيودس على علوّ منزلتهما لم تُقم للغة اليونية دعامةً ثابتة حتى في بلادها ولم تقوَ على مقاومة التيار الطبيعي ولكن القرآن وطّد اركان لغة قريش في بلادهم واذاعها في جميع البلاد العربية وسائر البلاد التي طال فيها عهد الاحتلال الاسلامي او كثرت مخالطة العرب الضاربين في اقطار الارض للجهاد والتجارة

اطوار الشعر العربي

او طبقات الشعراء بالنظر الى ازمانهم ومزيَّة كل طبقة منهم

هذا بحثٌ لو تعمّدنا الافاضة فيه لاضطررنا الى التثبُّت من احوال كل عصرٍ من عصور العرب والنظر في شؤون الشعراء وطرائقهم وفنونهم ومناحي نظامهم والرجوع الى مراميهم في شعرهم وطرق معائشهم وبيان انواع اقتباسهم من الاعاجم واقتباس الاعاجم منهم بالنقل والملابسة الى غير ذلك مما يؤدي الى تدوين سفرٍ طويل . ومع هذا فلا بد من ان نلمّ بالموضوع الماماً اجمالياً لئلاً

يفوتنا استجماع اطراف الحديث الذي توخيّناه · وعسى ان يكون لنا في مستقبل الزمن متّسعٌ لاعادة النظر فيه او ينهض اليه باحثٌ من ادبائنا فيلجه من جميع ابوابه ويوفيه حقه بما لا يتيسر في هذا المقام

من الكتّاب من يقسم الشعراء بالنظر الى ازمانهم الى ثلاث طوائف او طبقات اولها شعراء الجاهلية ثم المخضرمون وهم الذين ادركوا الجاهلية والاسلام· ثم المولّدون وهم سائر الشعراء · ومنهم من يزيد طبقةً رابعة وهي طائفة المحدّثين فيحصر المولدين في فئة قليلة من ابناء اوائل الاسلام كالفرزدق وجرير والاخطل ويجعل جميع من اتى بعدهم في عداد المحدثين

واننا ناحون في بحثنا نحو اصحاب التقسيم الاخير بالتسمية دون الترتيب ومستدركون ما يجب استدراكه لاختلاط الطبقات الثلاث الاولى بعضها ببعض وواضعون حدًّا فاصلاً بين كل طائفةٍ واخرى وباحثون في تماسك هذه الحلقات واسباب ترقي الشعر العربي حينًا من الدهر ثم انحطاطه في كلام المحدثين حتى ايام النهضة الاخيرة غير مغفلين في كل ذلك اوجه المقابلة مع منظوم صاحب الالياذة

النهضة الجاهلية

ليس بالامر السهل تعيين الزمن الذي بدأت فيه نهضة الجاهليين لاندثار منظوم الشعراء مما تقدم على الشطر الاخير من القرن الخامس للميلاد او ما تقدم على الهجرة بقرنٍ ونصف قرن · على انه لا ريب ان النهضة الجاهلية المتصلة بالاسلام بدأت قبل الهجرة بقرنين او اكثر لاننا اذا قرأنا شعر المهلهل والشنفرى والمثقّب العبدي والبراق بن رَوحان وغيرهم ممن تقدم على الهجرة زهاء قرن وربع او ما يُنيف رأينا فيه من البلاغة وحسن الانسجام ما لا يجوز الحكم معه انهم كانوا في طليعة شعراء العرب بل لا بد من ان يكونوا نسجوا على منوال نوابغ سبقوهم · ولكن لنا من وجه آخر مساغًا للحكم ان تلك النهضة لم تستحكم الا

في القرن الاول قبل الهجرة ولم تبلغ أوج علاجها الا في بضعة عقود من السنين الملاصقة للاسلام . ودليلنا على ذلك ان شعر معظم المتأخرين في الجاهلية كلبيد ابن ربيعة وزهير بن ابي سلمى وعنترة العبسي والاعشى والنابغة الذبياني ارقى من شعر معظم المتقدمين عليهم في الزمن كالبراق وابي دواد والحارث بن عباد وامثالهم . ولا يضعف هذا الحكم نبوغ بعض المتوسطين بين الفريقين كامرىء القيس وطرفة بن العبد والحارث بن حلزة اليشكري وعمرو بن كلثوم وغيرهم ممن لاصق الاولين ونبغ في منتصف القرن السادس للميلاد فكانوا نبراس تلك النهضة وقادة زمامها اذ يتيسر لنا بهذا الاعتبار ان نعين زمن استحكام النزعة الشعرية في نحو ذلك العهد اي سنة ٥٣٢ للميلاد او قبل الهجرة بتسعين عاماً وهو زمن نبوغ امرىء القيس اول ابناء الفريق المتوسط بين متقدمي الجاهليين ومتأخريهم

ومما يؤيد هذا القول ان كتاب العرب قسموا الشعراء الى طبقات باعتبار جودة الشعر كما قسموهم الى طبقات بالنظر الى التاريخ فجعلوا اصحاب الطبقة الاولى من متأخري الجاهليين ومتوسطيهم كاصحاب المعلقات جميعاً والنابغة والاعشى الاسدي وعديّ بن زيد وعبيد بن الابرص وامية بن ابي الصلت . وعدُّوا سائر من تقدمهم في الطبقة الثانية الا المهلهل فانهم اختلفوا بين ان يكون من الثانية او الاولى

الحدُّ الفاصل

بين شعراء الجاهلية والمخضرمين

اذا حسبنا لاستحكام النزعة الشعرية الجاهلية تسعين عاماً وجعلنا طليعتها امرأ القيس فاننا نحسب لطور الشعر الجاهلي بأسره مئة وخمسين عاماً اولها سنة ٤٧٢ للميلاد وآخرها سنة الهجرة النبوية وزعيم جنده عديّ بن ربيعة الملقب بالمهلهل . وهو معلومٌ ان بعض شعراء الجاهلية ادركوا صدر الاسلام وماتوا

في زمن النبي كزهير وهو الذي قيل فيه ان النبي نظر اليه يوماً وعمره مئة سنة فقال اللهمَّ اعذني من شيطانه قيل فما قال بعد ذلك شيئاً من الشعر · ومنهم من مات في زمن الخلفاء الراشدين كعمرو بن معدي كرب · ومنهم من عمَّر حتى انقضت دولة الراشدين وقامت دولة بني امية كلبيد المتوفى في خلافة معاوية وعمره على ما قيل مئة وخمس واربعون سنة · فامثال هؤلاء يحصل الاشكال في تعيين طبقتهم فتلتبس بين طائفتي الجاهليين والمخضرمين

وقد قيل في تفسير المخضرم هو من ذهب نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الاسلام · او هو من ادرك الجاهلية والاسلام على الاطلاق تشبيهاً بالناقة المخضرمة التي قُطع طرف اذنها كأَن ما ذهب من عمره في الجاهلية ساقطٌ لا يعتدُّ به · وقلَّ من ينطبق عليه القول الاول من فحول شعراء الجاهلية كلبيد العامري الذي عمَّر طويلاً في الجاهلية والاسلام · واما الذين ادركوا الجاهلية والاسلام فكثيرون كزهير والخنساء والحطيئة ممن نبغ في الجاهلية وابي ذؤَيب العجلي وكعب بن زهير وحسَّان بن ثابت ممن نبغ في الاسلام · ولهذا نظر البعض في تعيين الطبقة الى القرب والبعد من الاسلام فكان زهير عندهم جاهلياً ولبيد مخضرماً وربما وضعوا لبيد في طبقتين فقالوا هو جاهلي ومخضرم · وعندنا انه اذا صح احد هذين القولين بالنظر الى الشاعر وصفته فلا يصحُّ شيءٌ منهما بالنظر الى الشعر وصبغته والا لوجب ان نجعل معظم المخضرمين في طبقة الجاهليين ايضاً فتختلط الطبقتان مع ان لكل منهما مزيَّةً خاصةً بها على ما سنبينه في ما يلي

فلذلك وجب اعتبار الصبغة الشعرية في اقوال امثال هؤلاء فمن قال الشعر قليلاً في الاسلام او لم يقله عُـدَّ جاهلياً كزهير ومن ربا قوله في الاسلام بعد ان اسلم وحفظ القرآن ككعب ابنه فهو مخضرم · و يقال مثل ذلك في حسَّان ابن ثابت شاعر النبي فهو زعيم المخضرمين وان قضى نصف عمره في الجاهلية وقال فيها الشعر الحسن

على اني لا اعلم بايّ مساغ يُعدُّ لبيد والخنساء من المخضرمين · فاما لبيد

فان جميع شعره ولا سيما معلقته من لباب الشعر الجاهلي ولم يرووا له في الاسلام الا بيته القائل :

الحمد لله اذ لم يأتني اجلي حتى لبست من الاسلام سربالا

وقيل ان الخليفة عمر استنشده ايام خلافته من شعره فانطلق وكتب سورة البقرة في صحيفة ثم اتى بها وقال : ابدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر فسُرَّ عمر بجوابه واجزل عليه العطاء

واما الخنساء فجميع شعرها قبل الاسلام وبعده فخرٌ ورثاء ونَفَسه واحدٌ وصبغته واحدة وكله جاهليّ ولا وجه لعدّها بين المخضرمين الا ان نحسب من الشعر حماسياتها النثرية المسجَّعة كقولها لابنائها يوم وقعة القادسية : يا بنيَّ انكم اسلمتم طائعين . وهاجرتم مختارين . والله الذي لا اله الا هو انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة . ما هجنت حسبكم . ولا غيَّرت نسبكم . واعلموا ان الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها . وجلّلت نارًا على ارواقها . فتيمموا وطيسها . وجالدوا رئيسها . تظفروا بالمغنم والكرامة . في دار الخلد والمقامة

فان في هذا الكلام مسحةً من بلاغة المخضرمين ولكننا قد قدمنا ان العرب لا تعد هذا الكلام من الشعر في شيء لانه غير مصوغ في القالب الشعري وان كانت معانيه شعرية . فالخنساء ولبيد وامثالها في عرفنا يجب ان يعدوا من شعراء الجاهلية بالنظر الى شعرهم وان صح ان يُحسبوا من المخضرمين بالنظر الى امتداد حياتهم

وهو ثابتٌ ايضًا انه في اوائل الاسلام حصلت فترةٌ في الشعر فاسكتت الشعراء ثم هبُّوا اليه هبَّةً جديدةً والبسوه ثوبًا قشيبًا . قال ابن خلدون : ان الشعر كان ديوانًا للعرب فيه علومهم واخبارهم وكان رؤساء العرب يتنافسون فيه وكانوا يقفون في سوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشبان واهل البصر حتى انتهوا الى المناغاة في تعليق اشعارهم باركان البيت الحرام

ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر الدين والنبوة والوحي وما ادهشهم من اسلوب القرآن ونظمه فسكتوا عن الخوض فيه زمانًا ثم استقر ذلك واونس الرشد في الملة ولم ينزل الوحي في تحريمه وسمعه النبي واثاب عليه فرجعوا الى ديدنهم منه »

فهذه الفترة التي ذكرها ابن خلدون وغيره من مؤرخي العرب هي الحدُّ الفاصل بين الطَّور الاول والطور الثاني من اطوار الشعر العربي . فجميع ما تقدمها شعرٌ جاهليٌ ويلحق به قليلٌ مما تاخر عنها من قول شعراء الجاهلية الذين ادركوا الاسلام واسلموا وبقي شعرهم على صبغته الجاهلية الصرفة كعبدة بن الطبيب كما سنثبت في الفصل التالي بايراد مثالٍ من شعره في الاسلام

الطبقة الاولى

او شعراء الجاهلية

خاض العرب في الجاهلية عباب بحر الشعر وولجوا كلَّ بابٍ من ابوابه فوصفوا وترسَّلوا وتغنَّوا وتغزَّلوا ومدحوا وهجوا ورثَوا ودونوا الاخبار وضربوا الامثال ووضعوا الحكم وتنافروا وتفاخروا وشاعرهم مندفعٌ في كل ذلك بسائقة الطبيعة يفكر في محسوسٍ بين يديه . ومنظورٍ امام عينيه . وعاطفةٍ بين جنبيه . وشعيرةٍ تختلج في صدره . وصورةٍ مرسومةٍ في مخيلته منعكسةٍ عن طُرُق معيشته وفطرته . لا يتطلَّع الى ماوراءها ولا يتكلف الزخرف والتنميق

وكانوا يسددون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يخطئونها ويقولون الشعر عن شعورٍ حيٍّ ولا يتخطَّون الى ما وراء مشهودهم ومعقولهم فجاء شعرهم مثالاً صادقًا لبداوتهم وحضارتهم . حتى لو اندثرت جميع اخبارهم وآثارهم وما بقي الا شيءٌ من شعرهم لتيسر للباحث ان يستخرج منه وصفًا كاملاً لجميع احوالهم كما استخرج الباحثون كثيرًا من غوامض جاهلية اليونان من شعر هوميروس

ويسري هذا الحكم على جميع شعراء الجاهلية من عبدة الاوثان واليهود والنصارى ومن ادرك الاسلام واسلم او لم يسلم · وهم في ذلك سواء في اليمن ونجد والحجاز والعراق وبوادي الشام وسائر اطراف بلاد العرب · فالشاعر منهم إما بدويٌّ عريقٌ في البداوة واما حضريٌّ لاصقٌ بابناء البادية وكلاهما متخلقٌ باخلاق الجاهلية ينزع الى رسم الحقيقة رسماً ناطقاً · فاذا روى حادثةً بسطها بسطاً جلياً والمَّ بها الماماً واضحاً يغنيك عن التخرص والتنقيب نظير ما فعل هوميروس في ايراد كل حوادثه · واليك مثالاً قول المهلهل بعد وقعة السلاّن اذ حضرها مع اخيه كُليب وفرَّ ابن عنق الحية من وجههما :

لو كان ناهٍ لابنِ حيَّةَ زاجرًا ... لنهاهُ ذَا عن وَقعةِ السُّلاَّنِ
يومٌ لنا كانت رئاسةُ اهلهِ ... دونَ القبائل من بني عدنانِ
غضبت معدٌّ غثُّها وسمينُها ... فيهِ مُمالاةً على غسَّانِ
فأزالهم عنَّا كُليبُ بطعنةٍ ... في عَمْرِ بابلَ من بني قحطانِ
ولقد مضى عنها ابن حيَّةَ مُدبرًا · ... تحتَ العجاجةِ والحُتوفُ دوانِ
لمَّا رآنا بالكُلابِ كأنَّنا ... أُسدٌ مُلاوِثةٌ على خفَّانِ
تركَ التي سَحَبت عليه ذُيولَها ... تحت العجاجِ بذِلَّةٍ وهوانِ
ونجا بمهجتهِ وأسلمَ قومَهُ ... مُتسربلينَ رواعِفَ المُرَّانِ
يمشون في حلَقِ الحديدِ كأنَّهم ... جُربُ الجمالِ طُلينَ بالقطرانِ
نِعمَ الفوارسُ لا فوارسُ مَذحجٍ ... يومَ الهياجِ ولا بنو هَمْدانِ
هزموا العِداةَ بكل اسمرَ مارنٍ ... وبهنَّدٍ مِثلِ الغديرِ يَماني

واذا وصف شيئاً فانه يستجليه على علَّته ويستتم تبيان حالته على طبيعته كقول عبدة بن الطبيب يصف ناقته ويشبهها بالثور الوحشي المتذعّر امام الكلاب:

ترى الحصى مشفترًّا عن مناسمها ... كما تجلجلُ بالوغلِ الغرابيلُ [1]

---

(١) المشفتر المتفرق · ويجلجل يحرّك فيذهب دقاقه ويبقى جلاله · والوغل الرديء

كأنها يوم وِرْدِ القوم خامسةً مسافرٌ أشعبُ الرَّوقَين مكحولُ[(١)]

تجتابُ نصعٍ جديدٍ فوق نُقبتِهِ وللقوائم من خالٍ سراويلُ[(٢)]

مُسفَّعُ الوجه في ارساغهِ خدمٌ وفوق ذاك الى الكعبين تحجيلُ[(٣)]

باكرَهُ قانصٌ يسعى بأكلُبِهِ كأنه من صِلاءِ الشمس مملولُ[(٤)]

يأوي الى سَلفعٍ شعثاءَ عاريةٍ في حِجرها تَولَبٌ كالقردِ مهزولُ[(٥)]

يُشلي ضواريَ أشباهًا مجوَّعةً فليس منها اذا أمكنَّ تهليلُ[(٦)]

يَتبعْنَ اشعثَ كالسِّرحان مُنصلتًا له عليهنَّ قيدَ الرمحِ تمهيلُ[(٧)]

فضمهنَّ قليلاً ثم هاج بها سُفْعٌ بآذانها شَينٌ وتنكيلُ[(٨)]

فاستثبت الرَّوعَ في انسانِ صادقةٍ لم تجرِ في رَمدٍ فيها الملاميلُ[(٩)]

---

(١) الخامسة واردة الخمس . والمسافر الخارج في ارض الى اخرى واراد به الثور الوحشي . واشعب الروقين الذي انشعب قرناه

(٢) المجتاب اللابس . والنصع الابيض . شبه الثور لبياضه بلابس ثوب ابيض . ونقبته لونه . والخال برود فيها خطوط سود وحمر

(٣) السفعة سواد يضرب الى الحمرة . والخدم جمع خدمة وهي الخلخال

(٤) مملول اي كأنه مُشتوٍ في مَلَّة وهي الرماد الحار

(٥) يأوي اي الصائد الى امرأته . والسلفع الجرئية البذئة . والتولب ولد الحمار شبَّه ابنها به

(٦) يشلي يدعو . والضواري الكلاب المضرَّاة . والتهليل ان لا يصدق الحملة يقال قد هلَّ الفارس اذا قصَّر

(٧) يعني الكلاب . واراد بالاشعث القانص . والسرحان الذئب . والمنصلت المتجرد في امره . وقيد الرمح قدره

(٨) السفع السود . قوله بآذانها شين اي آذانها مقطعات ببراثنها وذلك لقولهم ان الكلاب اذا عدا فاجتهد في عدوه قطع اذنه بمخالبه لدنوها منها

(٩) اي لما نظر الثور الى الكلاب قد هاجت به ثبت الرَّوع في عينه لما عاينه .

فانصاعَ وانصعن يهفو كلها سَدِكٌ ... كأنهن من الضُّمرِ المزَاجيلُ (١)
فانقضَّ ينفض مدْرِيَّيْنِ قد علقا ... يُخاوِضُ غمراتِ الموت تخذولُ (٢)
شروى شبيهين مكروبًا كعوبهما ... في الجنبتين وفي الاطراف تأسيلُ (٣)
كلاهما يبتغي نهكَ القتال به ... ان السلاح غداة الرَّوع محمولُ (٤)
يخالس الطعن إيشاغًا على دهش ... بساهبٍ سِنْخُهُ في الشأن مطولُ (٥)
حتى اذا مضَّ طعنًا في جواشنها ... وَرَوْقهُ من دمِ الاجواف معلولُ (٦)
ولّى وصُرِّعنَ من حيثُ التبسنَ به ... مضرَّجاتٌ باجراحٍ ومقتولُ
كأنه بعد ما جدَّ النجاهُ به ... سيف جلا حدَّه الاصناعُ مسلولُ

وقوله صادقة اي صلبة صحيحة النظر لا تكذبه . والملاميلُ جمع ملمول وهو المكحالُ يريد انه لم يكن بعينه رمد يجري له فيها ململ

(١) يهفو اي كانه يطير فوق الارض من الخفة . وانصاع اخذ ناحيةً . والسدك الملازم . يقول كل الكلاب ملازم للثور لا يفارقه . والمزاجيل المزاريق يُزجل بها

(٢) اي فاهتز الثور حميةً وانفًا من الفرار من الكلاب . والمدريان القرنان . وعلقا صلبا . وتخذول اي لا عون له

(٣) شروى الشيء مثله . وقوله شبيهين يعني القرنين شبههما بالرمحين . والمكروب الشديد الفتل واصل ذلك في الحبال ثم قيل لكل ممتلئ شديد مكروب . واراد بالجنبتين الجنبين . والتأسيل الاستواء والطول

(٤) كلاهما اي كلا القرنين . والنهك الشدة والاستقصاء .

(٥) اي يطعنها مخالسةً لكثرتها . والايشاغ الخفة . والساهب الطويل . وسنخ الشيء اصله . والشأن ملتقى كل قبيلتين من قبائل الرأس الاربع . والمطول الممدود

(٦) مض اوجع واحرق . والجواشن الصدور . والمعلول الذي سقي الدم مرة

مُستقبلَ الرّيح يهفو وهو مُبترِكٌ لسانه عن شمال الشدق معدولُ (١)
يخفي الترابَ باظلاف ثمانيةٍ في اربع مسّهنّ الارضَ تحليلُ (٢)
له جنابانِ من نقعٍ يثوّرُه فرجه من حصى المَعزاء مكاولُ (٣)

وهذا الشعر وان كان مقولاً في اوائل الاسلام فقائلهُ جاهليٌّ وليس في شعر ابناء الجاهلية ما يفوقه تمثيلاً لنزعتهم الشعرية . ومثله قول بشر بن عوانة في الاسد :

افاطمَ لو شهدتِ ببطن خبتٍ وقد لاقى الهزَبرُ أخاكِ بشرا (٤)
إذًا لرأيتِ ليثًا زار ليثًا هزبرًا أغلبًا لاقى هزبرا (٥)
تبهنسَ ثم احجم عنهُ مهري محاذرةً نقلتُ عُقرتَ مُهرا (٦)
أنل قدميَّ ظهر الارضِ إني رأيتُ الأرضَ اثبتَ منكَ ظهرا
وقلتُ له وقد ابدى نِصالاً محدّدةً ووجهًا مكفهرًّا

بعد مرة أخذ من العلل وهو الشربة الثانية وانما قال دم الاجواف لان الثور تعمد مقاتل الكلاب

(١) المبترك المعتمد في سيره لا يترك جهدًا . وقوله مستقبل الريح يستروح بها جوفه لحرارة التعب

(٢) يخفي الترابَ يستخرجهُ لشدة عدوه . وقوله مسهنّ الارض تحليل اي على قدر تحلّة اليمين كأنه اقسم ليمسن الارض

(٣) الجنابان الناحيتان يقول قد ارتفع له من جانبيه غبار من شدة عدوه . والمعزاء الارض ذات الحصى اي انه لشدة عدوه يرد الحصى على فرجه فكأنه اكليل له وهذا غاية شدة العدو

(٤) الخبت المطمئن من الارض وفيه رمل . والهزبر الاسد

(٥) الاغلب من صفات الاسد للمبالغة في الغلب

(٦) تبهنس تبختر

يكفكف غيلة إحدى يديه ويبسط للوثوب علي اخرى
يدل بمخلب وبحد ناب وبالعظات تحسبهن جمرا
وفي يمناي ما في الحدّ أبقى بمضربه قراع الموت اثرا
ألم يبلغك ما فعلت ظباه بكاظمة غداة لقيت عمرا
وقلبي مثل قلبك ليس يخشى مصاولة فكيف يخاف ذعرا
وأنت تروم الاشبال قوتًا واطلب لابنة الاعمام مهرا
ففيم تسوم مثلي أن يولي ويجعل في يديك النفس قسرا
نصحتك فالتمس يا ليث غيري طعامًا ان لحمي كان مرًّا
فلما ظن أن الغش نصحي وخالفني كأني قلت هُجرا
مشى ومشيت من أسدين راما مرامًا كان اذ طلباه وعرا
هززت له الحسام فخلت أني سللت به لدى الظلماء فجرا
وجدت له بجائشة أرته بأن كذبته ما منته غدرا [1]
واطلقت المهند من يميني فقد له من الاضلاع عشرا
فخر مجدلاً بدم كأني هدمت به بناء مشمخرًّا
وقلت له يعز علي أني قتلت مناسبي جلدًا وفخرا
ولكن رمت شيئًا لم يرمه سواك فلم أطق ياليث صبرا
تحاول أن تعلمني فرارًا لعمر ابيك قد حاولت نكرا
فلا تجزع فقد لاقيت حرًّا يحاذر ان يعاب فمت حرًّا
فان تك قد قتلت فليس عارًا فقد لاقيت ذا طرفين حرًّا

وهذا هو بالنفس نسق هوميروس في استتمام مزايا موصوفاته . وان هذه الافاضة في التمثيل ضعفت كثيرًا في شعر المخضرمين ومن وليهم

(١) الجائشة النفس . يتهكم على الاسد ويقول اظهرت له اني جدت له بنفسي ولكن نفسي كذبته تلك الامنية وفتكت به

وقد كان ذلك اسلوب الجاهليين في جميع ما مثّلوه بشعرهم مما يتناول احوال الحرب والسلم والعادة والخلق والمعيشة في الاقامة والتسيار

واذ كان محسوسهم خشناً ومطالعاتهم غير ممتدّة كثيرًا الى ماوراء الحروب واخبار القبائل كان معظم شعرهم في ما وافق ذلك المحسوس وتلك المطالعات فأفاضوا في وصف البوادي والقفار واكثروا من وصف معيشتهم واحوالها ومدح الكرم والوفاء وقِرى الضيف واسهبوا في ذكر ما لديهم وحواليهم من سلاحٍ وخيلٍ وابلٍ وما اشبه من معدّات زمانهم ومكانهم

ومع هذا فان لغتهم وان كان فيها شيءٌ كثيرٌ من خشونة معيشتهم فقد كانت متسعة للغرام والحكَم الرائعة والحماسة ووصف الشعائر والاخلاق فتلك جميعها امورٌ منطبعة في فطرة الجاهلي انطباعها في نفوس اعرق الخلق في الحضارة . بل ربما كانت اصفى وانقى في اذهان ابناء البادية . فايُّ شعر في الفخر والحماسة اسمى من قول السموأل :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضهُ فكل رداء يرتديه جميلُ
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيلُ
تعيرُنا انَّا قليلٌ عديدنا فقلت لها ان الكرامَ قليلُ
وما قلَّ من كانت بقاياه مثلنا شبابٌ تسامى للعلى وكهولُ
وما ضرَّنا انَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الاكثرين ذليلُ
لنا جبلٌ يحتله من نجيرهُ منيعٌ يرد الطرف وهوَ كليلُ
رسا أَصله تحت الثرى وسما به الى النجم فرع لا ينالُ طويلُ
هو الابلق الفرد الذي شاع ذكرهُ يعزُّ على من رامه ويطولُ
وانَّا لقومٌ لانرى القتل سُبَّةً اذا ما رأته عامرٌ وسلولُ
يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرههُ آجالهم فتطولُ
وما مات منا سيدٌ حتف أَنفهِ ولا طُلّ يومًا حيث كان قتيلُ
تسيلُ على حد الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيلُ

صفونا ولم نكدُرْ واخلص سرَّنا اناثٌ أطابت حملنا وفحولُ
علونا الى خير الظهور وحطنا لوقتٍ الى خير البطون نزولُ
فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهامٌ ولا فينا يعدُّ بخيلُ
وننكر ان شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقولُ
اذا سيّد منا خلا قامَ سيدٌ قؤول لما قال الكرام فعولُ
وما أُخمدت نارٌ لنا دون طارقٍ ولا ذمّنا في النازلين نزيلُ
وايامنا مشهورةٌ في عدوّنا لها غررٌ معلومةٌ وحجولُ
واسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ بها من قراع الدارعين فلولُ
معوَّدةٌ ان لا تسل نصالها فتغمد حتى يستباحَ قتيلُ
سلي ان جهلتِ الناسِ عناوعنهمُ فليس سواءٌ عالمٌ وجهولُ
فان بني الريان قطب لقومهم تدورُ رحاهم حولهم وتجولُ

واي قول في الحكمة احسن من قول زهير :

وأعلم ما في اليومِ والامسِ قبلهُ ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عمِ
رأيت المنايا خبط عشواء من تصبْ تمتهُ ومن تخطئ يعمرْ فيهرمِ
ومن لا يصانعْ في أُمورٍ كثيرةٍ يضرَّس بأنيابٍ ويوطأ بمنسمِ
ومن يجعل المعروف من دون عرضهِ يفرْهُ ومن لا يتق الشتمَ يشتمِ
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلهِ على قومه يستغنَ عنه ويذممِ
ومن يوف لا يذممْ ومن يهدَ قلبهُ الى مطمئنّ البرّ لا يتجمجمِ
ومن هابَ اسبابَ المنايا ينلنهُ وان يرقَ اسبابَ السماء بسلّمِ
ومن يجعل المعروف في غير اهلهِ يكن حمدهُ ذمًّا عليهِ ويندمِ
ومن يعص اطراف الزجاجِ فانهُ يطيع العوالي ركّبت كل لهذمِ
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحهِ يهدَّم ومن لا يظلم الناس يظلمِ
ومن يغترب يحسب عدوًّا صديقهُ ومن لا يكرّمْ نفسهُ لا يكرّمِ
ومن لم يزل يسترحلُ الناسَ نفسهُ ولا يعفها يومًا من الذل يندمِ

ومهمًا تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ وان خالها تخفى على الناس تعلمِ
وكائنْ ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادتهُ او نقصهُ في التكلمِ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادهُ فلم يبقَ الا صورةُ اللحم والدمِ
وانَّ سفاهَ الشيخ لاحلمَ بعدهُ وانَّ الفتى بعد السفاهة يحلمِ
سألنا فأعطيتم وعدنا وعدتمُ ومن أكثر التسآلَ يومًا يُحرمِ

واليك مثالاً في الغزل من يتيمة سُوَيد بن ابي كاهل اليشكري :

بسطتْ رابعةُ الحبلَ لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع [١]
حرَّةٌ تجلو شتيتًا واضحًا كشعاعِ الشمس في الغيم سطع [٢]
صقلتهُ بقضيب ناضرٍ من أراكٍ طيّبٍ حتى نصع [٣]
ابيض اللون لذيذًا طعمهُ طيّبَ الريق اذا الريق خدع [٤]
تمنح المرآةَ وجهًا واضحًا مثلَ قرن الشمس في الصحو ارتفع
صافيَ اللون وطرفًا ساجيًا أكحل العينينِ ما فيه قمع [٥]
وقرونًا سابغًا اطرافها غلّلتها ريح مسك ذي فنع [٦]
هيجَ الشوق خيالٌ زائرٌ من حبيبٍ خفرٍ فيه قدع [٧]
آنس كان اذا ما اعتادني حال دون النوم مني فامتنع
وكذاك الحبُّ ما اشجعهُ يركب الهول و يعصي من وزع

---

(١) الحبل بمعنى الوصل او العهد والميثاق . وما اتسع اي بقدر امتداده
(٢) الشتيت الثغر المفلج
(٣) اراد بالقضيب الناضر المسواك
(٤) يقال خدع ريقه اذا تغير
(٥) الساجي القليل التحرك . والقمع كمد في لحم الموق
(٦) القرون الذوائب . وغللتها دخلت فيها . والفنع الكثرة
(٧) الخفر الحياء . والقدع الرد يقال قدعته اي رددته

فأبيت الليل ما أرقبه … وبعينيَّ اذا نجمٌ طلع [١]
واذا ما قلت ليل قد مضى … عطفَ الأوَّلُ منه فرجع
يسحب الليل نجوماً ظُلَّعاً … فتواليها بطيئات التبع
ويزجّيها على ابطائها … مُغربَ اللون اذا اللون انقشع [٢]
فدعاني حبُّ سلمى بعد ما … ذهب الجِدَّةُ مني والرَّيع [٣]
خبلتني ثم لما تشفني … ففؤادي كل أوبٍ ما اجتمع
ودَعتني برُقاها انها … تُنزلُ الاعصمَ من رأس اليفع
تُسمعُ الحُدّاثَ قولاً حسناً … لو أرادوا غيره لم يُستمع
كم قطعنا دون سلمى مهمهاً … نازحَ الغورِ اذا الآلُ لمع
في حرورٍ ينضج اللحمُ بها … يأخذ السائرَ منا كالصقع [٤]

وهم وان لم يبلغوا في الغزل رقة المتأخرين فلهم بوصفه سذاجة تقول كثيراً من المعنى في الكلام القليل ولا سيما اثناء مزجه بذكر الحروب كقولهم في ما ينسب الى عنترة:

ولقد ذكرتكِ والرماح نواهلٌ … مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لانها … لمعت كبارق ثغرك المتبسمِ

تلك كانت على الجملة منازعهم في شعرهم وذلك هو نتاج قرائح الجاهلية وانت ترى ان اصحاب تلك القرائح لم يكونوا ابناء جاهليةٍ جهلاء من الجهل بل ما احراهم ان يكون أُطلق عليهم ذلك لشيوع عبادة الاوثان بينهم ولعلَّ هذا هو المراد بما جاء في سورة المائدة « الحكم الجاهلية يبغون » اذ قالوا في تفسيرها

(١) ويروى ويعنّيني اي يتعبني يقول انه ساهرٌ ليس ينام فهو يراعي النجوم
(٢) المغرب الابيض يعني بياض الصبح . وانقشع ذهب . و يزجيها يسوقها
(٣) الريع اول الشباب
(٤) الحرور الريح الحارة . والصقع حرارة تصيب الرأس

الملة الجاهلية

وقد اوردنا من قولهم فضلاً عما تقدم امثلةً شتى من مرادفات اقوال هوميروس في شرح الالياذة

ومدة هذا الطور الشعري زهاء مئة وخمسين عاماً . ومن صفوة فحوله امرؤ القيس وطرفة بن العبد والحارثة بن حلِّزة وعمرو بن كلثوم وعنترة العبسي وزهير ابن ابي سلمى ولبيد بن ربيعة وهؤلاء هم اصحاب المعلقات والنابغة الذبياني والمهلهل والاعشى الاسدي وعديّ بن زيد وعبيد بن الابرص وبشر بن ابي حازم وامية ابن ابي الصلت والسموأل والشنفرى ودريد بن الصمّة

ومزيته البساطة والبداهة واقتفاء الفطرة وتمثيل الحقيقة في رسم الطبيعة . فهو في جميع ذلك اعلى طبيعةً من شعر المتاخرين من العرب ولا يفوقه شيء من شعر المتقدمين من سائر الامم حتى اليونان والرومان

الطبقة الثانية

او شعراء المخضرمين وشعراء الدولة الاموية

علمتَ ان النهضة الشعرية كانت في ريعانها عند ظهور الاسلام فجاء القرآن واسكت الشعراء . وما اسكتهم الا ليزيد نهضتهم استحكاماً ويملأ حوافظهم ببلاغته الخلاّبة . فاندفعوا اندفاع السيل المنهمر واذهانهم ملأى بما ادّخرت من الشعر الجاهلي وما ضمّت اليه من البلاغة القرآنية فاجتمعت لهم بداهة الفكر وسموّ التصوّر ودقة التعبير

وقد أُلحقتْ شعراء الدولة الاموية بالمخضرمين اولاً — لان النفحة القرآنية اثارت نفوسهم إثارتها للمخضرمين لقرب عهدهم بها . فنَفَس حسّان ونَفَس الفرزدق واحد . وجرير يماثل كعب بن زهير ومثله الاخطل وان كان نصرانياً . بل ربما علت طبقة شعراء الدولة الاموية عمن تقدمهم من المخضرمين في البلاغة لشبوبهم عليها وتأصّلها في نفوسهم

وثانياً — لان الشعراء كانوا اعزّ نفساً وارفع شأناً في الدولة الاموية منهم في الدولة العباسية وما وليها . وسببه ان الدولة الاموية قامت على كُره من الفريق الاعظم من المسلمين فكانت في حاجة الى استمالة الشعراء فدلّوا وعزّوا ولم يهينوا كما هانوا بعد ذلك الزمن اذ باتوا يطلبون الزلفى تقرّباً من الخلفاء وبطانتهم طمعاً بمال وجرًّا لمغنم وشتان ما كرامة المتزلّف والمترفع . فحسّان مدح النبي ولكنه مدحه شغفاً بمناقبه . وتصح المشاكلة بينه وبين الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين ولكنها لا تصحّ بينهما وبين مُدّاح معظم المولّدين والمُحدثين

وثالثاً — لان شعراء العرب حتى اواخر الدولة الاموية لم يألفوا ترف الحضارة المتسرّب اليهم من الرومان والفرس بالمخالطة فبقيت مسحة الفطرة الجاهلية ظاهرةً في شعرهم فهم والمخضرمون طبقةٌ واحدة لا يتخللها فاصل

ثم انه بالنظر الى معنى لفظة المخضرم في عُرف كتّاب العرب لا ينكر اطلاقها على شعراء الدولة الاموية لانهم قد يعنون بها كل متوسط بين عصرين كما اطلقوها على مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية يريدون بهم الذين ادركوا الثانية من شعراء الاولى . فلا بأس علينا بهذا الاعتبار ان نطلقها توسعاً على شعراء الدولة الاموية لتوسط كثيرين منهم بين الخلفاء الراشدين ودولة بني امية والتصاق الباقين بهم

فيبقى علينا النظر في المتأخرين من شعراء بني امية الذين ادركوا دولة بني العباس . فامثال هؤلاء يقال فيهم ما تقدم في متأخري الجاهليين الذين ادركوا الاسلام . فمن ربا شعرهُ في دولة الامويين وبقيت فيه صبغة المخضرمين كان مخضرماً ومن ربا شعره في دولة العباسيين فكان قولهُ اميل الى الرقة منه الى البلاغة كان مولّداً . ولا يخرج عن هذا التعريف الا نوابغ قليلون كبشّار بن بُرد الذين عاصر الدولتين ولبس الحلتين وفصّل من الشعر ما شاء لما شاء فكان من ابلغ المخضرمين بقوله :

ابى طللٌ بالجزع ان يتكلما   وما ذا عليه لو اجاب متيّما

و بالجزع آثار بقين و باللوى ملاعب لا يعرفن الا توهما

ومن ارق المولدين شعرًا بقوله :

لست مكفي كفه ابتغي الندى ولم أدر ان الجود من كفه يعدي

فلا انا منه ما افاد ذوو الغنى أفدت واعداني فاتلفت ما عندي

ومثل بشار في المخضرمين مثل النابغة الجعدي في الجاهليين فالنابغة شعره جاهلي عريق في البداوة . وهو القائل ايضًا :

الحمد لله لاشريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

المولج الليل في النهار وفي اللي ل نهارًا يفرج الظلما

الحافظ الرافع السماء على الار ض ولم يبن تحتها دعما

الخالق البارئ المصوّر في الأر حام ماء حتى يصير دما

وليس في شعر المخضرمين شيء ينطبق على المعاني القرآنية ويمثل بلاغتها كهذه الابيات

وقد كان شعر المخضرمين آية في علو الطبقة ومتانة السبك يربو بهما على ما تقدم عنه وما تأخر من سائر الشعراء . ولكن مبلغهم من الرقي في الحضارة اضعف فيهم نزعة المتقدمين الفطرية فقصروا فيها عن المتقدمين . ولم يمكنهم من التأنق في المعيشة بما استتب للعرب بعدهم من مزينات العمران فلم يدركوا شأو المولدين بالرقة والتصرف بالمعاني . وفي ما سوى ذلك كان شعرهم غاية الغايات

ولا فرق في ذلك بين شعراء النبي والخلفاء الراشدين كحسان بن ثابت وكعب بن زهير وشعراء الدولة الاموية كذي الرمة وعبيد الراعي بل ربما كان شعر الدولة الاموية أعرق في البلاغة كما تقدم . وفي ما يلي من امثلة شعرهم ما يؤيد هذا القول

قال حسان يمدح النبي ويفتخر:

الله اكرمنا بنصر نبيه وبنا اقام دعائم الاسلام

وبنا اعز نبيه وكتابه واعزنا بالضرب والاقدام

في كل معتركٍ تطير سيوفنا — فيه الجماجم عن فراخ الهامِ
ينتابنا جبريل في ابياتنا — بفرائض الاسلام والاحكامِ
يتلو علينا النور فيها محكماً — قسماً لعمرك ليس كالاقسامِ
فنكون اول مستحلّ حلاله — ومحرّمٍ لله كل حرامِ
نحن الخيار من البرية كلها — ونظامها وزمامُ كل زمامِ
الخائضو غمرات كل منيةٍ — والضامنون حوادث الايامِ
سائل ابا كربٍ وسائل تبّعاً — عنا واهل العتر والازلامِ
انا لنمنع من اردنا منعه — ونجود بالمعروف للمعتامِ
وترد عادية الخميس سيوفنا — ونقيم رأس الاصيد القمقامِ
فلئن فخرت بهم لمثل قديمهم — نفخر اللبيب بهِ على الاقوامِ

ودونك مثالاً من مشوبة كعب بن زهير التي مطلعها : بانت سعاد ... وقد وجّهها الى النبي يعتذر اليه فامّنه بعد ان كان اهدر دمه

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهم — انك يا ابن ابي سلمى لمقتولُ
وقال كل خليل كنت آمله — لا أُلهينك اني عنك مشغولُ
فقلت خلوا سبيلي لا أَبالكمُ — فكل ما قدر الرحمن مفعولُ
كل ابن انثى وان طالت سلامته — يوماً على آلة حدباء محمولُ
انبئت ان رسول الله اوعدني — والعفو عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة الـ — قرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ
لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم — اذنب وان كثرت فيَّ الاقاويلُ
لقد اقوم مقاماً لو يقوم به — ارى واسمع ما لو يسمع الفيلُ
لظل يرعد الا ان يكون له — من النبي باذن الله تنويلُ

فقد جمع في هذه الابيات القليلة بين الاعتذار والحكمة والمدح والفخر بأبدع اسلوب وابلغ عبارة

ومن قول الاخطل في الهجو :

وكنت اذا لقيتُ عبيد تيمٍ وتيماً قلتُ أيُّهمُ العبيدُ

لئيم العالمين يسود تيماً وسيدهم وان كرهوا مَسودُ

وقد زعم الاخطل انه اهجى العرب بهذين البيتين

ومن امثلتهم في النسيب قول ذي الرمة :

الا يا اسلمي يادار ميّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطرُ

لها بشرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رخيم الحواشي لاهراءٌ ولا نزرُ

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالالباب ما تفعل الخمرُ

ومَن ابلغ من الامام علي بن ابي طالب اذ قال مبتهلاً لله تعالى :

لك الحمد ياذا المجد والجود والعلا تباركت تعطي من تشاء وتمنعُ

الهي وخلاّقي وحرزي وموئلي اليك لدى الاعسار واليسر افزعُ

الهي لئن خيبتني او طردتني فمن ذا الذي ارجو ومن اتشفعُ

الهي لئن جلّت وجمت خطيتي فعفوك عن ذنبي اجلُّ واوسعُ

الهي لئن اعطيت نفسيَ سؤلها فها انا في روض الندامة ارتعُ

الهي ترى حالي وفقري وفاقتي وانت مناجاتي الخفية تسمعُ

الهي فلا تقطع رجائي ولا تزغ فؤادي فلي في باب جودك مطمعُ

الهي أجرني من عذابك انني أسيرٌ ذليلٌ خائفٌ لك اخضعُ

الهي فآنسني بتلقين حجتي اذا كان لي في القبر مثوًى ومضجعُ

الهي لئن عذّبتني الف حجةٍ فحبل رجائي منك لا يتقطعُ

الهي اذا لم ترعني كنت ضائعاً وان كنت ترعاني فلست أضيعُ

الهي اذا لم تعفُ عن غير محسنٍ فمن لمسيءٍ بالهوى يتمتعُ

الهي لئن قصرت في طلب التقى فلست سوى ابواب فضلك اقرعُ

الهي اقلني عثرتي وامح حوبتي فاني مقرٌّ خائف اتضرّعُ

الهي لئن خيبتني او طردتني فما حيلتي يا رب أم كيف أصنعُ

الهي حليف الحب بالليل ساهرٌ يناجي ويبكي والمغفل يهجعُ

وكلهم يرجو نوالك راجياً لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمعُ
الهي يمنيني رجائي سلامةً وقبح خطياتي عليَّ يشنعُ

وان من اصدق الامثلة على علو طبقة هذه الطائفة من الشعراء قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين علي بن الحسين التي قيل ان اهل البيت لم يمدحوا بمثلها ولهذا اوردناها بطولها وهي : (١)

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلمُ
اذا رأته قريش قال قائلها الى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
ينمى الى ذروة العزّ التي قصرت عن نيلها عرب الاسلام والعجمُ
يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم اذا ما جاء يستلمُ
يغضي حياء ويغضى من مهابته . فلا يكلم الا حين يبتسمُ
من جدّه دان فضل الانبياء له وفضل امته دانت له الامُ
ينشقُّ نور الهدى من نور غرّته كالشمس ينجابُ عن اشراقها الظلمُ

(١) قال الفرزدق هذه القصيدة يوم حج هشام بن عبد الملك الاموي وطاف بالبيت واراد ان يستلم الحجر الاسود فلم يصل اليه لكثرة الزحام فنُصب له منبر فجلس عليه وحوله جماعة من اهل الشام فبينما هو كذلك اذ اقبل زين العابدين يريد الطواف فلما انتهى الى الحجر الاسود تنحى الناس له حتى استلم الحجر فقال رجل من اهل الشام من هذا الذي قد هابه الناس هذه المهابة فقال هشام لا أعرفهُ مخافة ان يرغب فيه اهل الشام وكان الفرزدق حاضرًا فقال انا اعرفه وانشد بعد ذلك هذه القصيدة . فغضب هشام وحبس الفرزدق بعسفان فعلم زين العابدين وارسل اليه اربعة آلاف درهم فردّها الفرزدق وكتب اليه انما مدحتك بما أنت اهل له فأعادها زين العابدين وقال تعاون بها على دهرك فانَّا اهل بيت النبي اذا وهبنا شيئًا لا نستعيده . وقالوا كفى بالفرزدق ان يكون قال هذه القصيدة حتى يدخل الجنة

مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيمُ
هذا ابن فاطمةٍ ان كنت جاهله ... بجده انبياء الله قد ختموا
الله فضله قدماً وشرفه ... جرى بذاك له في لوحهِ القلمُ
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من انكرت والعجمُ
كلتا يديه غياثٌ عمَّ نفعها ... يستوكفان ولا يعروهما العدمُ
سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنان حسن الخلق والكرمُ
حمال اثقال اقوامٍ اذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعمُ
ما قال لا قط الا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاءه نعمُ
لا يخلف الوعد ميمونٌ نقيبته ... رحب الفناء اريبٌ حين يعترمُ
عمَّ البرية بالاحسان فانقشعت ... عنه القتارة والاملاق والعدمُ
من معشرٍ حبهم دينٌ وبغضهم ... كفرٌ وقربهم منجىً ومعتصمُ
ان عدَّ اهل التقى كانوا أئمتهم ... او قيل من خير اهل الارض قيل همُ
لا يستطيع جواد بُعد غايتهم ... ولا يدانيهم قومٌ وان كرموا
هم الغيوث اذا ما ازمةٌ ازمت ... والاسد اسد الشرى والبأس محتدمُ
لا ينقص العسر بسطاً من أكفهم ... سيان ذلك ان اثروا وان عدموا
يُستدفعُ السوء والبلوى بحبهم ... ويُستزاد به الاحسان والنعمُ
مقدَّمٌ بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل بدء ومختومٌ به الكلمُ
يأبى لهم ان يحل الذم ساحتهم ... خيم كريم وأيدٍ بالندى عصمُ
ايُّ الخلائق ليست في رقابهم ... لاوليّة هذا او له نعمُ
من يعرف الله يعرف اوّلية ذا ... والدين من بيت هذا ناله الاممُ

هذا جلُّ ما يمكن ايراده في مثل هذا الموضع من شعر ابناء هذه الطبقة ومزيته كما ترى بلاغةٌ في المعنى ومتانةٌ في التعبير واحكام في التركيب مع ميل الى الرقة . وتلك ايضاً من مزايا الالياذة . فان بلاغة الاصل لاتفوقها بلاغةٌ في الكلام اليوناني . فان ظهر تقصيرٌ في التعريب فتبعتهُ على المعرب دون

المنشىء · وان فيها من متانة التعبير ما لا يفوقه شيء في شعر جميع الامم ولا سيما في مشاكلة الالفاظ للمعاني وحكاية الاصوات مما اشرنا اليه في مواضعه

ومدة هذا الطور الشعري مئة وخمسة وثلاثون عاماً تبتدىء من الهجرة وتنتهي بقيام الدولة العباسية

وعروة وصله مع الطور الاول او طبقة الجاهليين النابغة الجعدي وامثاله · ومع الطور الثاني او طبقة المولدين بشّار بن بُرْد

وفحوله في صدر الاسلام حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة ومالك بن نُوَيره والعباس بن مرداس والنمر بن تولب وابو ذؤيب الهذلي · وفي عصر الدولة الاموية القطامي والاخطل النصرانيان وجرير الخطفي والفرزدق وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت بن زيد وارطاة بن سهية والاعشى ابن ربيعة والاعشى التغلبي

الطبقة الثالثة

المولَّدون أو شعراء عصر العباسيين

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ للهجرة (٧٥٠ م) والسلطنة الاسلامية موطدة الدعائم مشيدة الاركان وغزاة العرب ضاربون في المشارق والمغارب يقوضون ما تداعى من مباني الفرس والرومان فينبذون الانقاض البالية ويشيدون على اسس الحزم دولةً قيض الله لها ان تكون دولة العزّة والسلطان في ذلك الزمان · فامتلأت خزائن الخلفاء بكسب المجاهدين وجباية الاموال وتسرّب ما فاض منها الى بيوت المقرّبين وصنائعهم من اميرٍ وفقيرٍ وعميد وشريد · فذاقوا حلو حضارة الدولتين الهاويتين وتبدلوا مرقعة عمر ذلك الدثار الرثّ الذي ضمَّ بين رُدْبنه عماد الاسلام والمسلمين ببزّة الخزّ والديباج · وعُلالته من لبنٍ وتمرٍ وايسر الادام بشهيّ طعامٍ لُماظته الفالوذ والسكباج · وذلك الرّحل على بعيرٍ قارح يمتطيه الخادم والمخدوم وهما سواء في شرع الاسلام بالسروج الموشّاة على الجياد المطهمة تحفُّ بها مواكب الحشم والغلمان · فعلت القصور

ووُشيّت الخدور وزها الرياش وانبسط المعاش . والشعراء من افراد تلك الامة يرقون رُقيّها في معارج العمران

زعموا ان شاعرًا بدويًّا من رعاة الماشية ممن دبّ وشبّ بين الكباش والنعاج قدم حاضرةً عامرة فاكرمه صاحبها فمدحه بهذين البيتين :

انت كالدلو لا عدمناك دلوًا من كثير العطا قليل الذنوبِ
انت كالكلب في الحفاظ على الو دّ وكالتيس في قراع الحروبِ

فهمّ بعض اعوان الامير بقتله فقال الامير خلّ عنه فذلك ما وصل اليه علمه ومشهوده . ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنًا وقد لانعدم منه شاعرًا مجيدًا . فما اقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق الآخذ بمجامع القلوب وهو في زعم بعضهم صاحب الابيات التالية :

يا من حوى ورد الرياض بخدّه وحكى قضيب الخيزران بقدّهِ
دع عنك ذا السيف الذي جرّدته عيناك امضى من مضارب حدّهِ
كلُّ السيوف قواطع ان جردت وحسام لحظك قاطعٌ في غمدهِ
ان رمت تقتلني فانت مخيرٌ من ذا يعارض سيدًا في عبدهِ

ومهما يكن قدر الصحة من هذه القصة المرويّة على اساليب مختلفة فان فيها اشارة بيّنة الى تأثير الاحوال بافكار الرجال وفعل الحضارة بقرائح الشعراء

وهذا كان شأن الشعراء في زمن الدولة العباسية فانهم رتعوا في ارجاء ذلك الملك الفسيح متربعين بعد شظف العيش على الطنافس الوثيرة في المنازل الانيقة امام الحدائق الغناء . وخلفاؤهم يصعدون بالامة في سلم المدنية يحرصون على استثمار ذلك الفتح المبين فيدّخرون ما تلقوه عمن تقدمهم ولا يألون جهدًا في احكامه واتقانه حتى بهروا الغرب بما تجمع لديهم من ذخائر السلف النفيسة . وان التحف الغراء التي كان هارون الرشيد ينفح بها شارلمان من غرر تلك الكنوز ومن جملتها ساعته التي تلقاها سلطان المغرب آيةً من الآيات لا تبقي مجالاً للريب في مبلغ الثروة العباسية واستحكام النهضة وسريانها من العراق

الى مصر والشام والاندلس وسائر البلاد التي طرقها المسلمون

فلا بدع وكل ذلك مشهود الشعراء ان تتثقف اذهانهم وتتروض نفوسهم وتتسع مداركهم ويرق تصورهم ويمرحوا في روضٍ من الشعر اريض يجولون فيه جولةً لم تتوفر اسبابها لسلفائهم

ولهذا لم يكن لشاعرٍ جاهليٍ او مخضرم ان يبدع ابداع الرقاشيّ بقوله :

نبهت ندماني الموفي بذمته ... من بعد اتعاب طاساتٍ واقداحِ
فقال خذ واسقني واشرب وغنِّ لنا ... يا دار مثواي بالقاعين فالساحي
فما حسنا ثانياً او بعض ثالثةٍ ... حتى استدار وردَّ الراح بالراحِ

او يرقَّ رقةَ ابي نُواس بقوله :

ومستطيلٍ على الصهباء باكرها ... في فتية باصطباح الراح حذّاقِ
فكل شيءٍ رآه ظنه قدحاً ... وكل شخص رآه قال ذا الساقي

فلا ريب ان هذين القولين اوقع في النفس من قول عنترة :

ولقد شربت مع الندامى بعد ما ... ركد المواجر بالمشوف المعلمِ
بزجاجة صفراء ذات اسرّةٍ ... قرنت بازهر بالشمال مفدمِ

فاذا ابدع عنترة بهذا الوصف في زمانه بين قومٍ يهيمون في الفلوات على ظهور الابل بين مضارب البادية فانه لا يطرب جلساء ابي نواس والرقاشي في محافل الانس ومغاني التأنق والعيش الرغيد

وقد بلغ المولدون الدرجة القصوى من التصرف بالمعاني وجزالة اللفظ ودقة السبك فصعدوا بالشعر درجةً لم يبلغها المتقدمون وهيهات ان يدركها المتأخرون . وكان هذا ديدن الفريق الاعظم منهم في جميع الابواب التي طرقوها . فايُّ غزلٍ ارق من قول ابي نواس :

حامل الهوى تعبُ ... يستخفه الطربُ
ان بكى يحق له ... ليس ما به لعبُ
تضحكين لاهيةً ... والمحبُّ ينتحبُ

كلما انقضى سببٌ منك جاءني سببُ
تعجبين من سقمي صحتي هي العجبُ

وقول البحتري: كيف اغدو من الصبابة خلوًا بعد ما راحت الديار خلاء
قف بها وقفةً تردُّ عليها أدمعًا ردَّها الهوى انضاء
ان للبين مِنَّةً لا تؤدَّى ويدًا في تماضرٍ بيضاء
حجبوها حتى بدت لفراقٍ كان داء لعاشقٍ ودواء
اضحك البين يوم ذاك وابكى كلَّ ذي صبوةٍ وسرَّ وساء
فجعلنا الوداع فيه سلامًا وجعلنا الفراق فيه لقاء
ووَشت بي الى الوشاة دموع الا عين حتى حسبتها اعداء

واي تشبيه ابدع من قول ابن المعتزّ في القلم:

قلمٌ ما اراهُ ام فلكٌ يجـ ـري بما شاء قاسمٌ ويسيرُ
راكعٌ ساجدٌ يقبّل قرطا سًا كما قبّل البساط شكورُ

وقولهُ: من لي بقلبٍ صيغ من صخرةٍ في جسدٍ من لؤلؤٍ رطبِ
جرحتُ خدَّيه بلحظي فما برحتُ حتى اقتصَّ من قلبي

ومثله قول ابن الرومي في قوس الغمام:

وساقٍ صبيحٍ للصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سِنَةُ الغمضِ
يطوف بكاسات العقار كأنجمٍ فمن بين منقضٍّ علينا ومنفضِّ
وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفًا على الجوّ دُكنًا والحواشي على الارضِ
يطرّزها قوس السحاب بأخضرٍ على احمرٍ في اصفرٍ اثر مبيضِّ
كأذيال خودٍ اقبلت في غلائلٍ مصبَّغةٍ والبعض اقصر من بعضِ

واي كلامٍ في المدح اطلى من قول ابن هانىء:

قد طيَّب الاقطار طيب ثنائه من اجل ذا تجد الثغور عذابا
لم تدنني ارضٌ اليك وانما جئتُ السماء ففتَّحت ابوابا
ورأيت حولي وفد كل قبيلةٍ حتى توهّمت العراق الزابا

ومن ترى اعلى كعباً بالحكمة والزهد من ابي العلاء وهو القائل :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنّم شادِ
وشبيهٌ صوتُ النعيّ اذا قيـ س بصوت البشير في كل نادِ
أبكت تلكمُ الحمامةُ أم غنـ ـت على فرع غصنها الميّادِ
صاحِ هذي قبورنا تملأ الرحـ ب فأين القبورُ من عهد عادِ
خفف الوطء ما اظن أديم الـ ارض الا من هذه الاجسادِ
وقبيحٌ بنا وان قدُم العهـ دُ هوانُ الاباء والاجدادِ
سِرْ إن اسطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العبادِ
ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحم الاضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفينٍ في طويل الازمان والآبادِ
فاسأل الفرقدين عمّن احسّا من قبيلٍ وآنسا من بلادِ
كم اقاما على زوال نهارٍ وانارا لمدلجٍ في سوادِ
تعبٌ كلّها الحياةُ فما اعـ ـجبُ الا من راغبٍ في ازديادِ
انّ حزناً في ساعة الموت اضعا ف سرورٍ في ساعة الميلادِ
خُلقَ الناس للبقاء فضلّت أمة يحسبونها للنفادِ
انما يُنقلون من دار اعما لٍ الى دار شقوةٍ او رشادِ
ضجعة الموت رقدةٌ يستريح الـ ـجسم فيها والعيش مثل السهادِ

ومن ابدع ابداع ابي الطيب بالتصرف بالمعاني وجمع شتاتها ويكفيك قوله :

غاب الاميرُ فغاب الخيرُ عن بلدٍ كادت لفقد اسمه تبكي منابرهُ
قد اشتكت وحشةَ الاحياءِ أربعهُ وخبّرت عن اسى الموتى مقابرهُ
حتى اذا عُقدت فيه القبابُ لهُ أهلّ لله باديه وحاضرهُ
وجدّدت فرحاً لا الغمُّ يطردُهُ ولا الصبابةُ في قلب تجاورهُ
اذا خلت منك حمصٌ لا خلت ابداً فلا سقاها من الوسميّ باكرهُ
دخلتها وشُعاع الشمس متقدٌ ونورُ وجهك بين الخلق باهرهُ

في فيلقٍ من حديدٍ لو قذفتَ به صرفَ الزمانِ لما دارت دوائرهُ
تمضي المواكبُ والابصارُ شاخصةٌ منها الى الملكِ الميمونِ طائرهُ
قد حرنَ في بشرٍ في تاجهِ قمرٌ في درعه اسدٌ تدمى اظافرهُ
حلوٍ خلائقهُ شوسٍ حقائقهُ تحصي الحصى قبل ان تحصى مآثرهُ
تضيق عن جيشه الدنيا ولو رحُبت كصدره لم تبنْ فيها عساكرهُ
اذا تغلغل فكرُ المرء في طرفٍ من مجدهِ غرقتْ فيه خواطرهُ
تحمى السيوف على اعدائه معهُ كأنهنَّ بنوهُ او عشائرهُ
اذا انتضاها لحرب لم تدع جسدًا الاَّ وباطنهُ للعينِ ظاهرهُ
فقد تيقَّنَ ان الحق في يده وقد وثقن بأنَّ الله ناصرهُ
تركن هام بني عوفٍ وثعلبةٍ على رؤوس بلا ناسٍ مغافرُهُ
فخاض بالسيف بحر الموت خلفهمُ وكان منه الى الكعبين زاخرهُ
حتى انتهى الفرسُ الجاري وما وقعت في الارض من جيف القتلى حوافرهُ

واي حنين اوقع في النفس واعظم ايثارًا للعاطفة واصدق رسماً لرقة شعر المولدين من فراقية ابي الحسن عليّ بن زريق البغدادي . وان لنا من سموّ معاني القصيدة التالية وجزالة الفاظها عذرًا على ايرادها كلها مثالاً على شعر النوابغ من ابناء هذه الطبقة : [1]

لا تعذُليه فان العذل يولعهُ قد قلت حقًا ولكن ليس يسمعهُ

(١) كانت له ابنة عمٍ كلف بها اشد الكلف ثم ارتحل عنها من بغداد لفاقةٍ علتهُ فقصد ابا الخيبر عبد الرحمن الاندلسي في الاندلس ومدحهُ بقصيدة بليغة فاعطاه عطاء قليلاً . فقال ابن زريق انا لله وانا اليه راجعون سلكت القفار والبحار الى هذا الرجل فاعطاني هذا العطاء . ثم تذكر فراق ابنة عمه وما بينهما من بعد المسافة وتحمل المشقة مع ضيق ذات يدهِ فاعتل غمًّا ومات . قالوا واراد عبد الرحمن بذلك ان يختبره فلما كان بعد ايام سأل عنه فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتًا وعند رأسه رقعةٌ مكتوبٌ فيها هذه القصيدة

جاوزت في نصحهِ حدًّا اضرَّ بهِ   من حيث قدّرتِ انَّ النصح ينفعهُ

فاستعملي الرفق في تأديبه بدلاً   من عنفه فهو مضنى القلب موجعهُ

قد كان مضطلعًا بالخطب يحمله   فضلّعت بخطوب البين اضلعهُ

يكفيه من لوعة التشتيت ان له   من النوى كل يومٍ ما يروّعهُ

ما آب من سفرٍ الاَّ وأزعجه   عزمٌ الى سفرٍ بالرغمِ يزمعهُ

تأبى المطالب الاَّ ان تكلفه   للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعهُ

كأنما هو في حلٍّ ومرتحلٍ   موكلٌ بفضاء الله يذرعهُ

اذا الزمان اراه في الرحيل غنىً   ولو الى السند اضحى وهو يقطعهُ

وما مجاهدة الانسان واصلةٌ   رزقًا ولا دعة الإنسان تقطعهُ

قد قسم الله بين الناس رزقهمُ   لا يخلقُ الله من خلق يضيعهُ

لكنهم كلفوا حرصًا فلست ترى   مسترزقًا وسوى الغايات يقنعهُ

والحرص في الرزق والارزاق قد قسمت   بغيٌ ألا انَّ بغي المرء يصرعهُ

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه   عفوًا ويمنعه من حيث يطمعهُ

أستودع الله في بغداد لي قمرًا   بالكرخ من فلك الازرار مطلعهُ

ودعته وبودي لو يودعني   صفو الحياة واني لا أودعهُ

وكم تشفع بي ان لا أفارقهُ   وللضرورات حالٌ لا تشفعهُ

وكم تشبث بي يومَ الرحيل ضحىً   وادمعي مستهلاتٌ وادمعهُ

لا أكذبُ اللهَ ثوبُ العذر منخرق   مني بفرقته لكن ارقعهُ

اني اوسع عذري في جنايته   بالبين عنه وقلبي لا يوسعهُ

أعطيت ملكاً فلم احسن سياسته   وكل من لا يسوس الملك يخلعهُ

ومن غدا لابسًا ثوب النعيمِ بلا   شكرٍ عليه فعنه الله ينزعهُ

إعتضت من وجه خلّي بعد فرقته   كأسًا تجرع منها ما اجرّعهُ

كم قائل ليَ ذقت البين قلت له   ألذنب والله ذنبي لست ادفعهُ

هلاَّ اقمت فكان الرشد اجمعهُ   لو انني حين بان الرشد اتبعهُ

لو انني لم تقع عيني على بلد · في سفرتي هذه الأ وأقطعهُ
يا من اقطع ايامي وانفدها · حزنًا عليه وليلي لست اهجعهُ
لا يطمئن بجنبي مضجعٌ وكذا · لا يطمئن به مذ بنت مضجعهُ
ما كنت احسب ان الدهر يفجعني · به ولا ان بي الايامَ تفجعهُ
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيدِ · غــبراء تمنعني حقي وتمنعهُ
وكنت من ريب دهرٍ جازعًا فرِقًا · فلم اوقَّ الذي قد كنت اجزعهُ
بالله يامنزل القصر الذي درست · آثاره وعفت مذ بنت اربعهُ
هل الزمان معيدٌ فيك لذتنا · ام الليالي التي امضته ترجعهُ
في ذمة الله من اصبحت منزله · وجاد غيث على مغناك يُمرعهُ
من عنده ليَ عهد لا يضيع كما · عندي له عهد صدق لا اضيعهُ
ومن يصدع قلبي ذكرهُ واذا · جرى على قلبه ذكري يصدعهُ
لاصبرنَّ لدهرٍ لايمتعني · به ولا بيَ في حال يمتعهُ
علمًا بان اصطباري معقبٌ فرجًا · فاضيق الامر ان فكرت اوسعهُ
علَّ الليالي التي اضنت بفرقتنا · جسمين تجمعني يومًا وتجمعهُ
وان تغُلْ احدًا منا منيتَه · لا بد في غده الثاني سيتبعهُ
وان يدم ابدًا هذا الفراق لنا · فما الذي بقضاء الله نصنعهُ

وان المقام ليضيق عن الاستزاده من هذه النفائس فانما اوردناه منها ليس الا ذرةً من درة:

نظرةٌ في شعر المولّدين

لم يكن لفريقٍ من الناس ان يدعي الكمال حتى الشعراء · والمولّدون مع بلوغهم من البلاغة واحكام الصنعة اقصى الدرجات فانهم يؤاخذون ولا سيما المتأخرين منهم على مغامز ترجع الى خلالٍ اربع :

الخلّة الاولى اقتضاب الوصف الشعري فلا تبرز الحقيقة جليّة على فطرتها في كثيرٍ من شعرهم ويستثنى من ذلك الحكَم والامثال وكذلك الابحاث العلمية التي ليست من لُباب الشعر ويندر ان يشاعرًا يعمد الى وصفٍ يستتمهُ ويرسمهُ

رسماً جلياً كاملاً كما رأيت في اسد بشر وثور عبدة . فترى الافكار متزاحمة والمعاني متلازة في منظوماتهم فتخلل اللحمة بينها وتأتي متراكمة فيفوت السامع شيء كثير مما تصوروه وقصّروا في تصويره . فهم بهذا الاعتبار قد عدلوا عن منزع الفطرة وابعدوا عن البداهة الجاهلية وتحولت معهم المقاصد الشعرية اذ بات مرمامهم فيها جرّ المغانم ودفع المغارم

وان كلامنا في كل ذلك اجمالي لا يؤخذ منه خلو شعر المولدين جميعاً من بدائع الوصف التام واجادة التصوير فقد تجد في شعر المولدين ما يضاهي منحى الجاهليين وان رمت مثالاً لذلك فاقرأ قصيدة المتنبي التي مطلعها :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

الخلة الثانية . تبذلهم في المديح حتى جعلوا الشعر صناعة للتكسب ومهنة للاسترزاق فكاد يمتهن الشعر وتنحط طبقة الشعراء في عيون عظماء الامة . ولو تتبعت اقوال فحولهم كالبحتري وابي تمام والمتنبي لما رأيته يتعدّى المدح للمحسن اليهم والهجاء للممسك عنهم . بل ربما هجوا ممدوحهم ومدحوا مهجوّهم طمعاً وتشفياً كما كان شأن المتنبي مع كافور

ولا يستثنى منهم سوى افراد خرجوا ترفعاً عن موقف الذلة والمسكنة اما لسعة في حالهم ورفعة في درجتهم الموروثة كابن المعتز وابي فراس فذلك من ابناء الخلفاء وهذا من نسل الامراء . واما لحكمة فطروا عليها وأنفة في طباعهم وزهد في نفوسهم كالمعرّي وما اقل امثاله بين المتقدمين والمتأخرين . ولهذا كان المعرّي يرجح كثيراً في ميزان الرجال على المتنبي وامثاله مع ان الرجحان بيّن للمتنبي في ميزان الشعراء

الخلّة الثالثة . ابتذال الغزل ووصف الغرام حيث لا محرّك اليه الا التوطئة للمديح . فجاء اكثر ما نُظم من هذا القبيل غير مثير للعاطفة ولا مؤثر في النفس وان كثر فيه الحنين والانين بخلاف ما يقصد به شخص معيّن كما رأيت في قصيدة ابن زُريق

وهو ثابت ان التوطئة بالغزل ليست من بدع المولدين بل هي خطة درج عليها الشعراء من ايام الجاهلية . على ان الجاهليين لم يبتذلوها ولم يتعمدوها الا في احوال مخصوصة كان يزدان بها شعرهم . ولم يصف شاعرهم في اكثر المواقف الا غراماً برّح به . كما ترى في غزليات امرىء القيس وعنترة واذا تعدّى تلك الخطة فلم يتعدّها الا قليلاً . بخلاف المولدين اذ كانوا يتكلفون الغزل تكلفاً كأنه من لوازم الاستهلال

والظاهر ان كثيرين من ذوي الروية والنقد كانوا ينكرون تلك الطريقة حتى في ابان الزمن العباسي

قال الابشيهي: مدح ابو العتاهية عمرو بن العلاء (١) فأعطاه سبعين الفاً وخلع عليه خلعاً سنية حتى انه لم يستطع ان يقوم فغار الشعراء منه فجمعهم وقال يا لله العجب ما اشد حسد بعضكم لبعض ان احدكم يأتينا ليمدحنا فيتغزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره . وقد تشبب ابو العتاهية بابيات يسيرة ثم قال :

اني أمنتُ من الزمان وصرفهِ لما علقتُ من الامير حبالا
لو يستطيع الناس من اجلاله جعلوا له حرّ الوجوه نعالا
ان المطايا تشتكيك لانها قطعت اليك سباسباً ورمالا
فاذا وردنَ بنا وردنَ خفائفاً واذا صدرنَ بنا صدرنَ ثقالا

واذا اردت دليلاً محسوساً على صحة هذا النقد فخذ قصيدتين من مختار شاعرٍ واحدٍ وطأ الشاعر بالغزل في احداها وولج الموضوع تواً في الاخرى فتبدو لك فوراً مزية مطلع الثانية على الاولى

فمن مختار ابن هانىء قصيدته في مدح المعز ومطلعها :

قمنَ في مأتمٍ على العشاقِ ولبسن الحداد في الاحداقِ
وبكين الدماء بالعنم الرطـ ـب المقنّى وبالخدود الرقاقِ

(١) المستطرف ص : ٢٧١

وقصيدته في المعز ايضاً ومطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الاقدارُ   فاحكم فانت الواحد القهارُ
وكانما انت النبي محمدٌ   وكانما انصارك الانصارُ

ومن مختار المتنبي قوله في سيف الدولة مستهلاً :

لعينيكِ ما يلقى الفؤاد وما لقي   وللحب ما لم يبق مني وما بقي
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه   ولكن من يبصر جفونك يعشقِ

وقوله في مطلع آخر قصيدة قالها وهي في سيف الدولة ايضاً :

فدىً لك من يقصّر عن مداكا   فلا ملكٌ اذاً الا فداكا
وان قلنا فدىً لك من يساوي   دعونا بالبقاء لمن قلاكا

افلا تُراك تؤثر مطلع رائية ابن هانىء وكافية المتنبي على قافيتيهما

ولا يجب ان يستفاد مما تقدم اننا ننكر التوطئة على الاطلاق فانها اذا جادت ووقعت في موضعها ووافقت موضوعها فانها تشق شغاف القلب وتذكي شرارة النيرة فتهيم بها البصائر كما يقع لسامع قصيدة ابي تمام التي مطلعها :

السيف اصدق انباء من الكتب   في حده الحدُّ بين الجدّ واللعبِ
بيض الصفائح لا سود الصحائف في   متونهنّ جلاء الشك والريبِ

فقد اراد مدح المعتصم العباسي على اثر فوزه ذلك الفوز المبين وتنكيله بجيوش الروم وفتحه عمُّورية فوطأ لمدحه توطئة استهلها بما تقدم وما اجملها توطئة لمثل ذاك المديح

ومما يُحمد عليه المولدون بهذا المعنى توطئتهم للرثاء بالزهد واشباهه

الخلّة الرابعة . تجاوزهم في المجون وبذاءة التعبير الى ما لا يستبيحه ادب المجالس و يغضُّ من قدر الشعر ومنزلة الشعراء . وهذا ايضاً ليس من بدع المولدين بل سبقهم اليه شعراء الجاهلية والمخضرمون حتى اودعه امرؤُ القيس معلقته . وفي اهاجي جرير والاخطل والفرزدق ما لا يُعد مفخرة لامثال اولئك الفطاحل . ولكن الجاهليين كانوا يأتونه عفواً على البداهة فاستمسك به المخضرمون واوغلوا فيه ايغالاً

ادى بالمولدين الى التفنن به تفننهم في سائر ضروب الشعر وفحشوا فيه فحشاً فاضحاً . ومن ذا الذي يقرأ اهاجي ابي تمام لمقران والمتنبي لابن كيغلغ ومجونيات الصفي الحلي ولا ينكر ان تشان بدائع منظوماتهم بتلك السفاسف المجينة . واغرب من هذا ان كثيرًا من تلك البذاءات ممتزجٌ بدررٍ من المعاني تضيق عنها ارحب القرائح . فاذا قرأت قصيدة المتنبي التي يستهلها بقوله :

لهوى النفوس سريرة لا تُعلم　　عرضاً نظرت وخلت أني أسلمُ

فانك ترى فيها من غرر المعاني وابكار الافكار ما جرى اكثره مجرى الامثال وتنوقل جيلاً بعد جيل في اندية الادب وحسبك منها قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله　　واخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق　　ينسى الذي يولى وعافٍ يندمُ
لا يخدعنك من عدوٍ دمعه　　وارحم شبابك من عدوٍ ترحمُ
لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى　　حتى يراق على جوانبه الدمُ
والظلم من شيم النفوس فان تجد　　ذا عفة فلعلة لا يظلمُ
ومن البلية عذل من لا يرعوي　　عن جهله وخطاب من لا يفهمُ

ومع هذا فانك لا تتمالك من الانكار على الشاعر خلط هذه النفائس بتلك الخسائس

واقبح من كل ذلك تشبيهم بما لم يشرعه الله ولم يسُق اليه الطبع ولم يفشُ قبلهم في شعر الجاهليين وانما هو بدعةٌ اقتبسوها بملابسة المدنية الجديدة فما اوغل امامهم ابو نواس في ذلك النهج البذي، حتى هبوا الى تحدّيه

والظاهر ان ذلك التراخي كان مندمجاً بروح العصر فانتهجه الشعراء وسلك مسلكهم صفوة الادباء كالبديع الهمذاني والحريري وسمّوه احماضاً كانه فكاهةٌ مستملحةٌ يتطلبها كل اديب اريب . ولهذا قال الحريري في مقدمة كتابه : « وما قصدت بالاحماض فيه الا تنشيط قارئيه »

ذلك ما يعاب عليه المولدون ماخلا رهطاً منهم سما ادباً و تهذب عقلاً ونفساً

اما الياذة هوميروس فهي على ما وصلت الينا نقيَّة من تلك المغامز لا يؤاخذ صاحبها على شيء من هذه الخلال الاربع · اما الخلة الاولى فلأن الشاعر جاهليّ وحيثما تصفحت شعره رأيته ابدع في الوصف ورسم الحقائق · واما الثانية والثالثة فلانهما مخالفان لطبعه وذلك بادٍ في كل منظومه · واما الرابعة فقد تحاشاها الشاعر لسموّ في ادبه مع ما كان فاشياً في عصره من الاستسلام للشهوات كما اثبتنا في ترجمته ولهذا جاءت الياذته نقية لا يتخللها شيء مما تحظر قراءته حتى على الغادة العذراء

مناهج المولدين

في ابواب الشعر وفنونه واساليبه

لم يقتصر المولدون من الشعر على نظمه بل نظروا فيه ومحَّصوه وانتقدوه وعارضوه بعضاً ببعض وبحثوا فيه بحثاً علميًّا ووضعوا اصوله وبوّبوا فصوله وجمعوا مختاره وعينوا فنونه ووازنوا بين الشعراء وكتبوا في كل ذلك الاسفار الطوال بين نثرٍ وشعرٍ مما لا يتسع له بحثنا

وقد جعلوا الشعر بالنظر الى معناه ابواباً حصرها ابو تمام في عشرة وابلغها ابن ابي الاصبع العدواني الى ثمانية عشر وهي الغزل والوصف والفخر والمدح والهجاء والعتاب والاعتذار والادب والزهد والخمريات والرثاء والبشارة والتهاني والوعيد والتحذير والملح والسؤال والجواب · وزادوا عليها الزهريات والحكم والمجون والحماسة وهي اشرفها عندهم واجادوا في كل ذلك

وتفننوا في الشعر تفنناً لم يعرفه الاوائل الا قليلاً فأفاضوا في التشطير والتخميس والمعمى والاحجية واللغز والدوبيت الفارسي الذي خالفوا فيه اوزان الشعر العربية

واكثر من كلف منهم بذلك متأخروهم كالحريري وابن الفارض وصفيّ الدين الحليّ · وان تخميس الصفيّ لحماسية السموأل من اجود ما قيل بهذا

الباب ومطلعها :

قبيحٌ بمن ضاقت عن الرزق ارضُهُ وطولُ الفلا رحبٌ عليه وعرضُهُ

ولم يُبل سربالَ الدجى منه ركضهُ اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضُهُ

فكل رداء يرتديهِ جميلُ

وفي ديوان ابن الفارض كثير من الدوبيت واللغز كقوله :

ياليلة وصلٍ صبحها لم يلحِ من اوّلما شربتهُ في قدحي

لما قدُرتْ طالت وطابت بلقا بدرٍ نحني في حبهِ من مِنَحي

وقوله ملغزًا في بقله :

ما اسمُ قوتٍ لأهلهِ مثل طيبٍ تحبهُ

قلبهُ ان جعلتهُ اولاً فهو قلبهُ

وللحريري الغاز واحاجي ومعميات واحسنها بل احسن ما قيل بهذا المعنى بائيتهُ الطويلة التي مطلعها :

عندي اعاجيبُ ارويها بلا كذبٍ عن العيان فكنّوني ابا العجبِ

واما التاريخ الشعري فلا نعلم لهُ شيوعًا عند المولدين وانما هو من فنون المحدثين او المتأخرين ولكنه بلا ريب مأخوذ عن اصلٍ قديم جدًا لان الحساب بالحروف اقدم من جميع الشعر العربي المعروف وقد استعمله اليونان والعبريون والرومان قبل العرب ولكنهم لم يلصقوه بالشعر · على ان جميع هذه الفنون ليست الا من فكاهات الشعر ولا يجب ان تعد من بدائع النظم

اما الموشح الاندلسي فهو من محاسن الاستنباط الشعري · قيل اخترعه مقدم ابن معافر شاعر الامير عبد الله بن محمد المرواني في اواخر القرن الثالث للهجرة وقيل في اصلهِ اقوال اخرى لا محل لذكرها · كانوا ينظمونه على اساليب شتى اشهرها جعل اللازمة بيتين وكل دور بعدها خمسة ابيات كقول الخطيب الاندلسي:

جادك الغيث اذا الغيث هما يازمان الوصل بالاندلسِ

لم يكن وصلك الا حلُما في الكرى او خلسة المختلسِ

دور

اذ يقول الدهر اسباب المنى   تنقلُ الخطوَ على ما ترسمُ

زمرٌ بين فرادى وثُنا   مثلما يدعو الوفود الموسمُ

والحيا قد جلّل الروض سَنا   فسنا الازهار فيه تبسمُ

وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروي مالكٌ عن أنسِ

فكساه الحسن ثوبًا مُعلما   يزدهي منهُ بابهى ملبسِ

كانوا ينهجون هذا النهج في طوال الموشحات . ولهم في ما سوى ذلك طرقٌ كثيرة تفنّنوا عليها وخالفوا فيها اوزان الشعر المشهورة وتراهم ينقرون في بعضها على اوتار الانشدة كما ترى في قول ابن ابي بكر الابيض في مطلع موشح :

مالذّ لي شرب راحِ   على رياض الاقاحِ

لولا هضيم الوشاحِ   اذا امى في الصباحِ

او في الاصيلْ   اضحى يقولْ   ما للشمولْ

لطمتِ خدّي

وللشمالْ   هبّت فمالْ   غصن اعتدالْ

ضمه بردي

مما اباد القلوبا   يمشي لنا مستريبا

يالحظهُ ردّ ثوبا   ويالماه الشنيبا

بردْ غليلْ   حبّ عليلْ   لا يستحيلْ

فيه عن عهدي

ولا يزالْ   في كل حالْ   يرجو الوصالْ

وهو في الصدِّ

وقول عبادة القزّاز :

بدر تم   شمس ضحا   غصن نقا . مسكُ شم

ما اتم . ما اوضحا   ما اورقا . ما انم

لاجرم · من لحا   قد عشقا · قد حرم

ومما يذكر للمولدين استطرادًا ضروبٌ كثيرةٌ من الشعر العامّي كالمواليا وفي اصله اقوالٌ اشهرها ان هارون الرشيد امر بعد نكبة البرامكة ان لا يرثيهم احدٌ بشعر فرثت احدى جواريهم جعفرًا · بشعر غير مُعرَب حتى لا يُعدّ شعرًا وجعلت تقول بعد كل شطر ياموالِيا قالت :

يادار اين ملوك الارض اين الفرس   اين الذين حموها بالقنا والترس

قالت تراهم رمم تحت الاراضي الدرس   سكوت بعد الفصاحه ألسنتهم خرس

هذا الذي يقوله المؤرخون في اصل الشعر العامي والذي نراه انه اقدم من ذلك العهد بل نخاله معاصرًا للشعر الجاهلي · وللبغداديين ايضًا من هذا النوع القُوما قيل كانوا ينشدونه عند السحور في رمضان سمي بذلك من قول المغنين « قوما نسحر قوما » وجعلوه على وزن هذه الكلمات الثلاث وتفرع عنه فروع دعوها الزهري والخمري وغيرها · ولهم غير ذلك من الشعر العامي مما لامحل لذكره

وللاندلسيين كثيرٌ من هذا النوع مما تفرع عن الموشح ومما تغنت به العامة كالزجل وفروعه عروض البلد والمزدوج والكاري والملعبة والغزل ولا تزال بقايا كل ذلك في جميع البلاد التي غلبت فيها العربية · واخصها الزجل المصري والزهيري البغدادي والمعنّى السوري · ولا يدخل في عدادها القصيد البدوي لانه من بقايا الشعر الجاهلي الفصيح

واحرز المولدون ايضًا قصب السبق في الحكم والمواعظ وجمع شوارد الامثال واول رافعٍ منهم لذلك اللواء ابو العتاهية فانه نظم فيها ارجوزة طويلة قيل انه ضمنها اربعة آلاف مثل وهي من بدائع نظامه ومنها قوله :

حسبك مما تبتغيه القوتُ   ما اكثر القوت لمن يموتُ

الفقر في ما جاوز الكفافا   من اتقى الله رجا وخافا

هي المقادير فلمني او فذرْ   ان كنت اخطأت فما اخطا القدرْ

لكلِّ ما يؤذي وان قل ألم   ما اطول الليل على من لم ينم

من جعل النمّام عيناً هلكا ... مُبلغك الشرّ كباغيه لكا
ان الفراغ والشباب والجده ... مفسدةٌ للمرء اي مفسده
ما زالت الدنيا لنا دار اذى ... ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها ازواجُ ... لذا نتاجٌ ولذا نتاجُ
من لك بالمحض وليس محضُ ... يخبثُ بعضٌ و يطيب بعضُ
لكل انسان طبيعتانِ ... خيرٌ وشرٌ وهما ضدانِ

وجرى كثيرون من شعراء المولدين مجرى ابي العتاهية في جمع الحكم والامثال في القصائد الغرّاء . فمنهم من نظمها مجرّدةً عما سواها من المقاصد كأبي الفتح البُستي في النونيَّة المعروفة التي مطلعها :

زيادةُ المرء في دنياه نقصانُ ... وربحهُ غير محض الخير خسرانُ
وكلّ وجدان حظٍّ لا ثبات لهُ ... فان معناه في التحقيق خسرانُ

ومثلها لاميَّة ابن الوردي :

اعتزل ذكر الاغاني والغزلْ ... وقل الفصل وجانب من هزلْ
ودعِ الذكر لأيام الصبا ... فلأيام الصبا نجمٌ أفلْ

ومنهم من اودعها قصائد قيلت لمقاصد معلومة كما فعل ابن دُرَيد في منظومته المعروفة بالمقصورة الدريدية وقد اراد بها مدح الشاه ابن ميكال وولديه ومطلعها :

ياظبيةً اشبه شيء بالمها ... ترعى الخزامى بين اشجار النقا
إمّا تَرَي رأسيَ حاكى لونهُ ... طرَّة صبح تحت اذيال الدجى ....
فكلّ ما لاقيتهُ مغتفرٌ ... في جنب ما اسأره شحط النوى

ومن هذا القبيل قصيدة الطغرائي المعروفة بلاميَّة العجم اذ قالها لغرضٍ في نفسه ومزج فيها الحكَم بالفخر كما ينبئك مطلعها :

اصالة الرأي صانتني عن الخطلِ ... وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ
مجدي اخيرًا ومجدي اوّلاً شرَعٌ ... والشمس رأدَ الضحى كالشمس في الطفلِ

وابناء هذا الفريق الاخير من الشعراء يتجاوزون حد الحصر . ويندر ان ترى

شاعرًا لم يودع شعره شيئًا من الحكم والامثال بل كان كثيرون منهم يوطّئون بها للمدح والهجاء والوصف والرثاء فتقوم لديهم مقام التوطئة بالغزل

ويقال في الجملة ان المولّدين مع تبذّلهم في المدح طرقوا جميع ابواب الشعر مما تقدم ذكره ولكنهم قلّما اقتصر الشاعر منهم في القصيدة الواحدة على باب واحد بل كانوا يمزجون مزجًا يُمَلّ احيانًا ولكنه يُطرب احيانًا كثيرة ولا سيما في القصائد الطويلة التي لابد من تفكيه سامعها بما يثنيه هنيهةً عن مرمى الشاعر . وربما جمع شاعرهم بين الغزل والحكم والامثال والزهريات والفخر والمدح في قصيدةٍ واحدة واطربك في كل ما قال لبلاغته وطلاوة شعره وحسن تصرفه وحسبك مثالاً من ذلك قصيدة ابن الرومي المسماة حديقة الشعر وهي التي مدح بها اسمعيل بن بلبك في ما ينيف على مئتي بيت . فبينا تخاله مستهلاً بزهريةٍ فيقول :

اجنت لك الوجد اغصانٌ وكثبانُ فيهن نوعان تفاحٌ ورمانُ
وفوق ذلك اعنابٌ مهدّلةٌ سودٌ لهنّ من الظلماء الوانُ
وتحت هاتيك عنّابٌ تلوح به اطرافهنّ قلوب القوم قنوانُ

اذا بك تراه متغزلاً فيقول :

غصون بانٍ عليها الدهرُ فاكهةٌ وما الفواكه مما يحمل البانُ
ونرجسٌ بات ساري الطلّ يضرب به والاقحوانُ منيرُ النَّور ريَّانُ
أُلِّفن من كل شيءٍ طيّبٍ حسنٍ فهنّ فاكهة شتى وريحانُ

فاذا اسكرك بنشوة تلك الصهباء وقف خطيبًا واعظًا فقال :

ثمار صدقٍ اذا عاينت ظاهرها لكنها حين تبلو الطعم خطبانُ
بل حلوة مرّةٌ طورًا يقال لها شهدٌ وطورًا يقول الناس ذيفانُ

. . . .

تلك الغصون اللواتي في اكمّتها نعمٌ وبؤسٌ وافراحٌ واحزانُ
يبلو بها الله قومًا كي يبين له ذو الطاعة البرُّ ممن فيه عصيانُ
وما ابتلاهم لإعناتٍ ولا عبثٍ ولا لجهلٍ بما يطويه ابطانُ

لكن ليثبت في الاعناق تجنهُ ويحسن العفو والرحمن رحمنُ

ثم اذا تخلص الى المدح اودعهُ المعاني الشائقة والحكم الرائعة . واذا انتقل منه الى العتاب وطلب النوال البس ذلك جلبابًا بهيًّا . واختتم بما لا يصلح سواه ان يكون تاجًا لتلك الغادة الهيفاء فقال :

وان أَبيت تحسبي منك عارفةٌ ان امتداحك عند الله قربانُ

والحر يسغب دهرًا وهو ذو سعةٍ والعقُّ يطوي زمانًا وهو سغبانُ

وللبلاء انفراج بعد ازمتهِ ورعبة الدهر اعجاف واسمانُ

وللاله سجالٌ من فواضلهِ كل امرىءٍ ناهلٌ منه وعلاّنُ

ان لا يُغنّي على دهري اخو ثقةٍ من العباد فان الله معوانُ

او يبطل الحق عند الناس كلهم فليس للحق عند الله بطلانُ

خذها ابا الصقر بكرًا ذات اوشيةٍ كالروض ناءى عرارًا فيه حوذانُ

واسلم لراجيك مسعودًا وان تربت ممن يعاديك آنافٌ واذقانُ

وهكذا فانه يظل يرقي بك درجةً بعد اخرى وهو يهيجك طربًا حيثما وقف بك ويحوم حول مطلبه حتى يلجئك الى استتمام سماعه فلا تشعر الا وقد اتيت علي قصيدته برمتها وانت مشغوف بطلاوتها فقلت هلاً زادني منها رحمه الله

وهذا المنزع بعينه هو منزع هوميروس في الياذته ولو لم تكن حديقة ابن الرومي خليةً من اخبار الشعر القصصي لقلت هي شطر من تلك الملحمة التي خلب بها هوميروس عقول رواته وقرّائه . وكاني بابن الرومي وفيه لمحةٌ من كنيته التي كان يعيَّر بها في زمانه الى جرثومةٍ في اصله او عرفانه كانت تحمله على تحدّي هوميروس في كثيرٍ من اساليبه ومعانيه وتشبيهاته

وللمولَّدين اقوالٌ ساحرةٌ في التشابيه والكنايات والاستعارات وكانوا كلما ابعدوا عن الحقيقة فقصروا فيها عن الجاهليين اوغلوا في الخيال ففاقوا المتقدمين بسعة التصوُّر وضروب المجاز

علوم الادب

عند المولَّدين

ليس من شأننا هنا التعرض لجميع ما تنطوي عليه علوم الادب في عرف بعض العلماء من نحوٍ وتصريفٍ ولغةٍ واشتقاقٍ وامثالها بل نقصر الكلام على ما كان منها خاصًّا بالشعر كالعروض او ملازمًا له كالبديع والبيان

فالمولَّدون هم الذين فتحوا باب البحث في صناعة الشعر وقيَّدوا شوارده وفصَّلوا قواعده وشاركهم في ذلك النحاة والادباء وعلماء اللغة فضبطوا الاوزان ووزنوا المعاني وصيروا قرض الشعر علمًا بعد ان كان ملكةً لا ضابط لها الاَّ القياس السماعي

وقد كان ذلك القياس بكافل استبقاء تلك الملكة ايام كان العرب في معتصمهم يتخالطون في البوادي والحواضر وتجمعهم سوق عكاظ كل عام فتقوّم ما اعوجَّ من منطقهم ولا يخالطهم الاعاجم مخالطةً تعبث بلسانهم . على ان ايغالهم في اطراف المعمور وانتشار لغتهم انتشارًا لم يكن انتشار اليونانية واللاتينية بازائه شيئًا مذكورًا وامتزاجهم بسائر الملل كل هذا احدث انقلابًا الجأهم الى تقييد اصول الشعر على اثر تقييد اصول اللغة

العروض

فكان اول ما استلفت نظرهم ضبط الاوزان فوضع الخليل بن احمد علم العروض نحو سنة ١٥٠ للهجرة اي في اوائل العصر العباسي عصر المولَّدين . ويقول بعض المتقدمين من كتَّاب العرب ان العروض علمٌ خاصٌّ بالعربية وان الخليل استنبطه ولم يسبقه اليه احدٌ في لغةٍ اخرى مع ان ارسطوطاليس ضبط قواعده للغة اليونان وله فيه تأليفٌ يعوَّل عليه . ولأكثر اللغات قواعد ضابطة لاصول الشعر وعروضه . ويؤخذ من قول ابن خلكان في ترجمة الخليل انه المَّ باليونانية وفك معمًّى أُرسل اليه فيها . ولكنه لا يثبت من كل ذلك ان الخليل

وقف على كتاب ارسطوطاليس في العروض واعتمد عليه وخصوصاً ان العروض العربي تختلف في جميع اوضاعه عن عروض اليونان ومن جرى مجراهم . وعلى كلٍّ فان للخليل فضلاً على الشعر العربي يضاهي فضل ابي الاسود الدؤلي على نحو اللغة بل يربو عليه لانه لم يكن للخليل مرشدٌ الى استنباطه ولا شريكٌ فيه . ولا يكبُر على الخليل ان يكون مستنبطاً بلا دليلٍ سابق يسترشد به لان الاستنباط كان في طبعه وله مما خلا العروض استخراجاتٌ كثيرة تدلُّ على سعة عقل لم يَقدِرْها ابن المقفَّع قدرها اذ قال « علم الخليل اكبر من عقله »

والغريب انه كاد يبلغ بهذا العلم حد الكمال منذ فكر في وضعه اذ قيَّد جميع البحور التي انتهجها العرب ولم يُزَد عليها من بعده الا بحرٌ واحد هو المُحدَث او الخبَب ويقال له المتدارَك ايضاً لان الاخفش تداركه على الخليل . ولا عبرة بما استعمل المولدون من الاوزان الفارسية كالقول الفاريابي والدُوبَيت وما عدلوا به عن الاوزان المألوفة في الموشحات والاغاني وما زادوا فيه من تقييد العلة والزحاف فذلك عرضٌ ينفسح للتوسع فيه مجالٌ رحب . ولهذا يصحُّ ان يقال ان علم العروض خُلق كاملاً لان الخليل احكم تمثيل جميع القوالب الشعرية وتطبيقها على جميع منظوم العرب في الجاهلية

البديع

رأيت ان المولَّدين تفننوا في الصناعة الشعرية ونهجوا مناهج لم يسبقهم اليها الجاهليون والمخضرمون وتلاعبوا بالالفاظ والمعاني فمست الحاجة بعد صوغ تلك القوالب الى توشيتها والنظر في إحكام زخرفها فوضعوا علم البديع بفرعيه اللفظي والمعنوي فكان اللفظيُّ ألصق بالشعر منه بالنثر والمعنوي يتناول جميع فنون الانشاء من شعرٍ ونثرٍ على حدٍّ سواء

واول من كتب في البديع فيما نُقل الينا شاعرٌ كلِفَ بأنواع التشابيه والاستعارات فكان قوله فيهما حجة الكتَّاب والشعراء ألا وهو ابن المعتز العباسي . ولم يكن بين المولَّدين من هو اولى منه بوضع هذا الفن فكتب في صنعة الشعر ووضع

رسالة في البديع كانت اساس هذا العلم وذلك في اوائل الشطر الاخير من القرن الثالث للهجرة اي بعد ان وضع الخليل علم العروض بأكثر من قرن

ولا بدع ان يكون واضع هذا العلم شاعرًا وان كان العلم بنفسه غير خاصٍ بالشعر كالعروض فالعلماء والشعراء يتعاونون على احياء الادب · فالشاعر صنّاجة جيش العلماء والعالم نبراس جند الشعراء

وهكذا فاننا نعدُّ من مآثر المولدين وضع علمين عربيين استنبطاهما استنباطًا بالنظر الى العربية وهما العروض والبديع اللفظي

البيان

اما البيان بما يشمل من علم المعاني والبديع المعنوي فليس من وضع العرب بحصر المعنى وان كانوا طبقوه على التراكيب العربية · فقد استمدُّوا اصوله من اليونان والسريان والفرس كما استمدوا المنطق من كتاب ارسطوطاليس وغيره من علماء المتقدمين وكان للفرس في البيان اليد الطولى — ولجعفر البرمكي كلامٌ فيه ما زال يُنقل عنه · على ان للمولدين فيه النظر العالي والفضل الواسع بما أحسنوا في تبويبه واحكموا في ترتيبه حتى ألبسوه حلةً عربية · ومع هذا فلم يبلغ حتى يومنا درجة الكمال التي بلغها العروض والبديع اللفظي

فهذه علومٌ ثلاثة وضعها المولدون احكامًا للصناعة الشعرية واساليب الانشاء · وليس من شأننا ان نتطالَ الى ذكر سائر العلوم التي لها علاقةٌ بالشعر قريبةٌ او بعيدة فهي كثيرة ولا سيما في هذا العصر حيث لا غنى للشاعر عن الالمام ولو قليلاً بكثيرٍ من العلوم

اطوار شعر المولدين ومزاياه

كانت مخالطة المسلمين للاعاجم في عصر العباسيين على خلاف ما كانت عليه لعهد الدولة الاموية · فان الامويين كانوا لاغراضٍ ليس من شأننا البحث فيها يترفعون في اغلب الامور عن الاجانب فظلوا على قربهم منهم بعيدين عنهم

بالمجالسة والمحادثة والامتزاج تخفى عنهم كثيرٌ مما كانت معرفته غير ضارّة . واما العباسيون فاختلطوا بالاعاجم اختلاطًا مكّنهم من استطلاع خفاياهم وقرّبوا اليهم كلّ ذي جاهٍ وسياسةٍ وعلمٍ وادب واجزلوا العطاء لكل عضوٍ مفيد في ذلك الملك الواسع سواء كان عربيًا مسلمًا او يهوديًا عبرانيًا او نصرانيًا سريانيًا او فارسيًا او يونانيًا فأحاطوا بكل معارف زمانهم وأَلِف ابناء دولتهم انواع معيشة البشر . فاتسعت على اثر ذلك معارف الشعراء وتفننوا في صناعتهم على وجوه لاعهد للمتقدمين بها

وهذا كان شأنهم في جميع البلاد التي ملكوها والشعراء على مذهب ملوكهم يقتبسون من كل وادٍ وناد فعمّت النهضة الشعرية وكانوا جميعًا فيها سواء

ولكن زمن تلك النهضة طال كثيرًا واتسع نطاقها اتساعًا عظيمًا فظهر فرقٌ في منظوم الشعراء بالنسبة الى الزمان والمكان وهو ما نريد اجمال الاشارة اليه

على انه لايجب ان يؤخذ من قولنا ان المولّدين يُقسمون بالنظر الى الازمنة والامكنة الى طبقاتٍ تنفرد كلٌّ منها بمزية خاصة بها اذ قد ترى شاعرين بينهما قرون ونهجهما واحد واساليبهما متفقة ومعانيهما متقاربة وقد نشأ كلٌّ منهما في بلاد . فانما نحن ناظرون اذًا الى النزعة الغالبة في كل عصرٍ وقُطر

فاذا امعنت في شعر المولّدين بالنظر الى الزمان رأيت شعار المتقدمين منهم الرقة والرواء وظل هذا شأنهم حتى اواخر القرن الثالث للهجرة اي نحو ١٧٠ عامًا . والباعث الاعظم لذلك ولوجهم في ترف العيش ونضارة الحضارة . وهم وان ظلّ كثيرون منهم في عيشٍ خشن الا ان من لم يتمتع منهم فقد نظر وخبر وقد يفضل وصف الرقيب وصف الحبيب . — واول من مهّد ذلك السبيل مخضرمو الدولتين كبشّار بن بُرْد ومروان بن ابي حفصة وتابعهم خلفاؤهم كأبي العتاهية وابي نواس والبحتري وما زالوا على ذلك حتى قام ابن المعتز وابن الرومي وبهما خُتم ذلك العصر الزهيّ عصر الرونق والبهاء . فاذا قرأت شعر جميع من تقدم ذكرهُ منهم رأيته يسيل عذوبةً وسلاسةً وقد تميز برقته وانسجامه

وتبعتهم الطبقة الثانية من المولدين وكانت ادمغة الشعراء قد امتلأت حكمةً وفلسفةً مما نضج من ثمار العلم فأوغلوا في المعاني الدقيقة وتطلبوا الافكار السامية وصاغوا للتشبيه قوالب شائقة من الكناية والاستعارة فوسعوا ابواب المجاز واخذوا بناصية الخيال فقربوه من الحقيقة . وشعارهم في كل ذلك سموّ التصور وكان هذا ديدنهم من المتنبي وابي فراس الحمداني وابن هاني وابي العلاء المعرّي وابي اسحق الصابي وابي اسحق البستي والشريف الرضي حتى الخفاجي وابن زيدون الاندلسي في مدة زهاء ١٧٠ عاماً كمدة الطبقة الاولى

ثم اتت الطبقة الثالثة في اواخر القرن الخامس للهجرة والشعر محكم البناء موطّد الاركان والعلوم البيانية مفصلة القواعد فعمدوا الى تنميق الشعر والتفنن بزخرفه وتوشيته بانواع البديع . والمجيدون منهم يحكمون رصف المعنى الدقيق باللفظ الرشيق ولكن بعضهم افسدوا بهجة المعاني بتوخي التجنيس ومع هذا فقد كان منهم نوابغ لا يكادون يحطُّون منزلةً عمن تقدمهم كالطغرائي (وهو متوسط بين هذي الطبقة والطبقة الثانية) وابن خفاجه الاندلسي وابن قلاقس الاسكندري وابن النبيه المصري وابن الفارض والبهاء زهير المصري والشاب الظريف وصفي الدين الحلي خاتمتهم . وطالت مدة هذه الطبقة من المولدين نحو ٢٦٠ عاماً اي الى حوالي سنة ٧٣٠ هـ . فكان عصر المولدين جميعاً ستمائة عام

واما بالنظر الى المكان فابناء البلاد العربية ظلوا جانحين الى البساطة الجاهلية لانطباع تلك الاخلاق في نفوسهم . وبرّز المصريون في الرقة والعذوبة لدماثةٍ في خلقهم ورقةٍ في طبعهم . وغلبت البلاغة والمتانة في العراقيين لشدّةٍ في فطرتهم وملابستهم لاهل البادية . ومال الاندلسيون وسائر اهل المغرب الى التفنن باساليب الشعر ووصف الغياض والرياض لنضارة ارضهم . ووقف السوريون بين المصريين والعراقيين فجمعوا بين رقة الاولين وبلاغة الآخرين ولكنهم لم يبلغوا مبلغ فريقٍ منهم في احكام صنعته

طبقة المُحْدَثين او المتأخرين

ليس في عصر المتأخرين ما يستوقف النظر فهو عصر الانحطاط والتقليد فان الدول العربية كانت قد دالت وتغلب الاعاجم على ممالك الاسلام ولولا القرآن لبادت لغة قريش المضرية كما تقدم وباتت في عداد اللغات الميتة وقامت على اثرها لغاتٌ لا يتفاهم اصحابها . والعباسيون وهم اصحاب ذلك اللواء الخافق بين المشرقين كانوا قد هبطوا من سماء مجدهم لقرونٍ خلت . ولكن أُسس العلم ارسخ من أُسس الدول . فالدول تدول وملكها يزول وتبقى معالم حضارتها وعرفانها . ولولا ذلك لانطفأت جذوة النهضة العباسية في اواخر القرن الثالث للهجرة حين لم يبق للعباسيين من حقيقة السلطان الا طيف خيال . ولكان شاعرهم ابن المعتز آخر من اسلم تلك الراية البيضاء يد الجلاّد الذي تولى قتله . ولكن قاهر الدول ومبيدها يذلُّ دون ابادة معارفها . ولهذا تعاقبت الاحقاب وشرارة النهضة العباسية لاهبة تتضرَّم في افئدة الشعراء تضرُّمها في عقول العلماء ولم تخمد الا بعد ان بلغت الحدّ المقفيّ لكلّ مفطورٍ ومنظور

ومع هذا فان تلك الجذوة ما زالت ترسل قبسًا تذكو به قريحة شاعرٍ حينًا بعد حين حتى لاتخلو الارض في زمنٍ من شعراء العرب . وحسبك النظر الى ابن نُباتة المصري في القرن الثامن وابن حجر العسقلاني في القرن التاسع وعبد الباقي المعروف عند الترك بملك شعراء الروم في القرن العاشر وابن معتوق الشهاب الموسوي في القرن الحادي عشر وعبد الغني النابلسي في القرن الثاني عشر

ويقال مع ذلك اجمالاً ان الانحطاط في الشعر العربي اخذ يظهر قبل انقضاء عصر المولدين وبات التقليد شعار المتأخرين . وحبذا لو كان تقليدًا صحيحًا بل هو شوّه وجه الشعر ولا سيما في القرنين الاخيرين اذ بات شاعرنا ولا المام له باحوال عصره فضلاً عن احوال المتقدمين يتحدّى امرأ القيس فيضرب في البوادي والقفاز وهو في بيتٍ موصد الابواب . ويسوق الظعن وهو على متن

قطار البخار . ويترنم ببهجة الرقتين وينيلهما من كرمه صفات جنة عدن ولا يدري انهما مطمئنان من الارض في بادية قفرة تقتله اشعة الشمس اذا وقف اليهما ساعةً واحدة . وهو لو فطن يتنقل في موطنه في روضٍ اريض وجنانٍ تجري من تحتها الانهار . حتى لو اردت ان تستدل من شعرهم على شيءٍ من حالة مجتمعهم لاعياك ذلك . وغاية ما يرتسم في ذهنك صورٌ مشوَّهة لايُعلم لها رأسٌ من ذيل

ولما كانت الكنانة فارغة من سهام المعاني عمدوا الى قذف الالفاظ مزوَّقة بحليةٍ يتسترون من ورائها وما هم بمتسترين . حتى كأن قدماء العروضيين كانوا ينظرون اليهم عند ما وضعوا للشعر ذلك التعريف الناقص فقالوا هو الكلام المقفَّى الموزون ولم يزيدوا

الشعر العصري

لم يبق للشعر بعد تلك الرقدة الطويلة الا ان يهبَّ هبةً جديدة بطورٍ جديد وروحٍ حيَّة . وفي الامة والحمد لله بقيةٌ متأهبةٌ لولوج ذلك الباب الرحب وهي شاعرةٌ منذ نصف قرن بوجوب مجاراة الزمان وعالمةٌ ان التصدّي لمصادمة تيَّار الترقي غرورٌ عاقبته الزيغ والخذلان . ولهذا شرع النوابغ من ابناء هذا العصر في تعديل الخطة فكانت لهم اليد البيضاء واسفر جهدهم عن ابراز الشعر الرقيق بالثوب الانيق . وما هو الا قبسٌ فاض من غرَّة هلالٍ سيتكامل بفضلهم بدرًا ان شاء الله

الملاحم

او منظومات الشعر القَصَصي

بحث العرب في ابواب الشعر وضروبه وفنونه ودعوها جميعًا باسماء تنطبق عليها . ولكنه لم يتصل بنا انهم وضعوا اسماً لمنظومات الشعر القصصي من نظائر الالياذة الا ان يكون ذلك ما استحدثه اهل المغرب وسمَّاه بعضهم بالملاحم وهو عندهم

كالملاعب بالشعر العامّي ما تضمن من المنظوم احوال امةٍ او قومٍ وفُصّلت فيه وقائع الحروب والتاريخ . ولعلهم اخذوا ذلك من التحام القتال . والملحمة في اللغة الوقعة العظيمة وربما قُصد بها الإحكام من لَحَمَ الامر بمعنى احكمهُ لأن من القاب صاحب الشريعة الاسلاميّة « نبيُّ الملحمة » وقالوا في تفسيرها نبيُّ القتال او نبي الصلاح وتأليف الناس كأنه يؤلّف امر الامّة

ويقول العرب ايضاً ألحم فلانٌ الشعر وحاكه بمعنى نظمه تشبيهاً لبيت الشِعر ببيت الشَّعر وبالثوب المَحُوك كأنهم يريدون الاشارة الى تأليف اجزائه بإحكام اللُّحمة بينها ومنه المُلحمات لمختاراتٍ سبعٍ من قصائدهم سيأتي ذكرها

ومهما يكن من النسبة المعنوية بين لفظ المُلحمات والشعر القصصي فالنسبة بينه و بين الملاحم اظهر ولهذا سمَّينا الياذة هوميروس واشباهها بالملاحم تفادياً من استحداث لفظة لم يسبق لها استعمال بين الكتّاب

ضروب الشعر عند الافرنج

قلنا (ص : ١٤٩) ان العرب قسموا الشعر من حيث المعنى الى ابوابٍ كالغزل والمدح والهجاء والرثاء الى آخر ما هنالك من ابواب الشعر . وهو معلومٌ ان في شعر جميع الامم شيئاً من هذه المعاني . ولكن الافرنج ينهجون في تقسيم ابواب الشعر نهجاً آخر يجارون فيه العرب بالبحث في اكثر هذه الابواب وغيرها مما لم يذكره العرب ويخالفونهم بالرجوع الى حصرها جميعاً في بابين: الشعر القصصي وهو الذي عبَّرنا عن منظوماته بالملاحم والشعر الموسيقي وهو ما نُعبر عن منظوماته بالقصائد او الاغاني . ويسمون الاول « إِيِيك » والثاني « لِيريك » . وكلا اللفظين يونانيُّ الاصل فالاول من ايوس (ἔπος) بمعنى الغناء او (ἔπο) ايو بمعنى الكلام . والثاني من ليرا (λυρα) بمعنى القيثارة او الكنّارة او آلة طرب اخرى تشبه العود المعروف عندنا . ومعناهما بحصر المعنى واحد كما ترى اذ يُرجع بهما في الاصل الى المقصود من الشعر في اقدم ازمانه وهو التغني بالحانه والتطرب بمعانيه والتلهّي بانشاده . ولكنهم فصلوا في الاصطلاح بين البابين وجعلوا لكلٍّ منهما مزايا خاصة

به وضمَّنوها سائر انواع الشعر . ذلك انه لابد في الشعر من ان يُرمى به الى احد امرين . اما بسط احوال العالم بمظاهره البارزة واما التعبير عن شعائر النفس الخافية عن الابصار وابراز التصورات الكامنة في الصدور . ومُعظم ما يقلل من الشعر لا يخرج عن احدى هاتين الحالتين . فالشاعر القصصي بهذا الاعتبار يعبّر عن شعائر غيره والشاعر الموسيقي انما يعبر عن شعائر نفسه

فاذا نظرنا على هذا القياس الى الاصل الشعري في بعض اسفار التوراة واتخذناها مثالاً جاز لنا ان نُلحق سفر ايوب بالشعر القصصي ونعتبره ملحمةً من صفوة الملاحم . ونلحق الزبور ونشيد الانشاد بالشعر الموسيقي وهما من ابدع الاغاني والقصائد التي نطق بها البشر

وقد الحقوا بهذين البابين باباً ثالثاً دعوه « دراما » من لفظة ذراما اليونانية (δραμα) بمعنى العمل او الصنعة وهو ما نستحسن التعبير عنه بالتمثيلي لانهم يقصدون به غالباً منظوم الروايات التمثيلية . وهو متوسط بين القسمين السابقين . ولكل من هذه الاقسام الثلاثة فروعٌ لامحلّ لايرادها

الا انه لايترتب على ما تقدَّم ان منظومات الشعراء يجب ان ينتمي كلٌّ منها الى قسمٍ من هذه الاقسام ويلصق به غير متجاوزٍ الى ما سواه . بل قد يكثر التداخل بينها ولا سيما في منظوم البلغاء . فالياذة هوميروس ملحمةٌ من الشعر القصصي بالنظر الى ما تضمنته من سرد الوقائع والاخبار . وما تجاوزت به الى ما وراء الطبيعة من شؤون الآلهة وملابستهم للبشر في اعمالهم وايضاح حقائق الفضائل والرذائل بطريق الإخبار . ولكن فيها قطعاً من ابدع ما قيل في الشعر الموسيقي وحسبك منها رثاء اخيل لفطرقل وتفجعه عليه في مواضع مختلفة منها . وانَّ وداع هكطور لزوجته في النشيد السادس ما زال على تقدّمه المثال الذي ينسج على منواله ارباب الشعر التمثيلي وليس بين المتقدمين ولا المتأخرين من ادرك شأوه واجاد اجادته فيه مع كلّ ما احسنَ راسين الفرنسي في روايته « اندروماخ »

ويقارب هوميروس في الضرب على جميع الاوتار شكسبير الانكليزي . فالمشهور عنه انه من انصار الشعر التمثيلي ومع هذا فاذا اخذت مثلاً رواية « هَمْلِتْ » رأيت فيها من معاني القصائد والملاحم ما يوقفك دهشة واعجاباً . وقل مثل ذلك في رواية « السيّد » لكُرْنَيْ الفرنسي « واندروماخ » السالفة الذكر وفوسْت لغوته الالماني واشباه ذلك من منظوم نوابغ الايطاليين وغيرهم

وهو معلومٌ ايضاً ان الشائع عن العرب بين الافرنج انهم لم يضربوا الا على وتر الشعر الموسيقي ولم يتخطّوا في النظم الى ما وراء القصائد والاغاني ولكنه قولٌ مبالَغ فيه بل زعمٌ موهومٌ فيه كما سنبين في باب « ملاحم العرب »

ملاحم الاعاجم

قد يتبادر الى الذهن ان رسم الظواهر أقرب الى الفطرة وأيسر تناولاً من رسم الخوافي الكامنة في النفس ولهذا كان الشعر القصصي في اكثر الملل متقدماً على الشعر الموسيقي وفنونه . والصواب ان الاغاني والقصائد أقدم من الملاحم والملاحم اقدم من التمثيليّات لان أقدم ما نطق به الانسان من الشعر انما كان أغنيّةً يتطرب بها . او انشودةً تقذفها النفس اشعاراً بعاطفة من نحو حبٍّ ودعاء وغيظٍ ورجاء . او ملهاة ينشدها الكبير ليتلهّى بها الصغير . فهذه القطع الصغيرة تقدمت بلا ريبٍ على المنظومات الطويلة من اشباه الالياذة اذ لا تتوفّر معدّات نظم الملاحم الا في الشعوب الراقية بعد ان تألف نظم المقاطيع القصيرة مئاتٍ من الاعوام . ولكن قد يمكن ان يكون ارتقاء الشعر القصصي متقدماً على ارتقاء الشعر الموسيقي وان تقدم الموسيقي بالوضع كما ان ارتقاء بلاغة الشعر متقدمة على بلاغة النثر وان كان النثر متقدماً بالوضع . أما التمثيليات فهي من نتاج الملاحم فجاءت متأخرة عنها بالطبع لانهُ كان أيسر على الشاعر في غابر الازمان ان ينطق بلسان جميع ممثّليه كما هي الحال في الملاحم من ان يجعل كلاً منهم ينطق بلسان نفسه في محلٍّ مُعدٍّ لذلك كما هو الواقع في التمثيليّات

والشعراء في جميع الملل يجارون المؤرخين في تدوين الوقائع . وهم وان قصروا عن المؤرخين في تعيين المواقيت وتفصيل الحوادث الا انهم يسبقونهم في تعريف الشعائر والاخلاق ووصف احوال المجتمع البشري وتبيان علاقة الخالق بالمخلوق . ولهذا لم يكن في الامم قديمها وحديثها امةٌ أدركت شأوًا مذكورًا في الحضارة الا وقام نوابغ الشعر القصصي يبسطون أحوالها ويجيدون الرسم بنافذ الكلام بما يفوق اجادته بقلم الرسَّام

فلقدماء المصريين شعرٌ كثير يستدلُّ عليه من عادياتهم وان كان الزمان قد اباد ملاحمهم الطويلة فان في ما وجد من القطع المبعثرة بين الآثار ما يدلُّ على انها كانت ذات شأنٍ خطير وحسبك منها شعر نبتاءور

وللهنود ملاحم بقي بعضها ولا تزال «المهابهارتا» آيةً في بابها وقد تُرجمت منها قطعٌ كبيرة الى لغات الافرنج

وللعبرانيين ملاحم لا يزال بعضها في التوراة

ولقدماء الجرمانيين والسكنديناقيين ملاحم كانوا يحلُّونها محلاً رفيعًا

واليونان كانوا منذ القدم مشغفين بالشعر القصصي ولهم فيه منظوماتٌ كثيرة قبل ملحمتي هوميروس اشرنا اليها في موضعها (ص : ٦١)

والرومان ساروا على اثر اليونان فابدعوا في هذا الفن وقد اشرنا مرارًا الى انياذة ڤرجيليوس

وقام الافرنج على اثار تينك الدولتين وتغنَّوا قرونًا بمنظومات رولان في فرنسا وهيلدبراند ونيبولنغن في المانيا الى ان قام نوابغ المتأخرين كدنتي الايطالي وملتُن الانكليزي ومن حذا حذوهما

ثم اذا انثنينا الى ملل الاسلام من غير العرب رأينا انها ليست بالاقل حظًّا من هذا الفن وهذه شهنامة الفردوسي في اخبار ملوك العجم مما يُعجَب به ويُحسد عليه وقد ذكرناها في غير موضع من هذا الكتاب

وان للفرس اليد الطولى في هذا الفن ولهم فيه غير ملحمة الفردوسي منظومات

كثيرة كشهنامة القاسمي الكونابادي التي نظم فيها وقائع الشاه اسمعيل واهداها الى الشاه طهماسب وجعلها نظيرةً لتيمورنامة الهاتفي . ومثلها شاهية مجد الدين البابري النسائي في وقعة الخوارزمي

. وللترك ايضاً بدء في الشعر القصصي كمنظومة شهودي في اربعة آلاف بيت . وان اغرب ما روي في هذا الباب ما نقل عن شهنامة الشاعر التركي الملقب بالفردوسي الطويل قالوا انه نظمها في مليون وستمئة الف بيت وكتبها في ثلاثمئة وثلاثين مجلداً فلما عُرضت على السلطان بايزيد العثماني امر بانتخاب ثمانين مجلداً واحراق الباقي فتألم المؤلف وترك بلاد الروم وذهب الى خراسان فمات فيها كمداً [1]

ملاحم العرب

اذا قلنا ان العرب نظموا الملاحم فلسنا بزاعمين ان في لغتهم شيئاً يماثل الياذة هوميروس وشهنامة الفردوسي وفردوس ملتن بالشعر الحي . ولكن اذا صحت الادلة المؤدية الى ان ايوب كان عربياً ولا اخالها بعيدة الاحتمال كان ذلك السفر البديع المحفوظ في التوراة ملحمةً عربية الاصل متقدمةً بوضعها على ملاحم اليونان والرومان [2]

---

(١) كشف الظنون . ولغات تاريخية ٤ : ١٥٨

(٢) يقول كثيرون من كتّاب العرب ان سفر ايوب كتب بالعربية شعراً . ثم نقله موسى الى العبرية ولكنهم لا يأتون بحجة تؤيد هذا القول . ولعلهم قالوا ذلك بالتواتر او نقلاً عن مصادر مجهولة لعهدنا . وان في تواريخ العرب اخباراً ووقائع وانساباً كثيرة منقولة عن كتب قديمة منقودة وهكذا يختلط الصحيح منها بالفاسد ويتعذر الرجوع الى الاصل — واما انصار هذا الرأي من علماء العصر فلهم ادلة ترجّح بالبحث صحة قولهم . فلا ريب ان ايوب كان من ابناء البادية العربية وان تعذّر حتى الآن تعيين الخطة التي اقام فيها .

ولكن الاخذ بهذا القول ليس مما يضمّ دُرَّةً يتيمة الى خزائن الادب العربية فيزيد في مفاخر العرب · او يفيد لغتهم فائدة تذكر لم وتؤثر عنهم · فالاصل العربي في عالم الغيب وهو على فرض الحال لو وجد لما كان فيه من عربية مُضَر شيء يعوّل عليه ولما وُجد بين العرب من يفكّ منه عبارةً واحدة لاختلاف اوضاع اللغة ومبانيها في ذلك العهد البعيد · فهي بهذا الاعتبار آرامية او عربيةٌ اخرى اقرب الى عبرية التوراة منها الى عربية قريش

ومن يعلم بالنظر الى ايوب نفسه الى اي فريق من القبائل كان ينتمي وما كانت حالة العرب والعربية في ايامه ومن كتب او استكتب ذلك السفر من قومه او غير قومه · والحاصل ان الماعنا الى ذلك السفر انما هو قبيل التذكرة والحرص على الاشارة الى امرٍ خطير

ثم اذا رجعنا الى الشعر القديم المنسوب الى قدماء العرب في اليمن ونجد والحجاز فلا نلبث ان نتحقق انه من النظم الموضوع حديثًا لغرضٍ كما اوضحنا · وزد على هذا انه لا يربو على عددٍ معلوم من المقاطيع وليست جميعها على شيء من الشأن في الشعر قصصيًا كان او موسيقيًا · وايضًا فلا فائدة من الالماع الى ما سبق من النظم في اللغة اليمنية الحميرية التي هذّبت وكتبت قبل لغة قريش بقرون · فالبحث اذًا يجب ان يكون في الشعر الباقي باللغة العربية المضرية

نظرةٌ في الجاهليتين

جاهلية العرب وجاهلية اليونان

ان اقدم ما اتصل بنا من الشعر الجاهلي الجليّ مقولٌ معظمه في مثل المواقف

وفي ذلك يقول هان وإيوّلد وشلتمن « ان وقائع هذا السفر تمثل الحياة البسيطة على حقيقتها وتوضح بالرسم الصادق معيشة الشيخ العربي للقبيلة البدوية » ثم ان هذا السفر اقرب الى العربية من سائر اسفار التوراة العبرية · وقد اشار رينان في مقدمته « لسفر ايوب » الى كثرة الكلمات الارامية فيه

التي قال فيها هوميروس الياذته . فهنالك شياطين وجنّيات تلقن الشعراء فصيح الكلام تلقين القيان لهوميروس . وفي مثل ذلك يقول الاعشى :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنّام جدعاً للهجين المذمّم

وجهنام تابعة عمرو بن قطن . ولكلٍّ من فحول شعراء الجاهلية جنيّة او شيطان يلقّنه الشعر . وهنالك ملوكٌ كبار على قبائل صغار تتكاتف وتتحالف دفعاً لعار واخذاً لثار . فتثور حرب البسوس بين بكر وتغلب وتتلاحم عبس وفزارة على اثر سباق داحس والغبراء ويكادون يفنون بعضهم بعضاً كما كاد يفنى الطرواد واليونان وحلفاؤهم . وهنالك ايامٌ تتصاول وتتجاول فيها قبائل منهم فيشتهر امرها ويذيع ذكرها كيوم الكلاب ويوم الجفار ويوم النسار ويتغنى الشعراء بحديثها تغني هوميروس بيوم القناطرة ويوم الابتول والكوربت وما اشبه ذلك مما يفوق الحصر

واذا نظرت الى الاشخاص دُهشت لما يبدو لك من الشبه في الاحوال والاقوال . فمن بطلٍ كعنترة ترتجف لصوته القبائل ارتجافها لصوت آخيل يُغاظ مثله فيعتزل القتال فينكل العدوّ بقومه حتى يهبَّ من عزلته فيفعل فعل اخيل في عودته . ومن خطيبٍ كنسطور يقف واعظاً موقف قس بن ساعدة فيرشد ويرغّب ويرهّب . ومن اخوةٍ واخوات وازواج وزوجات وبنين وبنات وآباء وامهات يقولون ويفعلون في جاهلية العرب نظير قولهم وفعلهم في جاهلية اليونان مما ستراه بالمقابلة في تعاليق الشرح . ولو اتسع لنا المقام لما عدمنا سبيلاً الى ابراز نظيرٍ لكلٍّ من رجال الالياذة ونسائها

واذا حوّلت نظرك الى اللباس والرياش وطرق المعاش رأيت مع سبق اليونان في حلبة الحضارة مشاكلةً باهرة في حالة المعيشة الفطرية والسذاجة الخلقية والحرّية الجاهلية : سراةٌ كأكسيل يتسابقون الى قرى الاضياف كحاتم الطائي ويبنون بيوتهم على مضرب السبل في قارعة الطريق . وامراء كاخيل وفطرقل يأمرون وينهون ولديهم الحشم والجوار ومع هذا فهم بيدهم يتولّون توزيع الزاد على

الاضياف وينحرون الذبيحة بُدام على نحو ما نحر الامير الكندي ناقته للعذارى . وابناء ملوك كولد فريام لانعيبهم مع غنامهم رعاية المواشي وتربية الانعام كما قال خالد ابن الوليد لماهان الارمني « واما ما ذكرت من فقرنا ورعينا الابل والشاء فما منا من لم يرعَ واكثرنا رعاة ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع »[١] وسبايا تشرى وتباع . واسرى تُقتل وتفتدى وتسرّح باحسان الى غير ذلك مما لانهاية له وسترى منه جانبًا غير يسير مفصلاً بالمقابلة في مواضعه

ملاحم الجاهليين

ليس في وقائع عرب الجاهلية واياميهم ما يضاهي خطورةً وقائع الحرب الطروادية ولكن تلك الوقائع لا تخلو بنفسها من شأن نسبي مذكور . فلا بدَّ اذًا من اتخاذ احداها مثالاً للمقابلة . وان اوّل ما يستلفت الانظار حرب البسوس

تلك حربٌ تناقل العرب اخبارها وتناشدوا شعرها على ممرّ القرون حتى ايامنا هذه وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالبٌ منها اصوغ الملاحم التامة كالالياذة . ومع هذا فان جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم اقرب نسبة الى الشعر القصصي منه الى الموسيقي فكل قصيدة منها قطعةٌ من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتئمة لفقدان اللحمة بينها فهي كالحجارة المنحوته قد احكمت صنعتها وبقيت ملقاة في ارضها غير مرصوصة بالبناء . ثم اذا نظرت الى اشهر الرجال والنساء فيها رأيتهم جميعهم شعراء فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة واخوه مهلهل . وكذلك مرّة شاعر وابنه جسّاس شاعر وكلٌّ ذي شأن في القصة من غريب وقريب شاعر كالحارث بن عُباد وجحدَر بن ضبيعة فمجموع شعرهم اشبه من هذه الوجه بالشعر التمثيلي لان لكل حادثة شاعرًا ينطق بها بخلاف نهج شعر الملاحم كالالياذة اذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع

وقد يخال الباحث في هذا التقارب ثم ذلك التباعد بين منظوم الجاهليتين

(١) واقدي ١ : ١٥٦

انه ربما كانت قصة حرب البسوس ملحمة في اصلها ففقدت منها اجزاء ادّت الى تفرّق ما بقي . ولكنه يتضح لدى الإمعان ان ذلك لم يكن وان العرب في الجاهلية لم ينظموا الملاحم الطويلة المحكمة العرى مع توقّد القرائح وتوفر معدات الفصاحة في اللغة لان ذلك النسق في النظم لم يكن في طبعهم فلم يتخطّوا الى ما وراء الطبيعة وكانوا مع عبادة الاصنام يميلون الى التوحيد وكان التسليم للاحكام العلوية من سننهم قبل الاسلام. فلم يوغلوا في التخيلات الشعرية الى النظر في احوال الآلهة وما يترتب على ذلك من تفرّع البحث الواحد الى ابحاث متعددة على ما هو شأن الامم الآرية . وكلّ ما يرى من الشبه بين احوالهم واحوال قدماء اليونان انما هو من المظاهر التي ألّفت بينها طرق المعيشة الجاهلية . واذا نظرت الى حالة اليونان بما كانت عليه مع تلك الخشونة من الانتظام والدربة رأيت انهم كانوا ايام حرب طروادة اقرب شبهاً بالعرب في ايام الخلفاء الراشدين ثم كانوا في ايام هوميروس اي في زمن نظم الالياذة قد بلغوا من الحضارة مبلغاً لم يكن للعرب في جاهليتهم منه الا النزر اليسير . فلم يسع ابناء الجاهلية ان يتجاوزوا بنظمهم احوال فطرتهم وطرق معاشهم فكانوا ينتقلون بالشعر من باب الى آخر انتقالهم من حيٍّ الى حيٍّ يجيدون في كل ما يقولون ولكنهم لا يطيلون المقام فلا يشيدون المنازل الفسيحة المشيدة الاركان

وليس من اللازم ان يكون شعر جميع الامم على نسق واحد بل ربما كان هذا التباين من الاسباب المؤدية الى ابراز انواع الجمال كافّةً على اختلاف صوره واشكاله . فالشاعر القصصي من اليونان وخلفائهم كان اذا قصّ حادثةً رواها كلها شعرًا واما الشاعر العربي فينشد الشعر حيث يحسن وقعه واكثر ما يكون ذلك في الوصف والخطاب والجواب ويقول الباقي نثرًا . وفي هذه الطريقة نوعٌ من التفكيه المأنوس . وهي طريقة شعراء البادية حتى يومنا . — جلستُ مرّةً الى حلقة شاعر منهم ينشد على نغم ربابته فشرع في مقدمةٍ نثرية قصيرة حتى بلغ الى وصف حسناء فجعل يتغنى بالشعر على نغم آلة الطرب فلما

استتم قصيدته رجع الى الكلام النثري بضع دقائق حتى بلغ وصف وقعة بين قبيلتين لرجع الى الانشاد وهكذا ظل يتراوح قوله بين نثر وشعر نحو ثلاث ساعات . وذلك ايضاً شأن القصّاصين في كثير من الحواضر العربية

فلا سبيل اذاً للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بعرف الافرنج . ولكن للجاهليين نوعاً آخر من الشعر القصصي مما يعز وجوده في سائر اللغات وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في حوادث مخصوصة لجميع شعراء الجاهلية وبعض المخضرمين قد سلكوا هذا المسلك واجادوا فيه . ولو تصفحت كتاب الاغاني ومفضليات الضبي وامثالها من كتب الادب والشعر لرأيتها ملأى بهذه المنظومات الغراء وحسبنا بياناً لذلك ان نلقي في سبيلنا نظرةً على جمهرة اشعار العرب

جمهرة اشعار العرب

هو كتابٌ ألفه ابو زيد محمد بن ابي الخطّاب القرشي المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة وشرح فيه المنظومات التي اختارها العرب من نفائس شعر الجاهليين والمخضرمين وجعلوها سبع رتبٍ في كلٍّ منها سبع منظومات . وقد اوردها المؤلف ببعض خلاف في الترتيب عن المتواتر المشهور لجعل النابغة والاعشى بين اصحاب المعلقات وحذف معلقة الحارث اليشكري فكانت المعلقات ثماني والمجمهرات ستاً . وهي في ما يلي مرتبة على ما هو شائع بين كتاب الادب والتاريخ

المعلقات ودعيت كذلك اخذاً من قولهم انها كانت معلقة باركان البيت واصحابها امرؤ القيس وزهير بن ابي سلمى والحارث بن حلزة ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد وعنترة العبسي

والمجمهرات ولعلها دُعيت كذلك تشبيهاً لها بالناقة المجمهرة وهي في اللغة المتداخلة الخلق كانها جمهور الرمل اي انها عالية الطبقة محكمة السبك . واصحابها النابغة الذُّبياني وعُبيد بن الابرص وعديٌّ بن زيد وبشر بن ابي خازم واميّة

ابن ابي الصلت وخداش بن زهير والنَّمر بن تولَب

والمُنتقيات اي المختارات واصحابها المسيَّب بن علس والمرقَّش والمتلمِّس وعروة ابن الورد ومهلهل بن ربيعة ودريد بن الصمة والمتنخل بن عويمر الهذلي

والمُذهَّبات اي المكتوبة بماء الذهب واصحابها حسان بن ثابت الانصاري وعبد الله بن رواحة ومالك بن عجلان وقيس بن الخطيم الاوسي وأُحَيحة بن الجلاَّح وابو قيس بن الاسلت وعمرو بن امرىء القيس

والمراثي واصحابها ابو ذؤيب الهذلي ومحمد بن كعب الغنوي واعشى باهلة وعلقمة بن عبدة الحميري وابو زُبيد الطائي ومتم بن نويرة ومالك بن ريب النهشلي التيمي

والمشوبات وهي التي شابها الكفر والاسلام واصحابها النابغة الجعدي وكعب ابن زهير والقطامي والحطيئة والشماخ بن ضرار وعمرو بن احمر وتميم بن ابي مقبل

والمُلحَمات ولعلهم ارادوا بهذه التسمية الاشارة الى احكام نظمها والحام شعرها كما تقدم · واصحابها الفرزدق وجرير الخطفي والاخطل التغلبي وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت والطرمَّاح بن حكيم الطائي

فهذه تسع واربعون منظومة لتسعة. واربعين شاعرًا اذا تصفحتها تبيَّنت لك في كثيرٍ منها مزايا هذه الملاحم القصيرة المختصة بلغة العرب ولا سيما ما قيل منها في الجاهلية كالمعلقات فانك ترى فيهن من سرد الحوادث وتفصيل الوقائع وتمثيل المشاهد وبداهة التذكر ما يعدُّ في اعلى طبقات الشعر القصصي · وفيهن ايضًا من بديع التصوُّر والسذاجة وحسن التصرف البديهي واجادة الرصف وابداع الوصف واحكام التشبيه ما يسمو بهنَّ الى ارفع درجات الشعر الموسيقي فهن بهذا المعنى قد جمعن بين محاسن الطريقتين في الشعر العربي كما جمعت الياذة هوميروس بين اطراف المحاسن في الشعر اليوناني

فالمعلقات اذًا رأس الملاحم العربية · واقربهن الى منظومات الشعر القصصي على ما يراد به في العُرف معلقة الحارث بن حلزة لافاضته في وقائع بكر وتغلب وتغنيه بفوز قومه ونكال عدوه· ومفاخر عشيرته على ما يماثل تغني هوميروس

في الالياذة · وتليها بهذا المعنى معلقة عمرو بن كلثوم ثم معلقة زهير

ويلحق بالمعلقات باعتبار انها ملاحم عربية مجمهرة بشر بن ابي خازم وامية ابن ابي الصلت · ومنتقيات مهلهل بن ربيعة ودُرَيد بن الصمة والمتخل بن عويمر · ومذهبة قيس بن الخطيم · ومشوبة النابغة الجعدي · وملحمات الفرزدق والكميت والطرماح

وانت ترى ان معظم اصحاب الملاحم من الجاهليين وان احسنها المعلقات وجميع اصحابها من ابناء الجاهلية وقد عزا الشعر القصصي بعدم ضَعفٍ أَلمعنا اليه فلا حاجه الى التكرار

ملاحم المولّدين

اذا قصَّر المولدون عن الجاهليين بالبداهة الفكرية فقد رأيت انهم فاقوهم بسموّ التصوُّر والرقة وصعدوا فوقهم درجات في سلم البلاغة بفضل القرآن · ولو لم تتغير مناحي شعرهم لما تقدم بسطه من الاسباب لابدعوا في جميع الاساليب الشعرية · ولكنهم لم يستتموا الاقتباس والا فلو استرشدوا ببعض السور القرآنية كسورة يوسف وسورة مريم وسورة الانبياء مما يعد نبراسًا نيّرًا للملاحم لفاقوا الجاهليين بالشعر القصصي كما فاقوهم بالشعر الموسيقي

ومع هذا فان للمولدين نوعًا من الملاحم خاصًا بهم وهو المقامات المسجّعة بما يتخللها من الشعر كمقامات الهمذاني والحريري · ولكن التجرد فيها للاغراب في اللفظ يحوّل الفكر فيها عن التصرف بالمعنى · على ان للفظ احيانًا رنّاتٍ مطربةً بنفسها · وهذا النوع من الانشاء من خصائص اللغة العربية · وان كثرة القوافي في اللغة تسوق الى التسجيع حتى لقد يكون ذلك حيث لا مسوّغ له كالابحاث العلمية والتفاسير القرآنية حتى كتب التاريخ التي لا يستحسن فيها الاكثار من الشعر والسجع

ويلحق بالمقامات القصص التي يمتزج بها الشعر والنثر كقصة عنترة العبسي وكثيرٍ من القصص التي تتداولها العامة في جميع البلاد العربية

وان من احسن ملاحم المولّدين "الملحمة" نثرية جمع فيها صاحبها شتيت المعاني

واوغل في التصوُّر حتى سبق دنتي الشاعر الايطالي وملتُن الانكليزي الى بعض تخيلاتهما الا وهي رسالة الغفران لابي العلاء المعرّي . ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية منها يحطان بها عن درجة امثالها من ملاحم الاعاجم .

واما المنظومات الاخبارية والاراجيز التاريخية التي يقصد بها تدوين الاخبار فهي كثيرة في كل عصرٍ من عصور العرب في الشعر الفصيح والعامي وقد باد معظم ما قيل منها في الجاهلية وهي اشبه شيء بالاراجيز العلمية وكتب التواريخ المسجّعة كتاريخ العتبي وليست في الغالب الا سلسلة حوادث مصوغة في القالب الشعري البسيط لا تتناول الا القليل من بديع التصوّر الذي يهيج النفس ولا مجال فيها للخيال . ومن هذا القبيل ارجوزة ابن عبد ربه (١) في اخبار الملك الناصر عبد الرحمن الاندلسي التي مطلعها :

سبحان من لم تحوهِ اقطارُ ... ولم تكن تدركه الابصارُ
ومن عَنَت لوجهه الوجوهُ ... فما لهُ ندٌّ ولا شبيهُ

فهذه وامثالها مما لا يُعدّ من نفائس الشعر القصصي ولا الموسيقي

وقد شاعت هذه الطريقة في بلاد المغرب ونظموا فيها الموشحات المعروفة بالملاعب بالشعر العامي وابدعوا في بعضها ابداعًا يكاد يلصقها بالشعر الفصيح كلعبة الكفيف المكنامي في السلطان ابي الحسن المريني (٢)

هذا جلّ ما يمكن ايراده بالايجاز عن ملاحم العرب وهي كما ترى جامعةٌ بين اعلى طبقات الشعر وادناها



(١) العقد الفريد ج ٢ : ٢٨٨

(٢) ابن خلدون ١ : ٥٣١

الحقيقة والمجاز

التشبيه والكناية والاستعارة

نظر هوميروس الى الحقائق نظرة الباحث الخبير فتجلت له من وراء حجاب الخيال . وامعن في احوال الطبيعة حسيّها ومعنويها. فبرزت له بابهى مظاهرها . فاستوحى قيانه فأوحين اليه وحي الآلهة للانبياء

عمد الى الرسم غير متكلف ولا متأنق والصدق مرماه. والبداهة دليله فسلك سبيلاً عدلاً غير ذي عوجٍ فما تعثّر ولا اضلته المجاهل

رأى ان الحقيقة في غنىً عن التستر والتبرّج فذلك يخفي جمالها وهذا يشوب كمالها فابرزها على فطرتها فاذا بها فتانةٌ للقلوب خلاّبةٌ للبصائر

علم ان معارضة الاشباه والنظائر من مزيلات الاوهام المقرّبات الى الافهام فاكثر من التشبيه والمقابلة حتى المَّ بكل احوال البشر وسائر المخلوقات . وان احسن شيء في تشبيهاته حلولها جميعًا محلها . فاذا تجلت له الصورة رسمها بصراحةٍ واتساقٍ غير مداجٍ ولا محاذر فاطنب واوجز وصعد وهبط على ما يقتضيه الموقف

فاذا وصف فارسين متساوين بين شدةً وبأسًا شبههما بليثين كما قال في هكطور وفطرقل وهما يقتتلان حول جثة بطلٍ طروادي : (ص ۸٥۲)

... وهكطور عن خيله نزلا   وفي طلب الجثة اقتتلا ...

كليثين بينهما ظبيةٌ   بها فتكا فوق طَود علا ...

واذا وصفهما وقد ذلّ احدهما للآخر شبه احدهما بالليث والآخر بالظبي كقوله في منيلاوس وفاريس : (ص : ۳۱٤)

كالليثِ يضورُهُ السَّغَبُ   والظبيُ لديهِ يضطربُ

فعليهِ منقضًا يثبُ   ولوِ القناصونَ اقتربوا

بضراءٍ تقبل للصدِ

واذا بدت له الشدّة قبل النزال وحب البروز من الاعتزال رأى ان الجواد العتيّ المنقطع على مربطه اقرب الى تلك الصفة من الليث فحلّه من عقاله واجراه جري جواد امرئ القيس (ص : ٧٠٠ و٤٨١)

واذا نزل به الى ساحة القتال فانهزمت من وجهه الابطال عدل عن التشبيه بالحيوان الفرد الى ما هو اوقع في النفس فمثّله بالسيل الجارف (ص : ٣٨٩)

وابرز لك بالتشبيه الصادق جميع صفات البشر وما يقابلها من صفات الحيوان بجميع حالاته فنظر الى الكبير منها والصغير والقويّ والضعيف والوحشيّ والداجن فوصف الاسود والذئاب والخرانيص والمها والظبي والايّلة وغير ذلك مما لم يستذلّه الانسان . والخيل والحمير والبغال والكلاب والبقر والمعز والغنم وغير هذا مما دخل في حظائر الناس

وتناول الطيور من النسور والعقبان الى البط والاوزّ والرهو والغرانيق والزرازير والحمام . وانعطف الى الزحافات والدبابات والديدان وانتهى الى الهوام والحشرات فوصف الافاعي وشبّه بالصراصر والزنابير والنحل والذباب و « ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها »

ولقد عابه بعض المتسرّعين على التشبيه بصغار الحيوان . ولكنك اذا نظرت الى كل ما قال فيها علمت انه انما ذكر الشيء الحقير ليستخرج منه الامر الخطير وتلك عبرةٌ يجب ان ينظر اليها بعين الإعظام والاكبار . فاي تشبيه لعصبةٍ تذود عن حوضها وتتفانى في الدفاع عن العرض والمال اوقع من قوله قول الشنفرى مشبهًا بالنحل والزنابير : (ص : ٢٥٥)

مثل الزنابير ذبت عن خشارمها   والنحل لا يُتخلَّى عن خليّته

واي تمثيلٍ لجيشٍ كثيف يمور وجندٍ من حول زعائها تدور اصحُّ من قوله قول عنترة مشبهًا بالذُّباب : (ص : ٢٨٩)

حلُّوا بمفتته في عدةٍ عَمَصَت   يصلّون نار انتقام داخل الكبدِ
مثل الذُّباب اذا حان الربيع وقد   حامت بعنّة راعي العنز والنَّقدِ

تهافتت تبتغي الالبان هاجمةً على القصاع بلا حصرٍ ولا عددِ
وكل سيد قومٍ قام منفردًا بهم كراعٍ بها يستاق منفردِ ...

ثم انه نظر الى الطبيعة فتناول بتشبيهاته منها كل ما يلوح للناظر ويروق الخاطر فوصف النار من القبس والشرار الى الحريق الذي يلتهم الغاب ويدمر المدن الكبار . ووصف الاهواء والانواء من النسيم العليل الى الزوبعة والعاصفة والاعصار الوبيل . وجميع المهابّ من صبا ودبور وجنوب وشمال . والسحب والامطار من البخار المتصاعد حتى الغيم المتلبد ومن القطر الى الغيث المدرار والسيل الهدّار . واحاط بالبروق والرعود وظواهر الجوّ من قوس قزح حتى الشهب الثواقب . وضرب في الفيافي وصعد الجبال فمثل بالتشبيه جميع ما فيها من شجرٍ وغابٍ وصخرٍ وتراب ووصف الورقة الجافة والشجرة الشمّاء . وارتقى الى عالم الافلاك واتخذ ما شاء لموصوفاته من شمسها وقمرها وثوابتها وسيّاراتها . ثم خاض عباب البحر فاخذ بناصية حيتانه ونينانه وسائر سكانه من حيوان ونجان . وتلقى عجاجه واستقبل امواجه ومثله صافيًا وساكنًا ومشتدًا ومربدًا ومزبدًا مرعدًا . وجال الاقطار وعبر الانهار فولج جوف الارض فمثّل ما فيها وما تحتها وما فوقها وما يكتنفها من ماء وهواء

واذ فرغ من ذلك مدّ بصره الى احوال البشر فاخذ يقابلها بعضًا ببعض فما ألهاه الملك الوقور والزعيم الجسور عن الجندي الفقير والطريد الكسير . وما اغفل عاملاً ولا صانعًا ولا تاجرًا ولا زارعًا . وتطرق الى الشؤون البيتية فما غادر ابًا ولا امًّا ولا زوجًا ولا زوجةً ولا اخًا ولا اختًا ولا ابنًا ولا ابنة والمّ بكلّ قريب ونسيب . وبحث في اطوار الحياة فمثّل حالة الشيخ والكهل والشاب والطفل . وهو في كل ذلك مستنفرٌ الى الخير منفرٌ من الشر يشتد موضع الشدة ويرقّ موضع الرقة . فيقف بك تارةً ترقب العواصف والانواء وقد اكفهرّ الجوّ واضطرب اليمّ ومادت الجبال وزلزلت الارض زلزالها ثم ينثني بك طورًا وقد هاج العاطفة واستنزل الحنان بالتمثيل النافذ والتشبيه السهل

الممتنع فترى وصفه في معظم ذلك غريب الصنعة قريب التناول · فاي وصف للالذ اصدق من لياذ الطفلة بامها اذ يقول : (ص : ٨١٣)

شهقتَ كطفلٍ جرت تسرع   ومن دونها امها تهرعُ
فتعلق في ذيل اثوابها   ومقلتها صبًا تهمعُ
وترسل طرفًا بليلاً اليها   عناهُ بذلتها يشفعُ
وتجذبها وهي ضارعةٌ   لتحملها فتكفَّ البكا

واي تمثيل اصدق وارقُّ من قوله مشبهًا موت فتىً غض الاهاب في مقتبل الشباب وقد مال رأسه على صدره وهو يُحتضر : (ص : ٥٣٤)

فرأس الفتى لما بجنته منِي   بمغفرهِ المسرود أُثقل ينحني
كزهرة خشخاشٍ بيانع روضةٍ   يثقلها طلُّ الربيع فتنثني

ومن مزايا شعره انه كان يطلق عنان التصور في التشبيه فلا يوقف القول الا حيث وقف الخيال فقد يتناول تشبيهه ابياتًا وتندرج طيه تشبيهات اخرى وقد يشبّه في شطر او بعض شطر · وهذا ايضاً من مزايا الشعر الجاهلي التي اسلفنا انها ضعفت في المولّدين وان اجادوا الرسم كابن المعتز ما خلا افرادًا قليلين تناولوا المعاني فألموا بجميع اطرافها كابن الرومي

وكان مبغضًا للاغراب باللفظ والمعنى لا يقول الا ما ترضاه الخاصة وتفهمه العامة ينتحي مجاراة الفطرة وإنطاق الطبيعة يسعى الى الحقيقة ولا يتوخّى المجاز فلا يتطلبه في شعره ولا يتجنبه اذا عبَّر عن فكره · ولهذا كان كالجاهليين من العرب كثير التشبيه قليل الكنايات والاستعارات لا يأتي المجاز الا مرسلاً فجاء جميع ما ورد منه في شعره آيةً في بابه على قلته كقوله (ص : ٨٣٩) واغمض عينيه ستر المنون · وقوله (ص : ٥٩٤) او تفغر الحرب المهدمة الفا · وامثال ذلك من الاستعارات البسيطة السهلة

البديهيّات

اما بديهيّاته فحدّث عنها ولا حرج · فلقد تراه يخوض بحر المعاني فينثر

ما التقط منها من ابكار الافكار ثم يلفت يمينًا وشمالاً فيدرك بعين بصيرته ما طرق فكر سامعيه فيمدّ بصره الى مخيلة ذوي الالباب منهم ويستخرج ما ارتسم في اذهانهم بسياق الحديث فيعبّر عنه ببداهة ترتاح اليها النفس ويطمئن الخاطر . فاذا اتى مثلاً على وصف وقعةٍ التحم فيها القتال وتلاحمت الرجال وتعالى الصياح وتألق السلاح علم انه يخيّل للسامع شيء من البديهيات المطروقة فقال له :

والارض تحت الرَّجل والعجلِ مادت لثقلة هاته المللِ

او قال : وكأن السهول طارت شرارًا بمسير الاغريق فوق السهولِ

او قال : وفوق الصدور الطامحات تألّقت صوارمهم والسمر ايّ تألّق

وامثال ذلك من المعاني التي لا يحتاج فيها الى شحذ ذهن واعمال فكرة . وهي مع هذا ليست مما يستهان فالمعنى البديهي اذا حلّ محله خف على الطبع وقد يؤثر بحسن وقعه على كثرته تأثير المعاني المبتكرة على قلتها

النقل والسرقة وتوارد الخاطر

يسوقنا واجب الاستطراد في هذا البحث الى مؤاخذة بعض الباحثين في الشعر العربي اذ يضعون البديهيات موضع المبتكرات فينكرون على كل شاعر متأخر ان ينتحل معنى سُبق اليه فيخلطون بين السرقة وتوارد الخاطر . فلهذا لا نرى رأي صاحب « الابانة عن سرقات المتنبي » بقوله ان ابن الرومي وابا الهندي ومحمد بن هاشم العاري والمتنبي تناقلوا بعضُ عن بعض معنى طول الليل فقال ابن الرومي :

فكأنّ ليلتنا عليّ لطولها ثبتت تخفض عن صباح الموقفِ

وقال ابو الهندي :

يا ليل هل لك من صباح ام هل لنجمك من براح

وقال العاري :

سهرت ليلي فنوم العين متبولُ   كأن ليلي يوم الحشر موصولُ

وقال المتنبي :

من بعد ما كان ليلي لا صباحَ له   كأن اول يوم الحشر آخرهُ

فهذا من المعاني البديهيَّة التي تتوارد فيها خواطر الشعراء وغير الشعراء . وانما الفرق في التصرف فيها أفلا ترى ان كلاً من الاربعة تصرف تصرفًا مخالفًا للآخر

ومثله قول صاحب « الموازنة بين ابي تمَّام والبحتري » ان ابا تمـام كان ناقلاً لما قال :

كأن بني نبهان يوم وفاتهِ   نجوم سماء خرَّ من بينها البدرُ

اخذهُ من قول جرير في رثاء الوليد بن عبد الملك :

امسى بنوه وقد جلَّت مصيبتهم   مثل النجوم هوى من بينها القمرُ

او من قول مريم بنت طارق وهي ترثي اخاها :

كنا كأنجم ليـلٍ بينها قمرٌ   يجلو الدجى فهوى من بينها القمرُ

وما احرى هذا المعنى ان يكون شائعًا في امَّةٍ صفا جوُّ ارضها وسامرت القمر والنجوم طول ليلها . فليس هذا كلهُ من باب النقل وانما النقل في مثل ما استشهد به صاحب الابانة من قول المتنبي :

حتى رجعت واقلامي قوائل لي   المجدُ للسيف ليس المجد للقلمِ

اكتب بنا ابدًا بعد الكتاب به   فانما نحن للاسيافِ كالخدمِ

فهو مأخوذ عن قول ابن الرومي :

كذا قضى الله للاقلام مذ خلقت   ان السيوف لها مذ أرهفت خدمُ

ومثله ما استشهد به صاحب الموازنة من قول ابي تمَّام :

مضوا وكأن المكرمات لديهمِ   لكثرة ما اوصوا بهنَّ شرائعُ

فانه منقول عن ابي نواس اذ قال :

سنَّ للناس الندى فندَوا   فكأنَّ البخل لم يكنِ

واما شعراء اللاتين والافرنج فلم يحاذروا مثل هذه المحاذرة في نقل امثال

هذه المعاني ولا سيما بالنظر الى الالياذة فانهم اغاروا عليها غارة شعواء فطاوقوا بمعانيها اجياد منظوماتهم من الملاحم الى التمثيليات الى القصائد فنقلوا ونسخوا ومسخوا وسلخوا واقتبسوا وعارضوا وضمّنوا وتصرفوا وهم في الغالب لا يضمرون السرقة بل يفاخرون ان يُعلم انهم تحدّوا هوميروس حتى لو نظرت الى تلك المنظومات لرأيت المعاني الهوميرية مزدحمة فيها بتصرّف او بغير تصرّف ولا سيما مما ابعد فيه هوميروس بصره فاستنبطه بالتصوّر من المماثلات البديعة او استخرجه بالتشبيه من مكنونات الطبيعة كقوله في مثل معنى امرىء القيس بوصف جواده : (ص : ٦٩٩)

وهبّ الطراود والتصقوا   وفي الصدر هكطور مندفقُ
كجُلمود صخرٍ قد انتزعا   من الشمّ سيلٌ به اندفعا
له الغاب مرتجة ترجفُ   الى القعر حيث بعنفٍ يقفُ

فنقله فرجيليوس الى « انياذته » اللاتينية فقال (ن ١٢)

Ac veluti montis saxum de vertice praeceps
Quum ruit avulsum vento, seu turbidus imber
Proluit, aut annis solvit sublapsa vetustas,
Fertur in abruptum magno mons improbus actu,
Exsultatque solo; silvas, armenta, virosque
Involvens secum:....

واخذه عنه تاسّو الايطالي فقال « في اورشليمه » : (ن ١٨)

Qual gran sasso tal hor, che o la vecchiezza
Solve da un monte, o svelle ira de' venti
Ruinosa dirupa, e porta, e spezza
Le selve, e con le case anco gli armenti
Tal giù trahea de la fublime altezza
L'horribil trave e merli, e arme, e gente,
Diè la torre a quel moto une, o duo crolli;
Tremar le mura, e rimbombaro i colli.

ومثله قوله بلسان زفس بعد مشاجرة بينه وبين اخيه فوسيذون اسفرت عن ارعواء فوسيذون واستكانته : (ص : ٧٨٦)

ففوسيذ في بطن العباب قد التجا ومن نار غيظي في حزازته نجا

والا لأهمت فاتكات أكفنا بنا عرقًا يهمي به كل عارقِ

وكان اصطدامٌ بالعوالم يحدقُ ويزعج ارباب الجحيم ويقلقُ

فيا نِعم مسعاه لهُ ولعزّتي فإنا كُفينا فلق تلك الفلائقِ

فاخذه مِلْتن الانكليزي لوصف ارتداد جبريل عن ابليس فقال في « فردوسه »

........Not only Paradise
In this commotion, but the starry cope
Of heav'n, perhaps, and all the elements
At least had gone to wrack, disturb'd and torn
With violence of this conflict, had not soon
Th'Almighty, to prevent such horrid fray, &c.

وكثيرًا ما نقلوا عنه التصورات الغريبة والمعاني الطويلة المتشعبة بأصولها وفروعها وتصرفوا فيها كما نقل ڤولتير الفرنسي نجوى زفس للطرواد اذ قال : (ص : ٦٧٦)

(كتيبةٌ تلك ضمّت جلّهم عددا جندًا تمدُّ الى كيد العداة يدا)

كادت تجوز حفير القوم عابرةً اذا بطيرٍ لها تحت السماء بدا

فاستوقفت جزعًا في الجزف حائرةً تطيرًا وهو عن يسرى السرى وَردا ·

نسرٌ مخالبه في الجوّ قد نشبت بأفعوان خضيبٍ تحت قبضتهِ

فالافعوان وفيه لم يزلْ رَمَقُ ما بين اظفاره في الجوّ يصطفقُ

حتى عليه التوى بالعنف يلسعهُ في بارز الصدر حيث التفت العُنقُ

فصاح عن الم مرّ وافلتهُ وراح تحت مهبِّ الريح ينطلقُ

والأفعوانُ هوى للارض مختضبًا حيًّا وطروادةُ ارتاعت لرؤيتهِ

فقال ڤولتير منصرفًا ومتفننًا في مقدمة منظومته « كاتيلينا » :

Tel on voit cet oiseau qui porte le tonnerre,
Blessé par un serpent élancé de la terre;
Il s'envole, il entraîne au séjour azuré
L'ennemi tortueux dont il est entouré.

Le sang tombe des airs. Il déchire, il dévore
Le reptile acharné qui le combat encore;
Il le perce; il le tient sous ses ongles vainqueurs:
Par cent coups redoublés il venge ses douleurs.
Le monstre, en expirant, se débat, se replie;
Il exhale en poison les restes de sa vie;
Et l'aigle, tout sanglant, fier et victorieux,
Le rejette en fureur, et plane au haut des cieux.

وان امثال هذه المنقولات عن المعاني الهوميرية مما يملأ الاسفار ولم يُعب عليها هؤلاء الشعراء الا من تعمَّد السرقة وشفَّ نهجه عن ادعاء الابتكار على نحو ما نرى الكثيرين من المتطفلين على الشعر في هذا العصر

فعل الحضارة في استهجان المستحسن

واستحسان المستهجن في التشبيه والمجاز

إنّ مما ُبهت له بعض المتأخرين من نقلة الالياذة واشكل عليهم في لغاتهم تشبيه الانسان في بعض احواله بانواع من الحيوان ينظرون اليها بعين المهانة ويضعها هوميروس موضع العزة والكرامة . وهذا ولا ريب من نتائج طول العهد بالحضارة . ولا أعلم أهي حسنةٌ لهذه الحضارة ُتمدح عليها أم سيئةٌ تؤاخذ عليها وانما اعلم ان في اصنافٍ كثيرة من الحيوان مزايا يعز على الانسان ان يتصف بأحسن منها . ولا اذكر حيوانًا تقادم العهد على وضعه موضع الخسّ والهوان كالكلب فقد عرّض هوميروس بذكره مرارًا للسباب والتحقير وهكذا فعل اكثر الكتّاب من المتقدمين . وفي شعر العرب وكلام مؤرخيهم وادبائهم من هذا المعنى ما لا يدركه حصر فلا يكادون يشيرون الى شخص يريدون ازدراءه او شتمه الا قالوا « هذا العلج الكلب » و « هذا الكلب البذيء » وما اشبه . فكأنهم تناسوا جميع ما في هذا الحيوان الامين من كرم الخلال واغاروا على شيء من الدناءة فيه وان كان لم يستأثر بها دون سائر الحيوان ناطقًا كان او غير ناطق . ومع ذلك نقد وفّى هوميروس كل صفة حقها . فهو اذا وصف الكلب بالبذاءة فما اغفل

سائر ما فيه من الخصال فأطرأ امانته ومهارته في تقفّي القنيصة وبسالته في تأثر الضواري . وفعل فعله شعراء الجاهلية مما عارضناه بشعر هوميروس في موضعه

واما ما بقي من الحيوانات فقد اقتطع منها هوميروس صفاتٍ حميدةً وصف بها كبار قومه وكرامهم وهو ما اردناه بقولنا انه اشكل على بعض كتّاب الافرنج وثقل عليهم نقله الى لغاتهم . فاذا شبّه رجلاً صبورًا بالحمار رأيتهم يتثاقلون بنقل الكلمة بل ربما اكلوا الحمار برمّته كما فعل پوپ في النشيد الحادي عشر وعذرهم في ذلك انه يشوّه وجه ترجمتهم . واذا شبّه هوميروس عظيمَ القوم بالثور عظُم عليهم الامر وحسبوها ورطةً يجب التملص منها . وربما بدّلوا حيوانًا بحيوان فجعلوا الخنازير دببةً والكلاب ذئابًا وهم يزعمون انهم لطّفوا المعنى ولا إخالهم فعلوا

ولستُ بمنكرٍ ان الانقلاب الذي طرأ على مفاد التعبير عندهم قد أصابنا منه شيءٌ كثير . فليس منا من يستحسن تشبيه كريمٍ قوي الجنان رابط الجأش بالحمار ولا تشبيه باسلٍ مغوار بالخنزير . على ان اليقين ان ابناء الجاهلية من كل قومٍ لم يكن هذا شأنهم ايام كانت الفطرة تأخذ بالظاهر ولا تتكلف التأويل . وتتشبث بالحقيقة مهما ثقلت

وحسبنا ان نرجع الى ايام جاهليتنا وما وليها من مُقتبَل الاسلام ونتصفح معاجم لغتنا فنرى ان هوميروس لم يأتِ شيئًا فريًا — قال في اساس البلاغة « الثور الفحل من البقر والسيد وبه كنّي عمرو بن معدي كرب » . ومما يذكر هنا استطرادًا ان الثور لايزال لقبًا مكرّمًا في السودان . ويقال مثل ذلك في الجَـدَع بمصر وهي من الجَذَع . وفي محيط المحيط الجذع من البهائم قبل الثني والشاب الحدث ومنه قول دُرَيد :

يا ليتني فيها جَذَع   اخبّ فيها وأضـعْ

وفي كتب اللغة الكبش الحمل وسيد القوم وقائدهم والمنظور اليه فيهم ومنه قول لبيد :

بكتائب رجحٍ تعود كبشها نطح الكباش كانهن نجومُ

وقول اسد بن ناعصة :

ولربّ كبش كتيبة غادرته يكبو لجبهته صريعًا اهحلا

متنجعًا قد دق في حيزومه صدر القناة على الفرار تجدّلا

والقَرم الفحل ثم استُعمل للسيد العظيم على التشبيه له بالفحل وقد اجتمعا في قول المتنبي يمدح سيف الدولة

ولكنا نداعب منك قرمًا تراجعت القروم لهُ حقاقا

اي نمازح منك سيدًا صارت الرجال بالنسبة اليه كالنياق بالنسبة الى فحول الجمال

والرُّتّ الخنزير الذكر وأُجرى مجازًا على الباسل المقدام فيقال هو رتٌّ من الرتوت وهو من رتوت الناس اي منْ عليّتهم وسادتهم (اساس)

والقَبُّ الجمل والرئيس والملك . والفنيق الفحل المكرّم من الابل لايؤذى ولا يُركب . والسيد المسنّ من المعز والرئيس . والأصيَد الملك والبعير الذي فيه داء الصَّيَد وهلمّ جرًّا

ويقال مثل ذلك في بعض ما برز من اعضاء الحيوان كالناب والخرطوم والانف والقرن فهي وان كانت مما قد يستهان به الآن لم يوضع اكثرها في الكلام عن الناس الا للرفعة والسيادة . فاذا راجعت كتب اللغة قرأت : الخراطيم اسياد القوم . انياب القوم ساداتهم . ومنه قول الشاعر

كنت لهم في الحدّثان نابا القى العدى وضيغماً وثّابا

ولم اكن هردبة وجّابا (اساس)

القرن السيد تشبيهًا بقرن الثور لبروزه . انف القوم سيدهم ومنه قول الحطيئة في بني انف الناقة

قومٌ هم الانف والاذناب غيرهمُ ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

ولا عبرة بما قيل ان العرب كانت تعيّر بني انف الناقة بذاك اللقب

وليس النعت بهذه الاوصاف مما خُصّ به بنو الجاهلية بشعرهم بل اتصل منه شيء بشعراء التابعين والمولدين حتى انه لايندر ان نرى شيئًا من هذه الالفاظ في كلام المؤرخين كقول العتبي في السلطان محمود بن سبكتكين واقبل كالفحل الفنيق . ولا تكاد تجد مؤرخًا لا يقول قول ابن خلدون : وكان فحل ذلك الشول وكبش تلك الكتائب الخ . وامثال هذه الالفاظ لا تثقل على مسمع العربي حتى يومنا . بل لايزال بعضها مما يحلى به جيد الكلام

واننا بهذا الاعتبار نقسم هذه الالفاظ الى اربعة اقسام : ما أُهملت حقيقته ومجازه كالرَّتّ والقَبّ فلا نرى من يستعملها لانسانٍ ولا لحيوان

وما بقيت حقيقته ومجازهُ كالفحل والكبش فهما وان كانا موضوعين للحيوان فقد يوصف بهما الانسان وصف تكريم فنقول هو فحلٌ من فحول الشعراء وكبشٌ من كباش الهيجاء

وما أُهملت حقيقته وبقي مجازه كالجَذَع عند العامة في مصر فهي انما تستعمل للاطراء وان كانت لا تزال على معناها الوضعي في اماكن اخرى

وما أُهمل مجازه وبقيت حقيقته كالثور والحمار وهو اكثرها . فما منا من يرضى ان يلقّب حمارًا ولو قيل له ذلك كان لقب مروان بن محمد الخليفة الاموي الحازم لُقّب به على ما أجمع المؤرخون لصبره ورِباطة جأشه وشجاعته . قال القرماني : ويقال في المثل فلانٌ اصبر من حمار في الحروب . وهو ايضًا اللقب الذي لقب به يعقوب ابنه يساكر في التوراة . وليس من يسرّه ان يكنى بالثور وان كانت تلك كنية عمرو بن معدي كرب سيد العرب . وما من احد يرتاح ان يقال له انف الناقة وان وضع الحطيئة ذلك اللقب موضع رفعة واجلال . وقد نأبى ان يعرّف احدنا بالجمل وان عُرّف به ابن عم النبي حمزة بن عبد المطلب . على اننا من وجه آخر لا نرى غضًا من قدر من يلقّب بالسرحان وان كان ذلك لقب الذئب او يكنى بأبي خالد وان كانت تلك كنية الكلب

مزية العربية على لغات الافرنج في هذا الباب

لما كنت قد آليت على نفسي ان لا احرّف الكلام عن مواضعه وان لا اعبث بوصفٍ او تشبيه فأميل به عن اصله الوضعي تفاديًا من ثِقَل على الآذان عمدت الى نهجٍ بغي بالمرامين: استبقاء الاصل على وضعه ونبذ الالفاظ التي باتت بعرف الحضارة من باب الحوشي الساقط في المدح فلا يُمدَح بها كبيرٌ ولا صغير. وفي لغتنا والحمد لله متسعٌ فسيحٌ لمثل هذا المجال بخلاف لغات الافرنج التي لا تعاد تكأّبها عن استعمال اللفظة بعينها والا اضطُرّوا الى تبديلها او اغفالها اصلاً

فاذا عرض لي مثلاً تشبيه رجلٍ باسلٍ بالخنزير الذكر ينفسح لي بابٌ في كتب اللغة لانتقاء كلمة اخرى فاقول الرَّتّ او الخرنوص فلا اغير شيئًا من المعنى واكفي موؤونة أنفة القارئ. واذا اضطررت الى استعمال لفظة الحمار بمقام المدح وهو تشبيه شُبّه به اياس البطل الباسل عمدت الى كلمة اخرى فقلت « الجأب » وهو الحمار بعينه

واذا آنست رنّة خشنة على الأُذن بذكر الكلاب بهذا اللفظ قلت « النواهس » و « الغضف » و « الضراء » وما اشبه

واذا خشيت هجنة بان يقال قطيع البقر قلت « الصوار » وهو هو

ولزيادة الايضاح اضرب لك مثلاً واحدًا مما سترى اشباهه بمطالعة الالياذة:

اطرأ الشاعر بسالة هكطور (ص : ٥٣٦) في واقعة فشبهه وهو يتعقب الاعداء بالكلب الذي يتأثر الاسد المذعور او الخنزير البرّي فقال:

وهكطور صدر الجيش يجري ويلغبُ　　وبكسا في الارداف من يتعقّبُ
كأغضف هولٍ قد تأثر ضيغمًا　　تذعّرَ او خرنوص برّ يكبكبُ

فاراني لو قلت: ككلبٍ كبيرٍ قد تأثر ضيغمًا او خنزيرًا الخ لما زدت على المعنى ولا انقصتُ ولكن شتان ما وقع هذا التعبير وما ذاك على المسامع

الخاتمة

قال بعضهم :

للسادة الشعراء فضلٌ ثابتٌ ولهم مقامٌ شامخٌ ومكانُ
وهم سلاطين الكلام ألا ترى كلَّ امرىءٍ منهم له ديوانُ

نظر صاحب هذين البيتين الى الشعر العربي من حيث انه دليل البلغاء وحجة اللغويين وشاهد الخطأ والصواب . ولكنه لو أراد الزيادة لقال ان سلطان الشعراء يمتدُّ الى ما فوق ذلك . وان الشعر ريحانة النفوس ومبدّد البؤوس . وقد كان في غابر العهد سجلّ الحكمة ومنهل النعمة ونعط الفخار ومطمح الابصار . وان شاعرًا واحدًا كان يرفع قبيلةً ويخفضها ويعزُّها ويذلُّها فينفذ كلامه في الاحساس ولا نفوذ احكام الآمر المستبد بالناس . وان سلطة الشعراء في الجاهلية كانت تباري سلطة الرؤساء . والقبائل تستثمر سلائق الفتيان أبان توسمت فيها الذكاء استثمار بني الحضارة كلّ غرسٍ زهيّ وفرعٍ زكيّ . فاذا نبغ فتاهم وقال قولاً نافذًا تباشر به الكهول والشبان والشيوخ والولدان وخرجت النساء بالمزاهر وغنين ورقصن وقلنَ ازف الفرج فقد صينت الاعراض وحفظت الانساب وارتفعت الاحساب وحُمي الذمّار وتخلدت الآثار . وطارت البشائر فأقبلت الوفود من سائر العشائر كأنهم في يوم نصرٍ عظيم

ولطالما قال شاعرهم ابياتًا فتناقلتها الركبان واومضت وميض البرق فبهرت الانظار وقضت الاوطار . — قالوا ان الاعشى الاكبر كان يأتي سوق عكاظ في كل عام فيتجاذبه الناس في الطريق للضيافة طمعًا بمدحه اياهم في سوق عكاظ فمرَّ يومًا ببني كلاب وكان فيهم رجل يقال له المحلّق فقير الحال ضيق المعاش وله ثماني بنات لا يخطبهنَّ احد لمكان ابيهنَّ من الفقر وخمول الذكر . فقالت له امرأتهُ ما يمنعك عن التعرض لهذا الشاعر وإكرامهِ فما رأيت احدًا اكرمهُ الا

واكسبهُ خيرًا فقال ويحك ما عندي الا ناقتي فقالت يخلفها الله عليك . فتلقاه قبل ان يسبق اليه احدٌ من الناس . وكان الاعشى كفيفًا يقودهُ ابنه فاخذ المحلق بخطام الناقة فقال الاعشى من هذا الذي غلبنا على الخطام فقال فتىً شريفٌ كريم . ثم اتى بهِ منزلهُ واكرمهُ ونحر الناقة وجعلت البنات يدرنَ حولهُ ويبالغن في خدمته فقال ما هذه الجواري حولي. فقال المحلق بنات اخيك وهنَّ ثمان نصيبهنَّ قليل فقال الاعشى هل لك حاجة فقال تُشيد بذكري فلعلي أُشهر فتخطب بناتي فنهض الاعشى من عنده ولم يقل شيئًا فلما وافى سوق عكاظ انشد قصيدته التي انشأَها في مدحه وهي التي يقول فيها

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ الى ضوء نار بالبقاع يحرّقُ

تشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلّقُ

فاشتهرت القصيدة ولم تمضِ على المحلق سنة حتى زوّج بناته ويسرت حالهُ

وان في كتب العرب من اخبار شعراء الجاهلية ما لا تُعد هذه الرواية بجانبه امرًا خطيرًا

وكان المولّدون مع تبذُّل الجم الغفير منهم وانحطاط منزلتهم عن شعراء الجاهلية ينالون بشعرهم ابعد المطالب . — روى ابن خلكان انه قدم بين يدي المامون نصر بن منيع وكان قد امر بضرب عنقهِ فقال نصر يا امير المؤمنين اسمع مني كلماتٍ اقولها فقال قُل فانشأ يقول :

زعموا بان الصقر صادف مرةً عصفور برّ ساقهُ التقديرُ

فتكلم العصفور تحت جناحهِ والصقر منقضٌ عليه يطيرُ

اني لمثلك ما اتمُّ لقمةً ولئن شُويتُ فانني لحقيرُ

فتهاون الطير المدلُّ بصيده كرمًا وافلت ذلك العصفورُ

فعفا المأمون عنه

واما الاموال التي كان يستدرّها الشعراء بشعرهم فمما يفوق التصوُّر . وهم وان كانوا يجازون بها احيانًا محاذرةً من هجوهم والجامًا لالسنتهم فكثيرًا

ما كانوا ينالونها بما اطربوا وارقصوا وخلبوا العقول . — ذكروا ان ابن باجّة التجيبي آخر فلاسفة الاسلام بالاندلس انشد ابا بكر الصحراوي صاحب سرقسطة موشحًا في مدحه فاطربه حتى كاد يفقده الرشد فما بلغ قوله :

عقد الله آية النصرِ لامير العلا ابي بكرِ

حتى شق الممدوح ثوبه من شدة الطرب وحلف لا يمشي ابن باجّة الا على الذهب فخاف الشاعر عاقبة الامر فجعل في نعله ذهبًا ومشى عليه

تلك كانت منزلة الشعراء عند العرب في سالف الزمن وتلك هي ايضًا منزلتهم في سائر الملل . فان في اخبار شعراء الفرس ما يضاهي اخبار شعراء العرب . وقد علمت ان اليونان ما زالوا يصعدون بهوميروس حتى اخرجوه من مصافّ البشر واحلّوه بين الآلهة وبنوا له المعابد . وكانوا يتعاكظون ويتنافرون ويتنافسون ويتحمسون على نحو ما كان يفعل العرب في سوق عكاظ وشعراؤهم في كل ذلك كخيل الرهان « فالسابق السابق منها الجواد » . — ذكروا ان فنداروس الشاعر الموسيقي الذي نبغ بعد هوميروس باربعة قرون كان اذا جلس للانشاد في الحفلات الاولمبية وغيرها تحمّس له الشعب وشقت نعرتهم كبد السماء وكلّلوه باكاليل الظفر . فلما مات اخذوا الكرسي الذي كان يجلس عليه في موقف الانشاد ووضعوه بين انصاب الآلهة . شاد له اهل ثيبس هيكلاً واقاموا له فيه نصبًا وهو بعدُ حيّ . ولما اكتسح الاسكندر بلدة ثيبس ودمر بيوتها أمر ان لا يُمس بيت فنداروس بسوء

وكم من شاعر اثار خواطر أمّة بامرها فاستنفر واجيب واستصرخ فتألبت له جيوش الكلام فغلبت كتائب الحسام . وفي الاثر ان صاحب الشريعة الاسلامية كان ينصب لحسّان بن ثابت منبرًا في المسجد يقوم عليه ينافح عنه فكان ذلك على قريش اشد من وقع النبل . وان حسّانًا قال له « لاسلّك منهم (اي من قريش) سلّ الشعرة من العجين ولأفرينّهم فري الاديم » فصبّ على قريش من هجائه شآبيب شرّ فقال له « شفيت يا حسّان واشفيت » ثم قال « حسان حاجزٌ

بيننا وبين المنافقين »

وليس العهد ببعيد بما كان من نفوذ سهام الشعر البليغ في بلاد المغرب من عهد بيرُن الى هذه الايام

ولسنا بآملين في هذا العصر ان يشب شعراؤُنا الى تلك المنصّة الشامخة وانما نطمع ان يظلوا سائرين بنهضتهم سيرًا حثيثًا ويجاروا تيار الترقي فلا يطمو عليهم · ولهم في ذلك الفوز والفلاح وللامة الخير والصلاح

قال ابو بكر الخوارزمي « من روى حوليّات زهير واعتذارات النابغة وحماسيّات عنترة واهاجي الحطيئة وهاشميات الكميت ونقائض جرير وخمريّات ابي نُواس وتشبيهات ابن المعتز وزهريّات ابي العتاهية ومراثي ابي تمّام ومدائح البحتري وروضيّات الصنوبري ولطائف كشاجم ولم يخرج الى الشعر فلا اشبَّ الله قرنهُ » وهو كما نرى قول متحمّسٍ مولَع بالشعر وقد انالته الفطرة منه حظًّا وافرًا · والاَّ فالخروج الى الشعر متعذرٌ على من لم يكن ذلك في طبعه · على ان هذا القول صادقٌ على من كان الشعر في سجيَّته فان مطالعة نفيس الشعر تشحذ الذهن وتهذّب اللفظ وتجلو المعنى فتستقيم بذلك وجهة الشاعر المطبوع

واللغة العربية شعريّةٌ بطبعها لتفرُّع مفرداتها وتنوُّع اشتقاقاتها القياسية على اسلوبٍ لايُرى له مثيل في اللغات الآرية · والقوافي مزدحمة فيها ازدحامًا يسهّل النظم · وهي بخلاف ما يزعم بعض الاعاجم جزلة التركيب محكمة الانسجام · وفيها من طرق الحذف والتقدير والتقديم والتأخير ما ينفسح معه المجال للشاعر لصوغ عبارته على قوالب شتى · وتلك مزيّةٌ تمدح عليها اللغة في الشعر وان عيبت في النثر حيث يُقصد الجري على نمطٍ واحد جليّ · وهي على الجملة متسعة للشعر اكثر منها للنثر · فشعرها منذ القديم ارفع طبقةً من معظم نثرها وجيّده اسهل منالاً من جيد النثر حتى لقد تجد النثر شعرًا في كثيرٍ من الاحوال

ولا شك ان الزمان قد طوى كثيرًا من الفاظها الوضعية . ولكن ما بقي منها فوق حاجة الشعراء لتأدية المعاني الفطرية والافكار البديهية والاوصاف الخلقية والحقائق الحكمية وسائر ما توخى تدوينه قدماء الشعراء كهوميروس وفنداروس وفرجيليوس وهوراس . فهي بهذا المعنى لا تقصر بشيء عن لغة الالياذة اليونانية المشهورة بجزالة تركيبها ورقتها وانسجامها وإحكام وضع المفردات فيها

ولا ترجح اليونانية على العربية الا باتساعها لمشاكلة الالفاظ للمعاني وتوفر اسباب النحت فيها لصوغ الالفاظ المركبة . وفي ما سوى ذلك لا اخال لها رجحانًا بل ترجح العربية في اتساع المفردات وتشعب طرق التركيب والخروج بقياس الاشتقاقات الى ما لا نهاية له من المعاني

واقد بدا لي اثناء التعريب من ثروة العربية في الالفاظ الوضعية القديمة ما اغناني عن الانحراف بالمعنى على نحو ما اضطر اليه بعض نقلة الافرنج على ما تقدم في الفصل السابق . ورأيت من المماثلة بين اللغتين في دقة الوضع ما يُدهش له الناظم والناثر . وينبئك ذلك ان العرب لم يغفلوا وضع شيء من الالفاظ الدالّة على جميع مطالعاتهم ومحسوساتهم حتى اصبحت مفردات اللغة في زمنهم رابيةً على حاجة التعبير ولاسيما في الحسّيات . وما هذا النقص البادي الان في إحكام التعبير وخصوصًا في المعنويات الا نتيجة إهمال الخلف اقتفاء آثار السلف

وهو معلومٌ ان الالياذة نُظمت في زمنٍ كانت احوال المعاش فيه قريبةً لاحواله بين قدماء العرب . ولهذا كان على المعرّب ان يقابل معانيها بما رادفها من لغة العرب بلا انحرافٍ ولا تأويل واللغة متسعةٌ لذلك . فاذا وصف الناظم السلاح وهو سلاح العرب ففي اللغة لفظةٌ بل الفاظٌ للدلالة على كل ما قال من الشكّة اي السلاح الكامل الى الحجَر . فلا يُعدم الناقل وسيلةً للتعبير عن كل ما ذكر من السيوف والمدى ومناصلها واغمادها . والرماح والزِجاج وكعوبها واسنّتها وصعادها . والدِلاص والابدان والدروع وحلقها وزردها وقتيرها . والخوَذ

والترائك والمغافر وبيضها وقوانسها وعذباتها . والتروس والجواشن وحرابيها وحمائلها وهُدَّابها . والقسيّ وما لازمها من النبل المقذَّذ والسهم المريش والوتر والفُوق والفَرض والسرية والنيزك . وسائر ما أُهمل او كاد يُهمل من معدَّات الهجوم والدفاع كالفأس والخذفة والفطّيس — واذا اتى على ذكر الخيل فما من لغةٍ اوسع من العربية بأوصافها وتمثيل عَدْوها وجريها وتطبيقها وتقريبها وحُضرها وارتفاعها — واذا ذكر الحروب وعليها مدار الالياذة فلم تتفنن امةٌ فوق العرب بوصف القتال والنزال والمجاولة والمصاولة والمشق والرشق والحذف والقذف والمماصعة والنفح بالمناصل والضرب بالمعاول والوخز بالعوامل . وقس على ذلك جميع ما تناول وصف الاحوال الماشية والروابط القومية والاحكام العرفية والمناظر الطبيعية من وهادٍ وهضاب ومطرٍ وسحابٍ وبحرٍ وبرّ وزرعٍ وضرعٍ وماء وهواء وارضٍ وسماء . — بل قد تجد خزانة العربية اجمع وثروتها اوسع بما حوت من الالفاظ المفردة التي لايعبَّر عنها في لغات الاعاجم الا بعبارات . واني موردٌ لك الآن امثلةً مما عُبّر عنه في اليونانية بكلمتين فأكثر ويتيسر ردُّه في النقل العربي الى كلمةٍ واحدة في الافعال والاوصاف والموصوفات . ذلك كالسلهب للجواد الطويل . والاجيد للجواد الطويل العنق . والاجرد للفرس القصير الشعر . والقبُّ للخيل الضامرة والقياديد للخيل الطويلة . والتَّبيع والتبيعة لولد البقرة لحولٍ واحدٍ والحَوليّ لابن سنة من ذوات الحوافر وغيرها . والسَّديس للذي اتم خمس سنين . والجبهاء للعريضة الجبهة . والأكيس لمن اقبلت جبهته وادبرت هامتهُ من الناس . والطَّحُور للقوس البعيدة المرمى . والزِجاج والمطارد للرماح القصيرة . والثلَّة لجماعة الغنم والمعز . والرَّعيل للقطعة من الخيل . والصوار لقطيع البقر . والدسيع لمغرز العنق من الكاهل والوتيرة لما بين المنخرين . والبأديل للَّحم بين الابط والثندوة او لحم الثدي . وصرَّح بمعنى رمى ولم يُصِب وامثال ذلك مما سترى منه في الالياذة شيئًا كثيرًا

ومن جميل المشاكلة بين اليونانية والعربية في الاصل والتعريب على نمطٍ واحدٍ جري بعض الالفاظ مجرىً واحدًا باللغتين في الحقيقة والمجاز . فمن ذلك

ما تشترك فيه معهما لغات كثيرة كاطلاق لفظة (γεροντες) الشيوخ بطريق المجاز على الزعماء وكبار القوم . ومنه ما لا يكاد يتعداها الى غيرها كاستعمال لفظة (خيتي) (χαιτη) للشعر وورق الشجر ويقابلها الفرع بالعربية

وبين اليونانية والعربية فرق كبير في نسج العبارات وتركيب الجمل من حيث التقديم والتأخير وصيغ الاشتقاق والجموع والحروف والنحت وتركيب الاسماء ولكن نهج كل لغة حسن في بابه واسباب الفصاحة متيسرة لابناء كل لغة اذا احكموا الرصف على نهجهم

ولكن للعربية مزيتين في مفرداتها تقصر اليونانية وسائر اللغات عن مجاراتها فيهما . وهما كثرة المترادفات في الالفاظ الدالة على المعنى الواحد وتعدد المعاني للفظة الواحدة . فقد ذكروا عشرات ومئات من الالفاظ الموضوعة لمسميات معينة من الحيوان كالاسد والحية والبعير والناقة والفرس والثور والكلب والهر . والمأكولات كالتمر واللبن والعسل . والمشروبات كالماء والخمر . والسلاح كالسيف والرمح . والصفات كالطويل والقصير والكبير والصغير والشجاع والجبان والكريم والبخيل . وغير ذلك من مألوفهم كالنور والظلام والشمس والقمر والسحاب والمطر والتراب . والحجر . ولهم مثل ذلك في الافعال . فقد عدّ احدهم اكثر من الف فعل يمكن اطلاقها على معنى واحد . ويقابل ذلك تعدد معاني اللفظ الواحد فاذا تصفحت معاجم اللغة وقرأت باب الخال والحال والعين والعجوز وامثالها تولاك العجب لكثرة معاني كل كلمة منها

ولقد يعلم اللبيب ان كل تلك المترادفات لم توضع في اللغة على نية الوضع بل وقع ذلك اتفاقًا : إما لمنقول عن الاعاجم . واما لاختلاف المدلولات في لغات القبائل المتباعدة . واما للمح صفة مقصودة يتغير بها المعنى تغيرًا طفيفًا لا يُشعر به لوحدة المسمى . فالخمرة مثلاً انما سميت كذلك لاختمار موادها فاذا قيل الراح لُمح الى الروح والارتياح . او الرحيق نُظر الى صفائها وطيب رائحتها . او السلسبيل قُصدت سهولة مساغها وهلم جرًّا . ولكن هذه المميزات فُقدت في الاستعمال واصبحت

المترادفات متشابهة يقوم كل منها مقام الآخر مع انه لا يوجد في الاصل ترادف تام في مفردات اللغة الا في ما صدر عن لغتين لقبيلتين مختلفتين كالليث والورد للاسد او نُقل من لغة الاعاجم الى العربية مع بقاء اللفظ العربي فيها كالمينا من اليونانية للفرضة البحرية

وان للناظم فائدة من هذا الاتساع اذ يتيسر له ان يلتقط من هذه المترادفات ما وافق بحره وقافيته . نقد اتفق لي اثناء التعريب ان استعملت كثيرًا من اسماء الاسد كالليث والغضنفر والضرغام والقسورة والهزبر والورد والضيغم . ولكن هذه الفائدة لا تذكر في جنب ما يلقيه هذا التراكم من العثرات في سبيل المنشيء الناثر والطالب الراغب في الاحاطة باوابد اللغة وشواردها حتى لقد يرتبك بها الشاعر في بعض الاحوال . ومن ذا الذي تحثه الدعوى الى زعم الالمام بجميع هذه المترادفات بل اي حافظة تعي خمسمئة اسم للاسد ومئتين للحية ومئتين وخمسين للناقة . وما عسى ان تكون الجدوى من وجود اربعمئة اسم للداهية . ونعم القول قول الثعالبي « ان تكاثر اسماء الدواهي من الدواهي » . فامثال هذه المترادفات عبء ثقيل على كاهل اللغة . فانما يحسن حفظها في مطوّلات المعاجم للرجوع اليها في استجلاء غوامض الكلام والشعر القديم ضنًا بذلك الذخر الثمين ان يتشتت وتذروه عوامل الغموض والنسيان . ولكنه لا يجدر بالطلاب والكتاب ان يتشبثوا بوحشيها ومهملها لئلا تستغلق عبارتهم وتجهد قريحتهم على غير جدوى فيَتعبون ويُتعبون ونثقل روحهم على روح المطالع

وقد جرت للعرب منذ القديم عادة حميدة في مجاراة الزمان وسنن الطبيعة واهمال ما تقادم العهد على نبذه . فكانوا يتحاشون في شعرهم ونثرهم ايراد الالفاظ المهملة في عصرهم . وفي روايات الاصمعي كثير من كلام الاعراب المتوغلين في البداوة مما لم يكن يفهمه اهل زمانه لاهمال النطق به والعدول عنه الى مرادف اسهل واطلى . وايضًا فانهم لم يكونوا يكثرون من استعمال الالفاظ الدالة على معاني مختلفة الا في ما شاع من معانيها مطّرحين ما غمض منها او احتاج الى

تأويل . ولهذا كان شعر المولدين اقرب مما سواه الى فهمنا لقرب عهده منا وخلوّه من كثير من غوامض الكلام . ويتلوه شعر المخضرمين ثم شعر الجاهليين . فحسبنا ان نتّبع خطتهم فنبلغ بالنظر الى عصرنا ما بلغوا بالنسبة الى عصرهم فيسقط ما قضى عليه الزمن بالسقوط و يبقى ما صلح للبقاء

يؤخذ مما مرَّ ان العربية قد خُصَّت بثروةٍ في مفرداتها واتساعٍ في طرق تعبيرها تفاخر بهما سائر اللغات القديمة والحديثة . ولكن تلك الثروة وذلك الاتساع قد يمسيان بالاهمال وسوء الاستعمال ضيقًا وفقرًا . — فاذا شكونا الزيادة فما احرانا ان نشكو النقصان . فقد مرَّت القرون وتعاقبت الاجيال واللغات الحديثة جاريةٌ مع العلم والحضارة جري الشقيق الشفيق . والعربية كانت حتى هذا الزمن القريب ثابتةً في موقفٍ واحد كأن باب الاجتهاد قد أُوصد في وجهها وليس في سنن الخلق ما يوجب ذلك الايصاد بالنظر الى اللغة . بل اذا تتبعنا خطة السلف من عهد الجاهليين الى انقضاء العصر العباسي رأينا أبناء هذه اللغة عاملين على تمحيصها وتهذيبها وابداعها كل ما بدر وصدر من نتاج العلم او اقتضته ملابسة سائر الملل . فكانت في مقدمة اللغات اتساعًا لكل مادّةٍ ومعنى . ولم تكن تضيق عبارة ناظمٍ ولا ناثرٍ عن تأدية كل مفادٍ عصري . فما بالها وهي لا تزال ذلك البحر الزاخر تضيق الآن عن كثير من التعبيرات العلمية والصناعية والسياسية . ولا مسميات فيها لكثيرٍ من اسماء الاختراعات والآلات الحديثة والادوات البيتية . أفكان يزهى قدماء العرب بهذا النقص وقد وضعوا الاسماء العديدة لخشبات الصنّاع والقدور والقصاع والدلاء وحبالها والناقة وعقالها والملوك والزعماء والعوارف والوفود والفيوج والاحلاف والاحزاب والانصار والطلائع والسرايا والعهود والمواثيق وسائر ما دعتهم اليه حاجةٌ او عرف

ولا ينحصر هذا النقص في ما تقدّم بل يمتدُّ الى كثير من المعاني العصرية والتعبيرات الخيالية والتصورات التي استحدثها الزمان . فالعربية في حاجة الى نظرٍ

في كل ذلك . وهو امرٌ طبيعيٌّ لامناص منه اذ لو نُشر هوميروس وامرؤ القيس وأرادا تمثيل جميع هذه الاحوال بلغتيهما لاضطربت عبارتهما واشكل عليهما التعبير . ولو ركب النابغة سفينة البخار لما اجاد بوصفها اجادته بوصف سفينة البرّ اي ناقته الضاربة في فيافي البيداء

وكان شغف العرب بلغتهم يدفعهم الى الحرص عليها ومباراة الاعاجم بها فما بدت لهم ثغرةٌ الا وسدُّوها ولا حليةٌ الا وزينوها بها حتى انه لم يكن يثقل على طباعهم ان ينقلوا اليها مئات من الالفاظ الاعجمية ثم يردُّوها اليهم أُلوفًا مؤلفة . بل لم يستنكفوا من التصرف ببعضها وصوغ الافعال منها وتصريفها وان كانت غير مصرَّفة في الاصل فقالوا « فلسفة » و « تفلسف » و « زنديق » و « تزندق » و « طراز » و « طرّز » و « دهقان » و « دهقن وتدهقن »

ولكن هذا الاخذ عن الاعاجم لم يكن الا نزرًا يسيرًا بجانب ما استخرجوه من مفردات لغتهم وطبَّقوه على المعاني المستحدثة ولا سيما في العلوم التي لم يكن لها اثرٌ في الجاهلية والاصطلاحات التي اقتضاها انتظام احكامهم وتوغلهم في الحضارة . فانهم لما شرعوا في وضع العلوم العربية كالصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض . والدينية كعلم الكلام والتفسير والفقه والحديث . والعلوم الطبيعية والرياضية وسائر ما نقلوه من كتب الاعاجم كالفلسفة والمنطق والطب والفلك والحساب والهندسة والجبر والكيمياء شرعوا في كل ذلك وليس في لغتهم الا شبه شيء مما يشير الى مدلولاته فما كان ايسر عليهم من ان يستخرجوا من لغتهم اوضاعًا استكملوا بها جميع مدلولات العلوم العربية والدينية ومعظم مدلولات العلوم الطبيعية واتسعت لغتهم لكل ذلك حتى عوّل الاعاجم على كثير من موضوعاتهم ونقلوها الى لغاتهم « كالجبر والسمت والقلي والنظير والكحول والسموم »

ولما اتسعت احكام سياستهم وتغيرت طرق معاشهم وازدادت تصوُّراتهم بما رأوا وسمعوا وقرأُوا وكتبوا وضعوا اسماء وافعالاً لكل ما استُحدث لديهم من طعام وشراب ولباس ومتاع ونظام حكومة وطريق سياسة وتوسعوا في المعاني الشعرية

والاساليب الانشائية فكانت اللغة تجاريهم في النمو والسعة

وان اردت التثبت من توسعهم في ذلك الاستحداث ندونك كتب اللغة فلا تكاد تجد صفحة منها خاليةً من الاصطلاحات الموضوعة بعد الاسلام واليك امثلةً منها :

الدَّور الحركة وعود الشيء الى ما كان عليه ... والدَّور عند الحكماء والمتكلمين والصوفية هو توقف كلٍّ من الشيئين على الآخر ... وقياس الدَّور عند المنطقيين هو ان تؤخذ نتيجة القياس وتُضمّ الى عكس احدى مقدمتيه ... والدَّور في الحمّيات عند الاطباء عبارةٌ عن مجموع النوبة او زمانها ... والدَّور عند الموسيقيين القطعة المنتقلة من الشغل ... وعلم الادوار علم الموسيقي ... والدَّور عند الشعراء القطعة من الموشح ونحوه ...

الدَّرجة المرقاة ... ودرجات الامزجة عند الاطباء مراتبها في الشدة والضعف ... والدرجة عند اهل الجفر وارباب علم التكسير تطلق على حرفٍ من حروف سطر التكسير ... وعند اهل الهيئة تطلق على جزءٍ من ٣٦٠ جزءاً من منطقة الفلك ... ودرجة الكوكب عندهم هي مكانه من فلك البروج ومنها درجة طلوع الكوكب ودرجة غروب الكوكب ودرجة ممرّ الكوكب ...

الحال ... عند الحكماء كيفيةٌ مختصةٌ بنفس او بذي نفس ... وتطلق عند الاطباء على ثلاثة امور الصحة والمرض والحال المتوسطة ... وعند الاصوليين على الاستصحاب ... وعند السالكين على ما يرد على القلب من طرب او حزن او بسط وقبض ... وعند النحاة على لفظٍ يدلّ على الحال اي الزمان ... وعند اهل المعاني على الامر الداعي الى التكلم على وجهٍ مخصوص ...

وان من تصفح كتاب « التعريفات » او الكشاف للتهانوي يرى ان تعريف قسمٍ من هذه الاصطلاحات قد اضطرّ العلماء الى تأليف المجلدات الضخمة

والحاجة ام الاختراع . فلما كان ابناء هذه اللغة مشتغلين بها كانوا يتقدمون فتتقدم ويرتقون فترتقي . فلما وقفوا وقفت وانحصرت سجلاتها في خزائن افرادٍ من العلماء معدودين . وما كان وقوفها لعجزٍ فيها او نفاد في معدن جوهرها

الوضّاح ولكنها عوامل قاهرة اصابت اهلها فانعدتهم معظم هذا الزمان · وما هبّت نسمات النهضة الاخيرة في مصر وسوريا حتى اسرع ابناء القطرين الى استخراج تلك الكنوز الدفينة · ولو تتابعت التآليف العلمية التي فتح لها محمد علي وخلفاؤه ارحب الابواب وتواصل تدريس العلوم العالية بها · او لو لم تُصَب سوريا بما اصيبت به مصر من ضرورة التقاعد عن وضع المؤلفات العلمية لانتقال الدروس في تلك العلوم الى اللغات الاجنبية لما اعوزنا الآن تعبيرٌ في علمٍ من العلوم او فنٍ من الفنون · ولما رأيت ناشئة هذا العصر اذا احتاجت الى تعبيرٍ علمي عمدت الى لسان اعجمي

ولكن تيّار الافكار اذا اندفع بأمة فضّ السدود وتجاوز الحواجز · فان ابناء العربية شاعرون ان حياتهم بحياة لغتهم وقد علموا الآن انه لامُعين لهم غير انفسهم على بلوغ امنيتهم منها · فاذا اخلصوا النية فلا حائل يصدهم عن النهوض بها · ولا ننكر أنهم اعادوا الكرّة فوثبوا بها وثبةً جديدة في هذه الآونة المتأخرة وهذه مجلاّتهم وجرائدهم قد صعدت في مرقاة الكمال درجاتٍ لاعهد لهم بها قبل اعوام · واصبح الكثير من اصطلاحاتها الحديثة «كالمجلة والجريدة والصحافة والمطاد» مقبولاً عند الخاصة والعامة كاوضاع القدماء · وان في مؤلفات الكتّاب والادباء ما يعدُّ لهم فخرًا في هذا الموقف الحرج · واعظم من كل ذلك انتشار الميل الى المدارس الوطنية · فلغة البلاد لاتحيا الا بمدارس البلاد

والشعر من توابع اللغة ولوازمها فاذا ارتفع شأن اللغة فبشّر الشعراء · على ان مطلب الشعراء يختلف عن مطلب العلماء والمؤلفين · فحاجة الشاعر ايسر ومواده اوفر وذخيرته في دماغه فاذا جلاها العلم كانت له ولبني لغته موردًا صافيًا ومنهلاً عذبًا · وفي الامة والحمد لله فطاحل خرجوا عن جادة التقليد البحت فمالوا ميل الزمان واخذوا يسعون الى استجلاء المعنويّات سعي رصفائهم الى استجلاء الحسيّات · وما هي الا جولةٌ واختها مدةً من الزمن حتى تستعيد صناعتهم مقامها الشامخ ومجدها الباذخ.

النشيد الاول

خصام أَخيل واغاممنون

مُجمَلهُ

لما اكتسح الاغريق (اليونان) بلاد الطروادبين عاثوا في مدائنهم وسبوا نساءهم وحصروا إليون عاصمة بلادهم عشر سنوات على ما مرّ بك في المقدمة. وكان في جملة السبايا فتاتان فتّانتان تدعى احداهما خريسييس (او خريسا) والاخرى بريسييس (أو بريسا) أجمع زعماء الجيش على تمليك الاولى منهما لاغاممنون ملك ملوكهم والثانية لأَخيل ملك المرميذونة وبطل الاغريق على الاطلاق. فحمل خريس كاهن أفلون ما غلا وعز من المتاع والمال الى معسكر الاغريق فكاكاً لابنته خريسا وبذلك افتتح هوميروس أناشيدهُ

فجنح الزعماء الى اجابة ملتمس الكاهن الشيخ ولكن اغاممنون أغلظ له المقال ورده خائباً. فانثنى من حيث أتى يستغيث الاله افلّون فأغاثه وضربهم بوباء «فهدت جندهم تخرُّ فلولا» فثقل عليهم الرزء ولم ينقبوا له سبباً. فهاجت الحمية صدر اخيل ودعاهم الى مجلس شوراهم للمفاوضة في استطلاع كنه الامر. فلما اجتمعوا أنبأهم العرّاف كلخاس ان افلون ناقم منهم لخيبة كاهنه وانه لاسبيل الى استرضائه مالم يستلينوا قلب الشيخ برد فتاته اليه. فعظم الامر بادئ بدء على أغاممنون ثم ما لبث ان لان واذعن لحكم كلخاس على ان تساق اليه سبية أخرى بدلاً منها. فعارضه اخيل واشتد الخصام بينهما حتى كاد اخيل يفتك باغاممنون لولا ان اثينا (الاهة الحكمة) هبطت من السماء وصدته قسراً. ثم توسط بينهما نسطور الحكيم اخماداً للفتنة فما زادا الا احتداماً وارفض الجمع على غير وفاق واعتزل اخيل القتال

واما أغاممنون فلم يزدد الا اغترارًا واعتزازًا بما لهُ من السيطرة على سائر الانصار فأمر بارسال خريسا الى ابيها وبعث فقبض على بريسا س[illegible]يل واحلّها في خيمه في جملة ماماك . فشق الامر على اخيل و[illegible] أمه ثيتيس (احدى بنات الماء) فأُسمعت صوت تفجعه من لجا البحر فشقت العباب اليه واستقصّته الخبر ورقيت الى زفس أبي الآلهة تلتمس الاخذ بيد أخيل والانتقام له من الاغريق . فوعد زفس بخذلهم واعلاء شأن الطرواد الى ان يطيب أخيل نفساً . ففطنت هيرا زوجة زفس لما جرى من الحديث بينه وبين ثيتيس وفي نفسها حزازة على الطرواد فهمّت بالاعتراض عليه فاوسعها وعيدًا وزجرًا وبادر هيفست وسوّى الخلاف وادار السلاف فظل الارباب في طرب ونعيم الى ان خيم الظلام فتوسد كل مضجعه ونام

تستغرق وقائع هذا النشيد اثنين وعشرين يوماً تسعة ايام مدة الوباء ويوماً مدة اجتماع الزعماء ونزاع الملكين واثنى عشر يوماً مدة اقامة زفس بين الاثيوبة . ومجرى الحوادث اولاً في معسكر الاغريق ثم في بلدة خريسا واخيراً في الالمب



فهرس الكتاب

التعريب

الالياذة والشعر العربي



٣٠٠٠ ط ٣ / ٤ / ١٩٩٦

قضايا وحوارات النهضة العربية

نظرية الشعر

١ - مقدمة ترجمة الالياذة- سليمان البستاني

اتت ترجمة الالياذة لسليمان البستاني، والصادرة في اللغة العربية للمرة الأولى عام ١٩٠٤ وكأنها استدراك لنقص ثقافي عربي عمره أكثر من ألف عام على الأقل، ففي حين نقل المترجمون العرب في العصر العباسي كتاب الشعر، لأرسطو باكرا، فانهم لم ينقلوا «الشعر» الذي بنى عليه ارسطو كتابه او تنظيراته، وبطبيعة الحال فقد كانت «الالياذة» إلى جانب الشعر التمثيلي اليوناني، من جملة التراث الشعري اليوناني الذي اعتمد ارسطو عليه في بناء نظريته في الشعر، والتي نقلت للعربية أكثر من مرة وشرحها أهم الفلاسفة امثال الفارابي وابن سينا وابن رشد.

لكن اهتمامنا هنا ليس متعلقاً بالالياذة تحديداً، أو بترجمتها، بل هو يتوجه نحو المقدمة النقدية كبيرة الأهمية والتي كتبها سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) مصدراً بها ترجمة الالياذة، والتي اداها البستاني شعرياً، مما جعل أكثر مقدمته يدور حول فن الشعر، وحول فهم البستاني لهذا الفن، ففي هذه المقدمة تكلم البستاني عن هوميروس وشعره والشعر اليوناني، وعن أسباب امتناع المترجمين العرب قديماً عن نقل هذا الشعر، وخصوصاً الالياذة، معيداً ذلك الى وثنية اليونان، والى اعتداد العرب بفنهم الشعري، وبعدها تكلم البستاني عن ترجمة الشعر، ثم بحث عن ملاحم شعرية عربية تقارب الالياذة، ثم قارن بين الأوزان الشعرية العربية واليونانية، وخلال ذلك تحدث عن الشعر العربي القديم و نظريته، ثم قارب الحديث عن الشعراء المحدثين في عهده.

يصدر قريباً في سلسلة: قضايا وحوارات النهضة العربية :
مرحلة الاحياء والديوان. كتب مدرسة الديوان. مرحلة مجلة أبولو. مرحلة مجلة شعر. . . وغيرها. .

يشرف على السلسلة: محمد كامل الخطيب

طبع في مطابع وزارة الثقافة
دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر
١٧٠ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل
٣٤٠ ل.س

قضايا وحوارات النهضة العربية

نظرية الشعر

١ـ مقدمة ترجمة الإلياذة

معربة نظماً وعليها شرح تاريخي أدبي

وهي مصدرة بمقدمة في هوميروس وشعره

وآداب اليونان والعرب

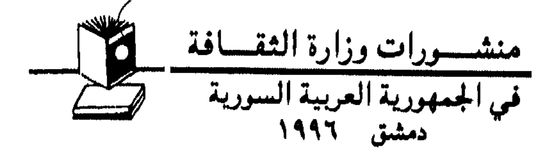
ومذيلة بمعجم عام وفهارس

سليمان البستاني

الطبعة الثالثة - ١٩٩٦

تحرير وتقديم :

محمد كامل الخطيب



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٦